مُولَاي بَالحميسي

الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني

المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية

Scanned by CamScanner

المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية

رقم النشر : 1115 / 81
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ©
الجزائـر 1981

Scanned by CamScanner

القسمُ الأول

Scanned by CamScanner

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ما اكثر ما زعم الغربيون ان تاريخ الجزائر ـ فى العهد العثماني ـ يجب أن يعتمد اطلاقا على المصادر الأوروبية ، وخلافا لتاريخ العصر الوسيط المغربي يجب أن يدرس بصفة أساسية من خلال ما رواه الملاحظون الأجانب وما كتبه القناصل والأسرى والتجار الذين أقاموا بالجزائر آنذاك .

نعم لقد مكنت التجارة والدبلوماسية والجوسسة والظروف احيانا ـ بعض الأوروبيين من التعرف على هذا البلد وأتاحت لهم الفرص العديدة للتأليف فى شتى المواضيع تتعلق بحياتنا أو بتاريخنا .

الا أننا نلاحظ على هذا الانتاج الضخم اقتصاره على بعض الجوانب دون الأخرى . فلقد ملأت الكتب الأوربية الدنيا بالحديث عن القرصنة وحياة الأسرى النصارى ومفاداة الجماعات منهم والدعوة الى مواصلة الحروب الصليبية وتدمير الجزائر واحتلال أجزاء من ترابها ساكتة عن القرصنة المسيحية وعن آلام المسلمين فى سجون ليفورن Livourne اوبرشلون Barcelone وناسية ما هو أهم من الحديث عن الغزو وتعسفات الحكم آنذاك .

فارخ جمهور المؤرخين للجزائر العاصمة أكثر مما ارخوا للبلاد وتكلموا عن الاتراك وحكمهم اكثر مما تحدثوا عن الأهالي والمدن والقبائل والدين والوضع الاجتماعي والحياة الثقافية .

ولذا فالمصادر الاسبانية والفرنسية والايطالية ـ مهما كانت كثرتها ومهما كان ثناء الكثير عليها ـ ظهرت فى الواقع غير كافية للاطلاع على أحوال البلاد وكتابة تاريخها فى العصور الحديثة .

Scanned by CamScanner

فلا بد من الالتفاف الى المصادر العربية ، والبحث عنها اينما كانت والتخلي عن نظرة الغربيين اليها واستخدامها استخداما موضوعيا يعتبر من اولويات الباحثين .

وعملنا هذا محاولة تندرج فى هذا الاطـــار . فالرحلات من المصادر المساعدة للتاريخ وهي احيانا بمثابة الشريط السينمائي يصور منظرا او يلتقط حدثا . فاخترنا اربعا لشخصيات من المغرب الأقصى تحدثوا عن بلادنا بعد ان زاروها واقاموا بها مدة خولتهم حق الكتابة . واضافوا الى الدراية النزاهة والاعجاب احيانا .

وما خصصوه للجزائر فى رحلاتهم جدير بان يجمـــع ويدرس ويحلل ويقارن بما فى رحلات الأوربيين المعاصرين لهم وهكـــذا يكون التكامـــل النافع .

وطريقتنا فى هذا العمل اننا بدانا بجمع النصوص واستخراج ما يهم الجزائر . وبما ان الطبعات الحجرية او العصرية مملوءة بالأغلاط كـان التصحيح ضروريا ، وبما ان الرحلات فى شكلها الأول عبـــارة عن جملة طويلة كان من المفيد تجزئة النص الى فقرات اعطيناها عنوانا يسهل القراءة والفهم . وبما ان الطبعات الأخيرة لبعض هذه الرحلات تجارية اكثر مما هي عملية فقد اكثرنا من التقاييد والشروح ولفت نظر القاريء الى مصادر ومراجع اخرى . واتماما للفائدة أضفنا خرائط تبين تنقلات صاحب الرحلة والمناطق التي تجول فيها .

هذا فى حق نص الرحلات . غير اننا اسبقناه بدراسة تحليلية تناولت الرحلات عند العرب وتطورها وتراجم هؤلاء الرحـــالين المغاربة وظروف قدومهم الى بلادنا كما وقفنا عند الفوائد التي تضمنتها كل رحلة والتي قد يكون المؤرخ فى حاجة الى معرفتها .

واخيرا يجد القراء فى نهاية هذا العمل ثبت المصادر العربية والأجنبية التي اعتمدنا عليها فى التحقيق او فى المقارنة او لاثراء النص .

Scanned by CamScanner

الرّحلاتُ والعَربُ

لقد قيل : « ولد الانسان راحلا » قول ينطبق على المسلمين ــ ابان ازدهار حضارتهم ــ أكثر مما يعني غـيرهم ويرجع السـبب فى ذلك لاتساع مسلكتهم وتطور أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية كما يرجـع لتعطشهم للمعرفة والاطلاع وحب الاغتراب وأداء فريضة الحج .

وهكذا سار الكثير فى الأرض واخترقوا الآفاق وتحـدوا الأهـوال والأخطار فاشتهر من بينهم مغاربة ومشارقة اتجهوا كل اتجاه ضـمن المواكب ، أو على متن المراكب .

واذا حددنا الموضوع على أهل شمال أفريقية وجدنا عددهم يربـو على العشرين وقد سجلوا ما وقع تحت أعينهم وما لفت أنظارهم وما أثار انطباعاتهم فوصفوا البلاد وصوروا العباد وتفانوا فى جمع المعلـومات الجغرافية والتاريخية والحضارية ، فاستفادوا وأفادوا ، ولعل ما يلخص شغف الناس بالحل والترحال قول ابن زاكور الفاسي : « فان الرحلة منة من الله نحلة تكسب الغليظ الطباع غاية الرقة والانطباع وتعقب من كابد لها نصبا علما غزيرا وأدبا .. »

Scanned by CamScanner

وعندما زاد على الرحلة الاقبال تنوعت الأغراض وتعددت الموضوعات وتطور هذا الفن الأدبي كما وكيفا (1) وأصبح من الأهمية بمكان بحيث لا تكمل ثقافة الانسان بدونه كما أصبح من أهم المصادر التاريخية .

* * *

1 ـ الرحلة فى طلب العلم :

كان الدارس اذا ما تم تعلمه فى بلاده يسافر بعيدا ويغترب طويلا وينزل باحدى عواصم العالم العربي ويجالس من اشتهر من علماء العصر ويحضر دروسهم ويسعى فى اجازاتهم ، يقيد ما حدث ويلخص ما اقتطف وتصبح هذه التقاليد هيكل كتاب يعرف فيما بعد بالرحلة فى طلب العلم .

وهذا ما فعله محمد المكي الدرعي الناصري (أواسط القرن الثامن عشر) صاحب « الرحلة المراكشية » (2) . وقبله ابن زاكور الفاسي (المتوفى سنة 1120 / 1708) الذي قضى شهورا بالجزائر العاصمة يأخذ عن علمائها ويتضلع فى الفقه والمنطق والتوحيد فصور هذه الاقامة الدراسية فى « نشر أزاهير البستان .. »

والرحلة العلمية ، وان ضحت بوصف البلدان والمجتمع فانها تفننت فى الحديث عن الحياة الفكرية والنشاط الثقافى وما هذا بالجانب الذي يستهان به !

---

1 ـ خطا فن الرحلة خطوات كبيرة بفضل ابن جبير وابن بطوطة صاحب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار »

2 ـ رحلة داخل المغرب .

Scanned by CamScanner

2 ـ الرحلة الاستطلاعية :

وقد يخطر لمحب التجوال والمغامرة أن يرتحل لمدة كثيرا ما تستغرق شهورا أو سنوات يدون أثناءها ما يعجبه أو يجلب انتباهه أو يخالف ما تعوده (3) .

وفى هذا الصنف من الرحالين نذكر الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف عندهم بالأسد الأفريقي Léon l'Africain والذي شرع فى رحلته للمشرق حوالي 1515 ـ 1516 الى أن قبض عليه قراصنة صقلية فسيق الى البابا ليبون العاشر .

ومكن السفر والتنقل فى المغرب رحالتنا من كتابة ما شاهد وما سمع وما استنتج . وجعل الكل فى « وصف أفريقيا » Description de l'Afrique (4)

3 ـ الرحلة للسفارة :

ظهر هذا النوع فى القرن 16 ، فكان السلاطين السعديون وبعدهم العلويون يعينون بعض المقربين لهم للقيام بمهمة فى البلدان الأجنبية (5) أو الاسلامية لدى ملوكها وهذا ما وقع للتمقروتي سنة 1580 عندما كلفه أحمد المنصور بالذهاب الى اصطنبول وما جرى للوزير الزياني سنة 1786 . وعند العودة يكتب السفير « تقريرا » مفصلا يذكر فيه كل ما رأى أو حدث له أو اطلع عليه .

---

3 ـ ابو حميد الغرناطى (476 ـ 565 / 1080 ـ 1169) له « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب».
لسان الدين بن الخطيب (704ـ776 / = 1313 ـ 1374) «خطرة الطيف رحلة الشتاء والصيف » . وهي رحلة الى المغرب .

4 ـ النص الأصلي بالايطالية ، وكانت أول ترجمة فرنسية للكتاب سنة 1556 وقام بها

5 ـ الوزير الغساني مبعوث مولاي اسماعيل لدي ملك أسبانيا . له « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير »
الغزال كاتب مولاي محمد بن عبد الله) له « نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد » .

Scanned by CamScanner

4 ــ الرحلة الى الحجاز :

ينسب للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله : « لا تشد الرحال الا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى » وعملا بهذا القول قصد جمهور من الأدباء والعلماء الأندلسيين والمغاربة البقاع المقدسة وبرعوا فى وصف رحيلهم واقامتهم حتى أصبحت كتبهم دليلا لمن ينوي السفر ومرشدا لمن يحذر الخطر .

نذكر العبدري (توفي 1289 م) صاحب الرحلة المغربية والذي « غادر الأهل والدار .. خائضا غمار الأسفار .. غير مبال بالأخطار .. وقبض على عصا التسيار قاطعا المهامه والقفار غايته .. زيارة البقاع المقدسة حيث يتجه المسلم خمس مرات فى الليل والنهار .. »

ومر العبدري بالمغرب الأوسط سنة 688 هـ ، وترجم لرجاله ووقف على معالمه وزار معظم مدنه .

وجاء دور أبي البقاء خالد بن عيسى.. البلوي فحج سنة 737 هـ 1336م وصنف رحلة وسماها : « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » .

وقد مر بهنين وتلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وعنابة . وكان طريق العودة على نفس المدن والأمصار .

Scanned by CamScanner

الجزائر فى العهد التركي ومشكل المصادر :

لا زالت هذه الحقبة من تاريخنا مجهولة بعض الجوانب تعاني قلة المصادر (6) التي نترجاها لتلقي أضواء وتشجع على الدراسات الجدية وترمي فى سلة المهملات تلك الكتب السطحية والمقالات المغرضة فكيف يسد الفراغ ويرتفع الضباب ؟ لقد اعتنى الغربيون بالرحلات التي قام بها تجارهم وقناصلهم ومغامروهم (7) الى بلدنا ما بين مطلع القرن 16 وبداية 19 . كما اعتنوا عناية خاصة بما كتبه أسراهم .

---

6 ـ يقول رين Rinn واصفا فقدان الوثائق :

« Pour la période turque, il y a pénurie de bons documents, et si ceux que nous ont laissés des diplomates, des prêtres, des voyageurs, des commerçants sont parfois sincères, curieux et instructifs ils ne disent presque rien de l'histoire des Berbères et des Arabes ayant vécu en dehors de l'oligarchie maîtresse du pays » B.S.G.A., 1903, p. 2.

7 ـ نذكر بعض الرحلات الاوربية مع الامل فى أن تقارن يوما بالرحلات العربية المعاصرة لها :

Nicolay (Nicolas de). — *Les quatre premiers livres des navigations orientales*, Lyon, 1568.

ونيكولاي هذا هو جغرافى الملك هنري الثاني وقد رافق السفير ق دارامــون الى القسطنطينية سنة 1551 غير أن الوفد توقف بالجزائر وبجاية وعنابة ووصف نيكولاي هاته المــدن .

Marmol Carvajal. — « Descripcion general de affrica ».

ومارمول رحالة ومؤرخ اسباني ومحارب فى جيوش الطاغية جال فى المغرب الاوسط ووصفه .

Diego del Castillo. — *Memorial... sobre la costa de Barberia en* 1532.

(Chantal de la Verone), 1974. نقلته الى الفرنسية السيدة شانتال دي لافيرون .

Grandchamp. — *Une mission délicate en Barbarie au XVII^e^ siècle.* Jean Baptiste Salvago, drognan Venitien à Alger et à Tunis en 1625. (Revue tunisienne VIII, 1937, pp. 299-322 ; 471-501).

Hees (Th.). — *Journal d'un voyage à Alger*, 1675-1676, R.A., 1957.

Rehbinder (J.A.F. von). — *Nachrichten und Memer Kungen über den Algierschen Staat. Altona*, 1798-1800 (3 vol.).

ورهباندير هو قنصل مدينة هانبورق (Hambourg) وقد اقام بوهران سنــة 1788 ومعلوماته صحيحة ودقيقة وخصص الجزء الثالث للادارة التركية فى البلاد ولاحوال السكان الاقتصادية والاجتماعية .

Scanned by CamScanner

وما من شك أننا نجد فيها الكثير مما يساعد على تتبع الحوادث أو تصور الحقائق غير أن نظرة الغربيين وتحليلهم يصيب ويخطىء (8) وقد ركزوا اهتمامهم على ماله علاقة بانشغالاتهم آنذاك وتركوا البقية .

أما المصادر العربية فهي قليلة لا تستطيع أن تنافس أو تزاحم التآليف الأوروبية الخاصة بالجزائر فى العصر العثماني . فالمؤرخون الذين عاصروا حوادث القرن السادس أو السابع عشر قليلون . والفنون المساعدة للتاريخ كالرحلات والتراجم آوى أصحابها الى تونس أو الى فاس . ولم يظهر سوى نخبة قليلة مثل ابن مريم وابن ميمون وابن سحنون وغيرهم فى حزب الكتاب .

ولهذا كله زاد دور الرحلات المغربية أهمية لما فيها من أخبار أو اشارات حول المدن والتل والصحراء والقبائل والتجارة . وأصحاب الرحلات – التي نقدمها فى هذا الكتاب – من أهل العلم والمعرفة والاطلاع على ماضي المغرب الأوسط وحاضره وينتمون الى طبقة اجتماعية عالية ويحظون بمكانة مرموقة مكنتهم من ربط علاقات ودية متينة مع حكام المغرب الأوسط وعلمائه وأمرائه . وهم عرب لا يوقفهم حاجز اللغة مثل ما وقع للأوربيين الذين قدموا للجزائر فى ذلك العصر ولا يورطهم عامل اللسان فى الأغلاط والأخطاء . وهم مسلمون ، اذن بعيدون كل البعد عن الأفكار المسبقة والنوايا السيئة بل تحلوا بالنزاهة وترفعوا عن الحزازة (9) وخصصوا الصفحات العديدة للمغرب الأوسط

---

8 – كان بعضهم ينظر للمجتمع الجزائري بعدسة بلاده فيستقبح ما كان مستحبا عندنا وهذا لوجي دي تاسي يقول :

« Les Algériens n'ont ni concerts, ni jeux, ni aucun spectacle public ou particulier. Ils passent la moitié de leur temps à boire du café ou à fumer. Ils n'ont jamais d'autre compagnie que celle de leurs propres femmes... Tous les jeux sont défendus à l'exception des échecs et des dames... ».

Laugier de Tassy, Histoire des Etats barberesques, p. 184.

9 – رغم التوتر بين حكام الجزائر من جهة والسعديين والعلويين من جهة اخرى .

Scanned by CamScanner

لقد وصفوا الجزائر ودونوا أخبارها وتحدثوا عن شعبها ، وأثنوا مرارا على كرم القوم وحسن ضيافته وما الخبر كالعيان !

ولما كانت رحلات المغاربة كثيرة (10) اخترنا أربعا منها لأن كل واحدة تمثل فترة أو جهة من البلاد .

فرحلة التمقروتي كانت فى أواخر السادس عشر وكانت عن طريق البحر فهي اذن تطلعنا على أخبار المدن الساحلية وخاصة العاصمة .

ورحلة العياشي ـ فى النصف الثاني من السابع عشر ـ تلقي أضواءا على حياة الصحراء الجزائرية وواحاتها وطرقها وأتعاب السفر عبرها .
ولرحلة ابن زاكور الفضل فى وصف الحياة الثقافية ونشاط التعليم فى العاصمة فى نفس الفترة .

ويعرفنا الزياني فى أواخر الثامن عشر بالتل ومدنه وبمكانة تلمسان والجزائر وقسنطينة وبسنزلة محمد الكبير باي وهران والداي حسن ، وحسين باي قسنطينة وبالحالة الاجتماعية .

ولم يكن مرور هؤلاء الرحالين ببلادنا مجرد عبور سريع بل أقاموا شهورا وسبق لبعضهم زيارات . فقد حج العياشي ثلاث مرات مارا بطريق الجنوب . وأطال الباقون اقامتهم بالعاصمة وببعض المدن الأخرى .

وحتى تظهر الفوائد الاخبارية جليا لهذه الرحلات فاننا نقدم تراجم أصحابها تبرز فيها شخصيتهم واستعدادهم للتأليف وباعهم الطويل فى الوصف الدقيق والملاحظة المناسبة .

* * *

---

10 ـ منهم أبو العباس أحمد افكاي (القرن 17) : « رحلة الشهاب الى لقاء الأحباب .
وأبو العباس أحمد الفاسي (توفي 1214 هـ هـ) : الرحلة الفاسية .
وأحمد الناصري الدرعي (توفي 1129/=1717) : الرحلة الناصرية .

Scanned by CamScanner

1 ـ التمقروتي (1003 / 1594 ـ 1595)

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي .. التمقروتي (نسبة الى قرية تمقروت بوادي درعة بالمغرب الأقصى) .

ولد حوالي 1560 وتعلم بزاوية المكان ثم بدأ يجول وقلد مناصب هامة ورسمية ببلاط مراكش . وكلفه السلطان السعدي أحمد المنصور بسفارة الى اصطنبول .

توفي التمقروتي بمراكش سنة 1003 هـ / 1594 ـ 1595 م ، ودفن بجوار القاضي عياض .

رحلتـــــه :

كانت العلاقات بين السعديين وآل عثمان تتصف بالتوتر فى غـالب الأحيان . ففي سنة 1581 خشي أحمد المنصور أن يشن أتراك الجزائر غارة على بلاده فقرر ارسال بعثة الى القسطنطينية ومنذ ذلك الوقت تكررت السفارات الى اصطنبول تحمل الهدايا الى الخاقان .

وفى سنة 1589 كلف التمقروتي بنفس المهمة ، فخرج من مراكش ونزل بتطوان ثم أبحر مارا أو نازلا ببعض المدن الساحلية الجزائرية واستمر السفر الى أن عاد التمقروتي الى تطوان فى شهر نوفمبر 1591 .

Scanned by CamScanner

وسجل السفير انطباعاته وملاحظاته فى كتاب سماه « النفحة المسكية فى السفارة التركية » .

وقد اعتنى بطبعها دي كاستري Decastries معتمدا على النسخة الوحيدة الموجودة بالمغرب الأقصى ثم نقل الى الفرنسية الكثير منها (11).

وتحدث التمقروتي عن الجزائر فى ذهابه وايابه ولذا نجد معلومات تهم البلاد من الصفحة 12 الى 19 ثم من الصفحة 76 الى 86 من الطبعة الحجرية .

* * *

2 ـ العياشي (1037 ـ 1090 / 1628 ـ 1679)

هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر .. العياشي المالكي ولد بقبيلة آيت عياش قرب تافلالت (شعبان 1037 / مايو 1628) .

كان أبوه شيخ زاوية وهو الذي أشرف على دراساته الأولى ثم انتقل العياشي الى زاوية وادي درعة وتتلمذ لمحمد بن الناصر ثم عاد الى فاس حيث أكمل تعلمه على يد مشايخ مثل عبد الرحمن بن القاضي وعبد القادر الفاسي الذي أجازه سنة 1063 هـ / 1653 م .

ثم انتقل الى المشرق وأقام بعواصمه طلبا للعلم ، المرة الاولى سنة 1059 / 1649 ، والمرة الثانية سنة 1064 / 1653 والمرة الثالثة سنة 1073 / 1661 .

وتوفي العياشي بالمغرب الأقصى سنة 1090/1679 بسبب الطاعون .

— 11 Paris ; P. Guetner, 1929, 130 pages.

Scanned by CamScanner

آثاره :

كان العياشي محدثا وصوفيا وعالما وشاعرا ، له منظومة فى البيوع وأخرى فى التصوف سماها : « تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد فى الدنيا الفانية » وله أيضا كتاب فى التراجم عنوانه : « اقتفاء الآثار بعد ذهاب أهل الآثار » .

الا أن العياشي اشتهر برحلته .

رحلتـــه :

هي رحلة ضخمة سماها « ماء الموائد » وضمنها أخبارا وحـوادث مختلفة شاهدها أو سمعها أثناء أسفاره وأهـم ما فيهـا وصف طريق الصحراء والسكان والعوائد وأحوال المعاش والأمـن والحـديث عن العلماء والدين وأتعاب المسافرين . ورغم الاستطرادات الطويلة فـان للرحلة قيمة لفتت أنظار المستشرقين الذين نقلوها كاملا أو جزئيا (13) وأثنوا عليها (14) .

وقد خصص العياشي صفحات عديدة فى الجزءين من كتابه للجنوب الجزائري ولمدنه ولعلمائه ولتاريخه وسيأتي الحديث فى هذا الموضوع .

---

12 – طبعة فاس الحجرية سنة 1316 هـ / 1898 – جزان .

— 13

1) Berbrugger (A.). — *Voyage dans le sud de l'Algérie et des Etats barbaresques de l'Ouest et de l'Est par el Aïachi et Moula Ahmed...* (Exploration scientifique de l'Algérie. Sciences historiques et géographiques IX, Paris, 1846).

2) Brihmat (A.). — *Voyage d'Abû Salim 'Abdallah... El Ayachi,* in Revue de l'Islam, mars, 1899.

3) Motylinski. — *Itinéraires entre Tripoli et l'Egypte,* Alger, 1900.

4) Lakhdar Mohamed. — *Les étapes du pèlerin de Sidjilmasa à la Mecque et Médine.* 4e congrès de la Fédération des Sociétés savantes de l'Afrique du Nord, Rabat, 1938, T. II, pp. 671-628.

— 14

« C'est une véritable encyclopédie de Science musulmane et de soufisme. Il eut été difficile de passer sous silence cet auteur marocain si connu et estimé dans son pays ». Lévi-Provençal, *Les Historiens des Chorfa,* p. 264.

Scanned by CamScanner

3 – ابن زاكور : 1075 – 1120 / 1663 – 1708 :

هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد ابن زاكور الفاسي .. أديب ورحالة وشاعر ، ولد بفاس سنة 1075 هـ على الأرجح (وتوفي بها فى 20 محرم سنة 1120 هـ /=1708) .

تعلم بفاس ثم انتقل الى مدينة تطوان فأخذ عن علمائها من بينهم الشيخ عبد القادر الفاسي (1599 – 1680) والشيخ محمد المهدي الفاسي (1648–1732) والحسن الايوسي (1630–1691) ومحمد القسنطيني الحسني ..

ثم قدم الجزائر بحرا سنة 1093/=1683 للاجتماع بعدد من علماء المدينة والأخذ عنهم واستجازتهم « مروياتهم ومؤلفاتهم » (15) وحصل على الاجازات التي كانت آنذاك بمثابة الشهادات العلمية ثم عاد الى تطوان .

ومن بين أساتذة ابن زاكور فى الجزائر : الشيخ محمد بن سعيد قدورة (توفي 1687) الذي أجاز رحالتنا فى رجب 1094/ صيف 1684 .

رحلتـــــه :

وتسمى « نشر أزاهير البستان فيمـن أجازني بالجزائر وتطوان » وهي رحلة قصيرة (69 صفحة) بقيت مجهولة مدة طويلة الى أن طبعت فى الجزائر سنة 1319 هـ / 1902 م .

وأقدم عبد الوهاب بن منصور على طبعها أيضا بالرباط سنة 1378 / 1967 (16) وجاء فى المقدمة « .. ألقت هذه الرحلة أضواء على التعاون

---

15 – يقول عبد الوهاب بن منصور « ان لزيارة ابن زاكور للجزائر أسبابا عائلية وتجارية .. » دون أن يبرهن على ذلك .

16 – طبعة الرباط صورة مطابقة لطبعة الجزائر بدون تحليل أو تعليق أو فهرست .

Scanned by CamScanner

الثقافي بين المغربين الأقصى والأوسط وأضافت حلقة جديدة الى سلسلة الروابط العديدة التي تشدهما شدا وثيقا .. » .

والرحلة تنقسم الى قسمين متساويين تقريبا . فالأول خاص بالجزائر وعلمائها وطرق التدريس بها والثاني حديث عن تطوان ومشايخها ، وضم هذا الكتاب أشعارا كثيرة فى مختلف الفنون أوردنا ما يهم موضوعنا .

4 ـ الزياني (1147 ـ 1743/1249 ـ 1833) :

هو أبو القاسم بن أحمد بن علي .. الزياني ، رحالة وأديب ووزير مغربي ، ولد بفاس سنة 1147 هـ = 1734 م ، وتعلم بها على أساتذة أجلاء الى سنة 1169 / 1759 .

وفى عهد السلطان مولاي عبد الله رافق الزياني والديه لأداء فريضة الحج ودام هذا الغياب عامين ، وفى طريق العودة مر بمدينة ليفورن Livourne بايطاليا حيث مكث أربعة أشهر ينتظر مركبا ثم أرغم هو وأهله على السفر برا مارا بمرسيليا وبرشلونة الى أن دخل المغرب .

ثم عين الزياني كاتبا بالقصر الملكي ومكنته بعض الحوادث الداخلية من أن يبرهن على مهارة سياسية ومقدرة ادارية حتى قربه مولاى محمد ابن عبد الله وكلفه بعدة مهام مثل التفاوض مع القبائل المتمردة .

وفى سنة 1200 /=1786 عين لسفارة الى اصطنبول ـ والسلطان العثماني آنذاك ، عبد الحميد (1774 ـ 1789) فخرج الزياني مارا بمالقة وتونس واستقبل فى عاصمة العثمانيين استقبالا رسميا وأقام هنالك نحو ثلاثة أشهر .

وعند العودة الى فاس استأنف أعماله ونشاطه متنقلا من منصب الى آخر أعلى منه .

Scanned by CamScanner

وتوفي محمد بن عبد الله (رجب 1204/أفريل 1790) فخلفه ابنه مولاي يزيد فتعرض الزياني لشتى الاهانات وصودرت أملاكه وأدخل السجن .

وكانت الفتن تدمي البلاد والفوضى تقضي على سلطتها والحوادث تهز العرش العلوي الى أن توفي يزيد (جمادي الثاني 1206 / فيفري 1792) فخلفه مولاي سليمان فعاد للزياني شأنه ونشاطه .

عين الزياني من جديد واليا على وجدة لاخماد فتنة آنقاد . الذين عاثوا فى شرق المملكة . فهوجم الوالي ونهبت أمتعته وخاف أن يحمله السلطان مسؤولية الهزيمة فلجأ الى المغرب الأوسط تاركا وراءه ما عانى وعاين . قال فى كتابه الترجمان المعرب . . « واسترحت من أهل المغرب وتقلباته وخلعت ربقة الرق وتغلياته » .

* * *

نزل الزياني بوهران ضيفا على الباي محمد الكبير ثم التحق بتلمسان وقضى مدة طويلة بين علماء هذا المصر ثم قصد الجزائر فأكرمه أهلها وحكامها .

وبعد أيام خطر له أن يزور اصطنبول مرة ثانية . فبدأ رحلته مارا بقسنطينة وتونس .

وجال فى المشرق بين عواصمه الى أن عاد الى الجزائر قادما اليها عن طريق تونس وقسنطينة فوجد الترحاب والضيافة والمساعدة .

وكان يفكر ـ وهو فى الجزائر ـ أن يستقر بتلمسان ـ غير أن ضغوطا والحاحات عديدة من المغرب جعلته يغادر مكانه المحبوب العباد وجوار سيدي أبي مدين الغوث ويرجع فى النهاية الى بلاده ..

وتوفي الزياني فى رجب 1249/=نوفمبر 1833 بعد حياة طويلة ونكبات عديدة لم تمنعه من التأليف والمطالعة .

Scanned by CamScanner

ومن أشهر كتبه :

1 ــ الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب (فى التاريخ العام) .

2 ــ البستان الظريف فى دولة أولاد مولاي على الشريف (تاريخ الدولة العلوية) .

3 ــ رسالة السلوك فيما يجب على الملوك (فى السياسة) .

4 ــ الترجمانة الكبرى (فى رحلاته خارج المغرب الأقصى) .

رحلتــــــه :

أنهاها الزياني فى ربيع الأول 1233 / 20 جوان 1818 . وسماها :

« الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبحرا، وما تخللها من الأمصار ، والمدن والقـرى والقفار ، والبحر والجبال والأنهار ، والعيون والمعادن والآبار ، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانـات والأحجار ، وما يريد ذاك من تفسير والآثار ، ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار . »

وهي رحلة الى اصطنبول وفهرسة ومختصر جغرافية وموسوعة صغيرة ضمت أخبارا عديدة فى مختلف الفنون والمواضيع وخصص عدة صفحات للجزائر وقد حققها عبد الكريم الفلالي سنة 1387 / 1967 تحقيقا طفيفا ينقصه الكثير ، ومن هذه الطبعة نقلنا أخبار الجزائر (ص 140 ــ 157 وص 374 ــ 380) .

Scanned by CamScanner

الفوائد الاخبارية لهذه الرّحلات

ان لهذه الرحلات فوائد تاريخية جمة نظرا لقلة المصادر العربية التي يعول عليها لرفع الغبار وسد الفراغ والقاء الأضواء حول فترة دامت ثلاثة قرون وهي أكثر الفترات غموضا أو تشويها .

1 ـ النفحة المسكية :

لقد عيب على التمقروتي اقتباسه الممل بل نقله الفادح لرحلة البلوي المعروفة « بتاج المفرق » .

ولم ينفرد التمقروتي بهذا الداء فقد نقل الورثلاني عن العياشي غير أن ما ظهر للبعض نقصا وعيبا يبدو لنا اليوم فضـلا لأنه أطلعنـا على صفحات من هذه الرحلة التي ما كنا ليصل لمضمونها لولا التمقروتي . ولا زالت فيما نعلم مخطوطا مدفونا بخزائن الرباط وتونس .

ثم ان للتمقروتي ملاحظات شخصية وأحكاما صائبة :

أ ـ طريق الساحل (من هنين الى بونة) ورد فى الرحلة جميع أسماء المدن الحالية ما عدا البعض القليل . وكانت آنذاك عبارة عن حصون معززة تحيط بها أسوار دفاعية والعمران بها موجود وكـذلك الزرع والفواكه .

Scanned by CamScanner

وعلى التمقروتي عناية خاصة بأخبار العلماء ، الأحياء منهم والأموات، فكانت رحلته عبارة عن قائمة المشهورين منهم وكان للعاصمة الصفحات الخالدة اذ مر بها التمقروتي وأقام مدة مكنته من أن يعرفها ويعجب بها :

فهي كثيرة الأسواق والسلع والكتب والطلبة والسفن والجند ولاحظ تحصين أبراجها وشجاعة رياسها وتفوقهم العسكري حتى على أتراك القسطنطينية . وأرغمته نزاهته وأجبرته أمانته أن يعترف بأنها « أفضل من جميع بلاد أفريقية وأعمر » وكانت تدعى : اصطنبول الصغرى (17).

وفى حديثه عن المركبين المشحونين الذاهبين الى اصطنبول وصف لنوعية العلاقات بين الجزائر وعاصمة العثمانيين . ووصف أيضا للصراع المرير بين الجزائر وأعدائها فى البحر الأبيض المتوسط . فقد تحدث بعض الكتاب عن حيل بعض الأسرى وعن مكايدهم (18) للغدر بالمسلمين الا أن ما رواه التمقروتي ـ وقد كاد يذهب ضحية المؤامرة ـ أكثر دقة وأمتع تفصيلا وأصدق لهجة .

2 ـ ماء الموائد :

ـ أورد العياشي ـ فى رحلته المشهورة ـ مجموعة من الأخبار الهامة تساعد الباحث على معرفة أوضاع الجنوب الجزائري فى القرن 17 ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا .

---

17 ـ بينما يرسم الاب دان (Dan) صورة مخالفة لذلك فى كتابه

« Le lieu où se fait dans Alger cet infâme et maudit commerce est au milieu de la ville et nommé Badistan... [A Alger] il y a quantité de tavernes et de cabarets...

Dan : *Histoire de Barberie.*

18 ـ سيرفانتيس فى كتابه « الاسير»

Cervantès (M.). — *El Cautivo* (le Captif).

Scanned by CamScanner

1 ـ الطريق من المغرب الى تونس :

كان مغاربة الجنوب ـ سكان سوس ومراكش ـ اذا استعدوا للحج فضلوا عبور الصحراء على الطلوع للشمال واتباع طريق التل ، وكان طريقهم العادي : فقيق ـ بوسمغون ـ الغسول ـ عين ماضي ـ تاجمونت الأغواط ـ برج الغيران ـ سيدى خالد ـ بسكرة ـ سيدي عقبة ـ فتورز .

غير أن العياشي اتخذ طريقا ـ فى سفره الى الحجاز ـ مخالفا وذا اتجاهين : الأول شمال جنوب حتى توغل فى الصحراء ووصل الى واحات توات مسايرا وادي قير ووادي الساورة ووادي طمغاوب ـ ثم اتبع طريقا شمال شرقي من أوقرب الى الدغامشة الى القليعة الى ورقلة ثم الى تماسين وتقرت وسوف ، وسبب هذا الاختيار هو وجود الماء والكلأ وكثرة الواحات وهي أشياء أساسية للركب .

2 ـ الـركب :

هو عبارة عن مدينة متنقلة بنظام ويشرف على سيرها وراحتها وأمنها أمير الركب وبجانبه الامام والقاضي ، ويتحرك الجميع بأمتعتهم عـلى الابل .

وأتعاب السفر كثيرة ولذا تسير القافلة ببطء وتعاني من البرد والجوع والعطش وفقدان الزاد والماء وعياء الابل . ويتعرض الحجاج الى غارات الاعراب فيستعدون للقتال تارة أو يفكرون فى تغيير الطريق أو فى المشي ليلا تارة أخرى .

وتضيف قساوة الطبيعة مشاق أخرى فى طريق الموكب فالرياح تحمل « الرمال كالجبال حتى لا يكاد الرجـل يعرف مسـايره ولا يسمـع مسامره » . والطريق الوعرة تمزق النعال وتولم اخفاف الابل وحوافز البغال . وهذا فيضان الوديان وهطول المطر يوقف المسافرين مدة . وقد

Scanned by CamScanner

يصطدم الحجاج عند الوصول الى مكان عامر باستنكار أهله خوفا من الوباء أو من تسرب الاعراب .

غير أن العلاقات بين الحجاج والأهالي كثيرا ما تكون أخوية وودية فيبادر سكان القرية أو المدينة باطعام الضيوف واكرامهم وفتح الحديث معهم حول المسائل الفقهية أو الدينية .

وقد يجد المسافرون فى أسواق القرى والأمصار ما يحتاجون اليه من قمح وعلف وسمن ولحم ودواب . وهذا دأبهم فى تنقلهم الـذي يدوم شهورا عديدة .

3 ـ الصحراء :

ـ العياشي من أدرى الناس بصحراء المغرب الأوسط لأنه حج ثلاث مرات واخترقها ذهابا وايابا فى زمان كان الرحالون يمرون على تلمسان أو المعسكر أو قسنطينة وكأنهم عبروا الـواحات واذا تحـدثوا عـن الصحراء اقتصروا على ذكر العطش والرمال !.

وفى رحلة العياشي فهي أراض متنوعة منها السهل المسترسل ومنها الحماد والجبال ومنها الارض الحرشة الوعرة ومنها الرمال الكثيفة التي يحار فيها النظر ، أرض لا يهتدي فيها الا من مارسها ، « ولا يهم المرء فيها الا نفسه ولا يتشعب فى شعابها الا حوافق الرياح ولا يجترى على قطعها الا ذو خف أو جناح .. بلد كاد الطعام يكون به دواء » .

وعني العياشي عناية فائقة بأخبار الماء فى الصحراء فذكر أماكن الماء وكيفية استخراجه وتوزيعه وقيمته .

أ ـ الوديان : لولاها لما كانت « القصور » وهي كثيرة المياه فى الشتاء قليلتها فى الصيف وأشهرها : وادي قير المنحدر من جبل تاندرارة وهو « وادي كبير فسيح ملتف الأشجار قليل الأحجار كبير المرعى .. تجتمع

Scanned by CamScanner

اليه سيول من المسافات البعيدة .. عليه قرى ومزارع .. ويمتد الى ناحية الصحراء » . ووادي الأساور من أطول الأودية وأقلها فائدة وأكثرها مخافة . ووادي امقدن المياه كثيرة فيه « وماؤه عذب غزير » ووادي مساعد ووادي الأشبور ووادي الناموس « كبير ملتف الأشجار».

ولم يقتصر العياشي على الأودية بل قدم قائمة مفصلة للأحساء ذات الماء العذب والطيب . والحاسي في الصحراء هو منبع الحياة (19) .

ووقف العياشي على أجهزة الفجاجير وعلى أساليب حفر الآبار في وارقلة وعلى « القلت » وهي المستنقعات الصغيرة المحتفظة ببقايا ماء بعد جفاف الوديان .

وأخبار الماء مرتبطة بأخبار السكان وهم صنفان : حضر وبدو . فسكان « القصور » المحاطة بالأسوار ، مزارعون لوجود الماء ولذا تحولت قراهم الى أسواق ومراكز تموين ومحل مبادلات . والقصور في رحلة العياشي أكثر مما كنا نتوقع وتوجد في مناطق تنتهي فيها الهضاب وتبدأ الصحراء ولذا تواجد البدو والحضر فيها ولكل منهم دور .

ثم ان المدن بالصحراء ـ لذلك الوقت ـ مثل غرداية والأغواط ووارقلة وأولاد جلال وتوقرت وبسكرة وتميمون قد أسست على قمم جبال (مثل القليعة) أو في سهل لكن يحيط بها سور (وارقلة) أو على جذوع النخل (تماسين بوادر ريغ) والسبب في ذلك كله : الأمن من غارات الأعراب الذين طالما كانت لهم الغلبة في الصحراء .

والبدو رحل متنقلون يجرون وراء الماء والعشب ويعيشون بتربية المواشي والصيد و . . النهب وهم كذلك همزة وصل بين الشمال والسودان .

---

19 — « Le puits c'est la vie ! », Godard. — *L'Oasis moderne*, p. 37.

Scanned by CamScanner

وتحدث العياشي عن اعتداءاتهم أكثر من مرة . فلقد وجد نزلتين لأولاد صولة كانوا قد أغاروا على نزلة لبعض الأشراف وأخذهم • وفي بسكرة سمع الرحالة سكان المدينة يحذرون من عرب أولاد نصر بن بوعكاز وعند وصوله الى قرية الكراكد أخبره أهلها بغارة العمور عليهم وكانوا قبل ذلك بقليل ، قد هجم عليهم أيضا جنود صاحب تافلالت . وسبق لأولاد محمد — عرب توات أن دفنوا المناهل وطمسوا ما في الطريق من الماء خوفا من عدوهم ابن سعيد . وما كل الأعراب بلصوص فقد ذكر العياشي أن غالبهم بين الجديد ووارقلة « أهل عافيه لا اذاية فيهم » •

الحيـــاة السياسية :

يظهر من رحلة العياشي أن أجزاء كبيرة من البلاد كانت مستقلة لا تخضع للوجود العثماني بل هي تحت تصرف أمراء محليين .

فبوادي الساورة أمير يبالغ في التنقيب عن لصوص تلك البلاد حتى وجد العياشي « أفراسا مهملة في البراري ولا أحد يقربها » . وكانت مدينة « القليعة » في طاعة سلطان وارقلة وبها عامله يتحاكم اليه أهل القرية ويذعنون لأمره • ولأولاد سيدي الشيخ نفوذ على مناطق شاسعة . ويحكم وارقلة أمير يدعى علاهم • صادف العياشي حوادث وقعت بالمدينة بسبب فتنة بين صاحب وارقلة وبعض سكانها أدى ذلك الى تقتيل استنكره • وعن سؤال حول التعايش بين الأمير — وهو سني والخوارج فأخبر أنهم عصبته في الحروب • وكانت مقوسا في طاعة وادي ريغ وأهلها في حرب ضارية مع أمير وارقلة • أما تاسين فأميرها ابن عم أمراء تقرت وهو كالمستقل في بلده •

وتضررت بسكرة في ذلك العهد لتحالف الترك عليها وعساكر البدو . « يستولي عليها هؤلاء تارة وأولئك تارة الى أن بنى الترك عليها حصنا

Scanned by CamScanner

حصينا على رأس الماء فتملكوا البلاد وضروا بها حتى أشرفت على الخراب . »

أما أولاد جلال فهم « فى منعة وقوة من العرب لا يؤدون اليهم اتاوة » .

وبناء على هذه المعلومات فاننا نلاحظ أن المد التركي قد وصل عسكريا الى بسكرة وروحيا الى وارقلة اذ سمع العياشي امام هذه البلدة يدعو فى خطبة الجمعة للسلطان الخاقان محمد بن ابراهيم بن مراد .

وبجانب الملاحظات ذات الطابع السياسي أدرج العياشي تفاصيل حول الاقتصاد .

فالصحراء فى عهده عبارة عن سوق مكتظة بالقوافل المتجهة كل الاتجاهات المتنقلة بأنواع البضائع والسلع . وكان العياشي مهتما بقيمة صرف الذهب فقابل بين غلاء تافلالت ورخص توات فقال : « الذهب فيها أرخص وكذا سعر القوت من الزرع » .

ويتعامل الناس بالمثقال وقيمته 24 موزونة ، أما عملة وارقلة فيكثر فيها النحاس بحيث 24 قطعة فى ربع ريال ! واشتهرت بعض المدن بغلائها مثل الأغواط والكراكد وأخرى برخصها مثل بوسمغون وتوات التي بها سلع تجلب من الآفاق .

ومنتوجات الصحراء لا تنحصر فى التمر وحده . فبسكرة زاخرة بكل ما تشتهي الأنفس من تمر وزيتون وكتان وحناء وفواكه وخضر وبقول ولحوم وسمن حتى فضلها رحالتنا على أمصار المغرب .

وللحجاج حاجات يبحثون عنها دون غيرها وهي القمح والدقيق والسمن واللحم والدواب فينفقون من أجلها ما لديهم من الذهب وأحيانا ما يحملون من الكتب .

Scanned by CamScanner

الحيـــاة الثقافية :

ازدهرت بالصحراء سلسلة من الزوايا وعظم شأنها وزاد نفوذها حتى تحول بعضها الى مدن مثل عين ماضي وتماسن وطلقة . وذكر العياشي ما اشتهر منها مثل زواية سيدي أحمد بن موسى وسيدي عبد الله بن طمطم وعمر بن محمد صالح الأنصاري الخزرجي وزاوية الأخضري وكلها دور علم وتعليم واشعاع فكرى .

ويضاف الى الزوايا أضرحة العلماء والصلحاء مثل عريان الرأس وأبي الفضل والنبي خالد والتي أصبحت مزارات . أما العلماء الأحياء فميلهم الوحيد الفقه وتطبيقاته فيما قد يحدث مثل بيع الماء والهروب من الوباء قبل أن يحل ومحاربة طائفة لطائفة .

ويحتفظ رجال العلم بالكتب أكثر مما يحتفظون بغيرها . لقد شاهد العياشي نسخا من نوازل البروزلي بخط ابن مرزوق واجازات لبعض القادرية ، وفى مكتبة امام وارقلة موطأ مالك وصحيح البخاري ومختصر الرسالة والأكمل .

وفى مكتبة الأمير وجد التوضيح والتتائي وبهرام والحواشي عـــلى الصغرى وبتقرت رغب فى مطالعة اليعمري والأبي ومنظومة أبي الفرج الأشبيلي ..

فكانت أخبار هذه عرضا وافيا للعلوم الاسلامية فى الصحراء وقـد اعترف له مؤرخون بهذه البادرة (20) .

وكان العياشي ينتبه المرة بعد المرة لبعض العـادات عنـد الأهـالي لغرابتها .

---

20 – جاء فى دائرة المعارف الاسلامية عن ترجمة العياشي ما يلي :
« Cette relation de voyage est un ouvrage capital pour connaître le chemin que suivaient les caravanes allant du Maghreb et à la Mecque... ». E.I., T. 1, 818.

Scanned by CamScanner

فأهل وارقلة يدخلون المسجد فيتيممون كلهم وماكلهم بأصحاب أعذار ، وثياب موتاهم ترمى خارج المدينة ولو كانت جديدة . وأهل بوسمغون يحتفلون بعيد الفطر وسط دوي البارود حتى فى المصلى . ولكل جهة أساليب فى حفر الآبار وغرس النخل ، وما يجمع بين هذه القبائل العديدة سوى الكرم والاسلام .

3 ـ « نشر أزاهير البستان » :

لقد عودنا المؤرخون والقناصل والرحالون الغربيون فى أحاديثهم عن الجزائر (العاصمة) فى القرن 17 ، الأوصاف القاسية والصور القبيحة والتصرفات المنافية لكل حضارة ، المناهضة للأخلاق .

ويكاد كلامهم ينحصر فى جمل تتردد من كتاب لآخر : القرن 17 هو العصر الذهبي فى البلاد . العلاقات بين الجزائر واصطنبول تتفكك وتفتر . الجزائر عش اللصوصية .. مفاداة الأسرى هي الشغل الشاغل للدول الغربية . يذوق النصارى فى الجزائر مختلف أنواع العذاب . سجون العاصمة مكتظة بهم (21) .

واذا وقفوا لحظات عند الحياة الثقافية أشاروا أو أجازوا فأخطأوا . فهذا شيلير Shaler ينفي وجود العلم والتعليم فى الجزائر ويدعي أن السكان يحتقرون العلوم ويكتفون بتعلم القرآن (22) .

---

21 ـ راجع :

Hérault (Le père). — *Notes,* publiées par P. Boyer in Revue de l'Occident musulman, n° 17, 1974, pp. 19-41.

Rocqueville (Le sieur). *Des relations, des mœurs du gouvernement des turcs d'Alger,* Paris, 1675.

Petits de la Croix. — *Mémoire sur Alger* 1695, publié par Emerit in AIEO, 1953, pp. 5-24.

Emerit. — *Un document inédit sur Alger au XVII^e^ siècle* in A.I.E.O., 1959, pp. 233-242.

Dan (le père). — *Histoire de Barbarie et de ses corsaires,* Paris, 1637.

22 — « Il est inutile de parler de l'état des Sciences à Alger : ou elles n'existent pas, ou elles sont méprisées, le Coran est toute leur littérature... », *Shaler,* Esquisse de l'Etat d'Alger, traduction M.X. Blanchi, Paris, 1830, p. 77.

Scanned by CamScanner

وهذا بيتيس دي لاكروا Petits de la Croix يكتب : « المرابطـون Marabouts يديرون الكتاتيب ويقرأون وهم يغنون . وعندما يرتكب التلميذ ذنبا يضرب على قدميه . لكن اذا حفظ عـن ظهر قلب القرآن فانهم يجولون به وسط أنغام الموسيقى وهـو يرتدي اللبـاس الفاخر ، والمصحف على رأسه ويمشي وراءه جميع التلاميذ .. » (23) .

ونجد فى رحلة ابن زاكور صورة حية ومفصلة للحياة العلمية التي لم يصل الى تحليلها ولم يقدر على وصفها غيره من الذين زاروا الجزائر وأقاموا بها فى وقته .

1 ـ نخبة العلماء فى العاصمة :

يقول ابن زاكور بعد الحديث عن الشيخ ابن عبد الله بن خليفة : « وليكن هذا المولى خاتمة من أردنا ذكره من أعلام هذه البلاد ، من حاضر وباد ، وانما لم أحفل بسواهم .. اكتفاء بالبحر عن الجداول والأنهار واستغناء عن شموس النهار عن الدراري والأقمار .. »

وهذا يعني أن العلماء المدرسين بالعاصمة كان عددهم يربو عـلى ما ذكر صاحب الرحلة وان العاصمة كانت قبلة علم تشد اليها الرحال .

2 ـ تمكننا رحلة ابن زاكور من معرفة من كان فى الطليعة آنذاك من بين هذه المجموعة كما يحدثنا عن شيوخ هؤلاء المشايخ المشارقة منهم والمغاربة .

لقد درس ابن زاكور على أبي حفص عمر بن محمد بن عبد المؤمن المانجلاتي الذي درس بدوره على علي بن عبد الواحد السجلماسي .

— 23

« Les Marabouts tiennent les écoles. Ils lisent en chantant ; quand un écolier fait faute il a des coups de bâton sous les pieds. Mais quand sait l'alcoran par cœur on le promène par la ville au son des instruments, bien vêtu, l'alcoran sur la tête, suivi de tous les écoliers... ».

Petis de la Croix, A.I.E.O., 1953, p. 19.

Scanned by CamScanner

كما تتلمذ صاحب الرحلة على الشيخ سعيد بن ابراهيم الجزائري وعلى الشيخ محمد بن عبد المؤمن وعلى أبي عبد الله بن خليفة ونال الطالب من معظم شيوخه الاجازات التي عاد بها الى بلاده وهي آنذاك أنفع ذخيرة وأنجع سلاح .

3 ـ قائمة الكتب التي كانت تدرس أيام ابن زاكور والتي عرفت رواجا منقطع النظير : الفية العراقي (فى المصطلح) ـ جملة من كتب السير ـ صحيح البخاري ـ مختصر خليل (فى الفقه) ـ نظم ابن عاصم (فى الأحكام) شفاء القاضي عياض بردة البوصري ـ عقائد السنوسي ـ خزرجية الشريف الغرناطي ـ لامية ابن مالك (فى الصرف) ـ جمع الجوامع للسبكي وشروح المحلي وولي الدين العراقي والكوراني ـ ومختصر بن الحاجب ـ وتلخيص المفتاح (فى البيان) ـ والجمل للخونجي ـ ونظم لعبد الرحمن الأخضري ـ ونظم أبي اسحاق التلمساني (فى الفرائض) . والسلم المرونق لعبد الرحمن بن محمد الصغير .

وهذه الكتب تمثل معظم جوانب الثقافة الاسلامية وقسطا كبيرا من العلوم العقلية والنقلية من منطق وحساب ونحو وعروض وصرف وتوحيد وحديث وتفسير وفقه وكل فن كان شرطا مطلوبا فى العالم .

4 ـ طريقة التدريس :

يلازم الطالب شيوخه سنوات طويلة أو شهورا عديدة يحضر الجلسات ويشارك فى الحلقات ويجمع الشارد والوارد ويبرهن على الطاعة والاعجاب . فهذا المنجلاتي يلازم السجلماسي أربعة عشر عاما وهذه الخزرجية تدرس أربعين ختمة وهذا جمع الجوامع للسبكي يتفرغ له الطلبة أربعة أشهر .

Scanned by CamScanner

ويكون ختم الكتاب فرصة احتفال كبير تلقى فيه الأشعار وتعمه البركات ويغادر بعد ذلك عدد من الطلبة الجزائر راجعين الى أهلهم .

5 ـ **الاجازات :**

هي ما يقابل اليوم الشهادات الجامعية وشهادات الكفاءة التي تؤهل حاملها لتدريس الفقه أو المنطق أو علم من العلوم الكثيرة أو تخوله حق الرواية وتلقين المعارف على الصورة التي تلقاها بها .

وحتى يحظى الدارس بثقة أهله ومواطنيه ـ بعد العودة الى بلاده ـ لابد له من بيان يثبت أنه درس على علماء أجلاء وأنه أتقن أصنافا من العلوم وأنه اغترفها من أمهات الكتب وأنه حفظ متونا «كلاسيكية» ترفع من شأن الفائز .

ولا تخلو نصوص الاجازات من فوائد اخبارية : فهي عرض واسع للعلوم الاسلامية وكشف للكتب التي راجت واشتهرت فأصبح العلم لا يتم الا بها . وهي قائمة للمدرسين ولشيوخهم وشيوخ هؤلاء فيظهر بذلك الاسناد الروابط الوثيقة بين علماء المشرق وعلماء المغرب .

وهيكل نص الاجازة يكاد يكون واحدا . فيبدأ الأستاذ المجيز بالحمد والصلاة والدعاء وقد تطول الديباجة أو تقصر ثم ينتقل الأستاذ الى ذكر المحصل على الاجازة فيصف مواهبه واجتهاده والمدة التي قضاها بجانبه والنتيجة فى النهاية وهي غزارة المعارف والاذن له بأن ينشرها وأن يروي عنه .

5 ـ تبرز هذه الشهادات ما كان للعلماء من دور فى حياة العالم الاسلامي فاذا كانوا قد ابتعدوا عمدا أو كرها عن تسيير شؤون البلاد فانهم شيدوا (بأسفارهم واقاماتهم واقبالهم على العلم أينما كان والأخذ من الكتب مهما كان لون صاحبها أو بلده) وحدة الأمة المحمدية وعززوها .

Scanned by CamScanner

وخلاصة القول فان كان الغربيون قد ركزوا فى كتبهم عن الجزائر على الحديث حول الحكام الأتراك وسياستهم فان ابن زاكور وأمثاله ــ وصفوا وقيدوا ــ بدون أي مركب ــ استمرارية العروبة فى هذا البلد .

* * *

4 ــ الترجمانة الكبرى :

زار الزياني الجزائر فى فترة (24) تخلصت فيها البلاد من الوجـود الأسباني واكتملت أجزاءها وأصبحت وهران البايلك وعرف الوجود العثماني صعوبات داخلية متزايدة .

نزل الرحالة بوهران ثم بتلمسان ومكث بها مدة خالط أهلها ثـم انتقل الى الجزائر العاصمة وبقي بها ثم رحل الى قسنطينة ومنها الى تونس . وفى طريق العودة مر بنفس المدن وأقام بها مكرما . فكـانت لرحلته فوائد اخبارية متنوعة ومتعددة أبرزها ما يلي :

أ ــ محمد الكبير والمغرب الأقصى :

يظهر من كلام الزياني أن باي وهران مهتم بشؤون المغرب متتبع لما يجري فيه محلل لحوادثه فهو يسأل عن أولاد مولاي محمد بن عبد الله

---

24 ــ لا زالت جوانب كثيرة من الجزائر فى القرن 18 غير معروفة او نعرفها بصفة سطحية فقط .
فاشهر الرحالين الغربيين لذلك القرن (بعد ف . ذي بارادي) هم :
ــ شاو Shaw الذي أقام بالجزائر من 1720 الى 1732 .
ــ بيسونال Peysonnel الذي زار البلاد فى 1724 ــ 1725 .
ــ ڤريقوريافيتش Grigorievitch الذي وصل الى عنابة سنة 1777 .
ــ والسيد طولو (Le sieur Tollot) الذي تحدث عن آيالات الجـــزائر وتونس وطرابلس ما بين 1731 و 1732 .
غير ان هؤلاء لفتوا انظارهم وهم فى الجزائر ، للنبات والحيوان العوائد ومنتوجات البلاد مع معلومات قليلة حول الحياة السياسية والثقافية .

Scanned by CamScanner

وعن القائم بأمرهم وعن مولاى سليمان وهل له مال . وكأنه مطلع على عهد مولاى يزيد وما ارتكبه من سرقات وأغلاط أثناء وجوده بالمشرق وذلك منذ 1764 الى 1792 ، وقد اعتدى على هدايا الحرمين وسفك دماء كثيرة .

وبعد وفاة يزيد اصطدم الطامعون فى الملك : مولاى هشام بالجنوب ، مولاي مسلمة بالشمال ، ومولاي سليمان بفاس . فهذه الحوادث جعلت محمد الكبير يبدي برأيه : « ذهب ملك المنرب مع مولاى محمد .. ان ملك المغرب تشتت وأولاد مولاي محمد لا تقوم لهم قائمة ، وفعلا كان عهد يزيد عهدا قصيرا لكن معكرا بالاضطرابات لا سيما فى الجنوب . وكان عهد مولاي سليمان بعد 1800 كثرت فيه الفتن والثورات بين قبائل الأطلس انهزم فيها السلطان أكثر من مرة . ثم جاء دور أهل فاس ومكناس وأخيرا عمت الفوضى حتى فكر مولاي سليمان فى التخلي عن العرش ».

ب ـ الزياني وتلمسان :

يخبرنا الزياني بما كان بتلمسان آنذاك من كتب نادرة حتى تلك التي أشار اليها ابن خلدون مثل تاريخ سليمان بن اسحاق المطماطي وتاريخ هاني بن يصدور القوصي وتاريخ كهلان بن أبي اؤى الأوربي فى أنساب البربر ـ وكذلك كتب العقباني وابن مرزوق وأبي حمو موسى الزياني وقد وجد الرحالة فيها ضالته لا سيما وأنه أقام بتلمسان سنة ونصفا !

وخصص الزياني لتاريخ تلمسان صفحات غطت الحديث عن بقية المدن الجزائرية . ويظهر من سرده للحوادث انه اعتمد على ابن خلدون بصفة خاصة وعرضها عرضا محكما مما جعل الأب برجيس (Bargès) ينقل الى الفرنسية هذا الفصل بكامله معللا ذلك بقوله ان هذا العرض

Scanned by CamScanner

التاريخي يقدم بعض التفاصيل لم توجد عند من سبقوه (الزياني) أو أنهم ذكروها لكن بصفة غير كافية (25) .

ج ـ الجزائر العاصمة :

أقام الزياني بالجزائر رابعة وعشرين يوما وهو فى طريق الذهاب الى المشرق ، وسبعة أشهر قبل عودته الى المغرب .

المدينة : يظهر من كلام الزياني انها لا زالت تعاني من أثر الوباء وأن الزائر يفضل النزول فى الخيام المضروبة خارجها ، وأن المكان الأكثر نشاطا هو المرسى فيقتل فيه الأجنبي أوقات فراغه .

وصادف مرور الزياني تجديد جامع كتشاوى فأعجب الضيف بالبناء والهندسة والألوان وترك وصفا رائعا لم يسبق لكاتب أن خصصه لمسجد .

ويوجد فى رحلة الزياني من معلومات حول هذا الجامع ما يغني عن غيره ونلاحظ أن الحاج الشريف الزهار ـ معاصر لهذا الحادث ـ لم يشر اليه بكلمة واحدة . وحسبنا ما نظم الزياني وما كتب ! (26) .

وأخبرنا عن السكان أيضا . فهذه جالية فاسية تقطن بالعاصمة وهذا قاض مالكي أصله من المغرب وهذه شخصيات « من أهل دولة الباشا » يذاكران ضيفهم ويتحدثون فى شتى المواضيع .

---

25 ـ بارجيس
Bargès : Complément à l'histoire des Beni Zeiyan rois de Tlemcen, pp. 533-540.

26 ـ كتب الفرنسي ف . دي باردي الصفحات الطوال فى الجزائر العاصمة فى نفس الفترة تقريبا وتعرض للمسائل السياسية والاجتماعية والثقافية غير أن حديثه عن مساجد العاصمة موجز للغاية فقال :

« Il y a à Alger 12 grandes mosquées avec chaires et minarets et beaucoup de Masjad. La principale est desservie par les sectateurs de Malik ben Anas, on la nomme Djamâ el Kebir. C'est là où les deux muphtis et les deux cadis s'assemblent le jeudi pour juger les causes importantes qui n'ont pu être décidées au mahkama et partager les héritages...».

R.A.,1897, pp.106-107.

Scanned by CamScanner

وهذا الباشا حسن ذو الأوصاف السنية والسيرة المرضية الذي خلد ذكره بحادثين : بناء المسجد وتحرير وهران وقد حارب الأسبان « حرب المهاجرين والأنصار » ووجه عنايته بعد ذلك الى البحث عن الأسرى المسلمين « من جميع ايالات الكفار ، والبحث عنهم فى القرى والأمصار ..»

والمسافر النازل بالعاصمة يكرم . فذكر الوزير شتى الاعانات التي تلقاها فى الذهاب والاياب وأنواع الضيافات التي دعي اليها رغم رفضه والتظاهر بالكبر .

وأما قضية المركب الذي تعرض لضرب القراصنة النصارى فتطلع القارىء على أهوال البحر ومشاكل الملاحة وعلى تكالب بعض الدول على الجزائر بصفة خاصة . ويصح فى حق هذا البحر الأبيض قول الأوائل : الداخل اليه مفقود والخارج منه مولود ! كما يطلع القارىء على الحيل المختلفة للنجاة .

د ـ قسنطينة :

لقي الزياني عددا من العلماء وأظهر سروره لهذا اللقاء الذي أنساه وحشته وزاد معلوماته وهم : الشيخ عمر الصايغي وأبو الحسن على بن مسعود الونيسي وأبو القاسم المحتالي ، وأحمد بن المبارك العلمي والسيد ونيس البورنياري ، وكلهم أصحاب أدب وفقه وفضل ، غير أن أصحاب التراجم أهملوا الكثير منهم .

حسان باي : قدم كل من المستشرقين فايسيت Vayesettes وشيربوتو Cherbouneau معلومات حول مأساة هذا الباي الذي خلف صالح باي فقال الأول : وبعد سنتين من حكم اتسم بالاستقرار أصيب الباي حسن

Scanned by CamScanner

بمرض شل رجليه .. وأدى غضب الداي بابا حسن أن أمر بقتل الباي فمات شنقا بسجن القصبة (27) .

وقال الثاني : وفى ذلك العهد كان يعيش بالجزائر (العاصمة) ابن بوحناك الذي نجا من سخط الباي صالح بالفرار وعاش فى المنفى عشرين سنة الى أن عين بايا على قسنطينة خلفا لصالح باي الذي قتله حسن انتقاما لأبيه .. وبدوره تعرض الباي حسن (حسين بعد) لمؤامرة دبرها الباش كاتب كشك علي ذهبت بحياته (28) .

غير أن رحلة الزياني تحمل معلومات أخرى تهم هذا الباي وتبين مدى القوة والعنف والتآمر الذي كان جاريا حول المناصب .

وقد عرفه الزياني بتلمسان فى الظروف التالية : « كان حسن هذا قبل ولايته منفيا بها عند واليها الباي محمد بن عثمان حيث شكاه باي قسنطينة لدولاتني الجزائر فوجه من يأتي به فاسترحم بضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر ووقعت فيه الشفاعة من الموت فنفاه لتلمسان . . »

ويؤكد هذا القول أحمد بن سحنون « .. قدم عليه (محمد الكبير) حسن باشا بن بعض أمراء قسنطينة منفيا عن بلده عاريا طريدا فأسكنه تلمسان .. » (29) .

احوال البلاد :

ـ كان للوباء المنتشر فى البلاد آثاره السيئة التي أخلت البلاد وأفنت العباد فكتب الزياني هذه الملاحظة : « وكان عاما فى العمائر التي بينها

---

27 ـ راجع مجلة :
Annuaire de la Société archéologique de la province de Constantine, 1869, p. 455.

28 ـ نفس المرجع سنة 1856 ـ 1857 .

29 ـ الثغر الجماني ص 144 .

Scanned by CamScanner

(تلمسان) وبين الجزائر . فما نزلنا منزلا الا وجدنا أهـله يدفنـون موتاهم » .

والمدن بين تلمسان والجزائر وبـين الجزائـر وقسنطينـة خـراب «.. وخبر ما مررنا به من الجزائر الى قسنطينة من المدن فكله خراب .»

والسبب فى ذلك قيام الثورات المحلية على النظام التركي .

* * *

Scanned by CamScanner

القسمُ الثاني

Scanned by CamScanner

النفحةُ المسْكية

الرّحلة إلى المشرق

العَودة مِنهُ

Scanned by CamScanner

1 — الرحلة الى المشرق

هنـــين

« ... ثم أرسينا على هنين (1) وهي بليدة مسورة وهي اليوم خربة لم يبق فيها الا سورها ومسجدها وبداخل السور أشجار تين . ثم سافرنا منها .

وهـــران

واجتزنا على مدينة وهران (2) وفيها النصارى — دمرهم الله وأعادها للاسلام — قال ابن عبد ربه (3) : هي مدينة حصينة بناها محمد بن

---

1 — **هنين** : يقول البكري « .. وهو على مرسى جيد مقصود ، وهو أكثر الحصـــون — المتقدمة الذكر — بساتين وضروب ثمر .. وبين هذا الحصن ومدينة ندرومة الجبل المعروف بتاجرة .. » (المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب) — ويقول الادريسي : « وهنين مدينة حسنة صغيرة فى نحر البحر وهي عامرة عليها سور متقن واسواق وبيع وشراء وخارجها زراعات وعمارات متصلة .. » (نزهة المشتاق ..) . وقد احتلها الأسبان من سنة 1531 الى سنة 1534 .

2 — **وهران** : كانت وهران — عندما مر بساحلها التمقروتي — فى يد الاسبان ، وقد احتلوها سنة 1509 الى ان داهمهم مصطفى بوشلاغم وافتكها منهم سنة 1708 ، غير أنهم عادوا اليها ثانية سنة 1732 واخرجهم منها الجزائريون نهائيا سنة 1792 . ويصف روف (Ruff) المدينة فى ذلك العهد فيقول :

« La ville d'Oran se trouvait au-dessous de la Kasbah (alcaçava) au pied du Gibel, de la montagne qui porte aujourd'hui le nom de Mourdjadjo. Autrefois ville de commerce, port du royaume de Tlemcen, fréquenté par les Catalans et les Génois, elle n'était plus depuis l'occupation espagnole qu'une simple forteresse... ».
(La domination espagnole à Oran, Paris, 1900, p. 7).

ويقول ف . بروديل (Braudel) :

« Oran était le grand centre de la puissance espagnole en Afrique, le poste d'observation essentiel... proche de l'Espagne... et aux portes du Maroc ».
R.A.,1928.

3 — **ابن عبد ربه** (246 — 960/328 — 1040) .هو ابو عمر أحمد بن محمد ، ولد بقرطبة ونشأ فيها وتعلم حتى برع فى الشعر والنثر . وقد اشتهر بكتابة « العقد الفريد .. »

Scanned by CamScanner

أبي عون وجماعة من الأندلسيين سنة 290 هـ (4) . قال البكـري (5) وأهلها موصفون بعظم الأجساد والشدة وقد يصل الطويل من غيرهم الى منكب أحدهم ويحمل الرجل منهم ستة رجال من غيرهم يحمل على عاتقيه رجلين وعلى ذراعيه رجلين وتحت ابطه رجلين وان احتاج منهم رجل الى بناء بيت فيقطع اليها كلخة فيحملها على كاهله الى منـزله فيسوى منها بيتا تاما معرشا .

وبينه وبين تلمسان مرحلتان . واجتزنا عليه فى وسط النهار وهـو فى جون كبير داخل فى البحر ما بان لنا منه الا الأبراج (6) .

مستغانم

ثم اجتزنا أيضا على مستغانم (7) قال ابن عبد ربه : هي مدينـة مسورة بمقربة من البحر على مصب وادي شلف (8) فى البحر ذات أعين وبساتين وأراض ومياه ويجود فى أرضها القطن .

---

4 – **هذا** ما زعمه البكري وابن خلكان وابن خلدون وغيرهم ، أما أبوراس الناصري واحمد الشقراني ومحمد بن يوسف الزياني ومزاري وابن زرفة والمشرفي فانهم يرجعـون تأسيس المدينة الى خزر بن حفظ صولات .. المغراوي ، وسنة 290 هـ توافق سنة 915 م .

5 – **البكري (توفي سنة 487 هـ /=1094 م)** أبو عبيد الله بن عبد العزيز صاحب الكتاب المسالك والممالك ويعرف جزء منه بكتاب « المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » . وحديث البكري هذا حول عظمة الأجساد وطول القامة لا يعني أهل وهران بل ينطبق على قرية فى عملها ولم يذكرها البكري .

6 – **الابراج** – لمدينة وهران عدة أبراج منها :

برج العيون (San Fernando)

البرج الجديد (San Andre)

برج بني رزوال (San Philippe)

قلعة مرجاجو (Santa Cruz)

برج بن زهوة (San Grégoire)

7 – **مستغانم** : مدينة ساحلية بين ارزو وتنس على نحو 15 كام غربي مصب نهر شلف . راجع : مولاي بالحميسي : تاريخ مدينة مستغانم من أقدم العصور الى 1833 (سنة احتلالها من طرف الفرنسيين) باللغة الفرنسية . طبعة المركز الوطني للدراسات التاريخية – الجزائر 1976 . 190 ص .

8 – **شلف** : اكبر واطول نهر بالمغرب الأوسط . يبلغ نحو 700 كم . كان مسرحا لمعارك عديدة فى القرون الوسطى والعهد العثماني .

Scanned by CamScanner

تنس

ثم اجتزنا على مدينة تنس (9) وهي مصر بناه البحريون الأندلسيون ومن معهم سنة 262 هـ (10) وأهلها الأصليون من ولد ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هكذا ذكر ابن عبد ربه .

شرشال :

ثم أرسينا على شرشال وهي بليدة حصينة كثيرة العمـارة والزرع والفواكه يجلب منها الزرع وغيره الى الجزائر .

الجزائر :

ثم سافرنا منها وأرسينا بمنى الجزائر (12) ـ حرسها الله ـ فدخلناها يوم الثلاثاء لعشر خلون من شوال . قال ابن عبد ربه : هي جزائر بني مزغنا وهي مدينة آهلة مانعة كثيرة الخصب .

---

9 ـ **تنس** : يقول البكري : « .. وهي مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى .. وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة وهي على نهر سمى تنانين .. »
ويقول الأدريسي : « .. وبها فواكه وخصب واقلاع وحط ولها اقاليم وأعمال ومزارع وبها الحنطة ممكنة جدا وسائر الحبوب .. »
راجع ملخص تاريخ تنس لمولاى بالحميسي فى مجلة الجزائر الأحداث عدد 501 مايو 1975 .

10 ـ الموافق لسنة 875 ـ 876 م .

11 ـ **شرشال** : من أهم المدن بين الجزائر ووهران . قال الادريسي : « .. ومدينة شرشال صغيرة القدر لكنها متحضرة وبها مياه جارية وآبار معينة عذبة وبها فواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم .. وبها كروم وبعض شجر التين وما دار بها بادية لأهلها مواش وأغنام كثيرة .. » (نزهة المشتاق) ..
وكانت المدينة فى القرن 16 م ، مركزا من مراكز الحكم العثماني فى الجزائر وقد حصنها عروج سنة 1516 وأقام بها قلعة ، وقد هاجمها دوريا (A. Doria) سنة 1531 الا أن المقاومة أجبرته على الانسحاب .

12 ـ **الجزائر** : عن أخبار المدينة فى القرن السادس عشر واضطراباتها واطماع النصارى فى تملكها أو تخريبها وعن تحولها الى عاصمة وقاعدة عسكرية راجع :

Haëdo (F.D.). — *Histoire des rois d'Alger,* trad. de Grammont.
Haëdo (Dieg Fray). — *Topographia e historia general de Argel.* Valladolid, 1612. (Trad. Monnereau et Berbrugger, R.A., 1870-1871).
Léon l'Africain. — *Description de l'Afrique,* II, 347-350.
Nicolay (Nicolas de). — *Les quatre premiers livres des Navigations orientales de N...,* Lyon, 1568, 197 pages. (Description d'Alger, pp. 11-21).
Marmol (Carvajal). — *Descripcion general de Africa.* Grenade-Malaga, 1573-1599, 3 vol.
(Trad. en français par Perrot d'Ablemcourt, Paris, 1867).

Scanned by CamScanner

ثم سافرنا منها يوم الاثنين الموفي ثلاثين من الشهر أول يوم من شهر شتنبر (13) .

دلس :

فأرسينا على حصن دلس (14) وهو حصن مليح منيع الا أنه عفى اليوم وخرب ولم يبق فيه الا عمارة قليلة ضعيفة .

بجـــاية :

ثم أرسينا فى ميناء بجاية (15) وهي مرسى حصين فى جون عظيم يمنع من كل ريح له مدخل ضيق فى جبال شاهقة أقمنا فيه يوما واحدا .

أبو مدين

شـعيب :

وبجاية مدينة عظيمة فى القديم كانت دار علم وعمل ومستقر العلماء والصالحين (16) منهم الولي الصالح المتبرك به أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصارى (17) دفين تلمسان نفع الله به . كانت دار سكناه فى حياته الى أن بعث الله سلطان مراكش من الموحدين يشخصه اليه فعظم فراقه على أصحابه فقال لهم : هونوا عليكم فاني رجل كبير السن

---

13 – أول سبتنبر 1589 = 30 شوال 997 هـ .

14 – **دلس** : مدينة عتيقة بين الجزائر وبجاية كانت فى القرن 16 م يحيط بها سور متين . وكان أهلها يتعاطون الصباغة لكثرة المياه فى العيون والجداول .. الاراضي الصالحه للزراعة كثيرة .. وصيد السمك من عادات أهل البلد ..

(Léon l'Africain, p. 352).

15 –

عرفت هذه المدينة تقلبات عديدة أثناء القرن السادس عشر فقد احتلها الاسبان سنة 1510 ، وحاول عروج وأصحابه اقتلاعها من مخالب النصارى سنة 1512 وسنة 1514 بدون جدوى الى ان تصدى لهم صالح رايس سنة 1555 فحررها فدخلت تحت حكم الاتراك .

16 – راجع كتاب « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » لابي العباس الغبريني .

17 – **ابو مدين** : ولد أبو مدين شعيب قرب مدينة اشبيلية حوالي 520 هـ /= 1126 – 1127 م ، وتوفي بتلمسان سنة 594 هـ /= 1197 – 1198 م . راجع ترجمته فى عنوان الدراية ص 22 – 32 والكتاني : سلوة الانفاس ، و

Rinn, Marabouts et Khouans.

Scanned by CamScanner

ضعيف البدن ووفاتي قدرت فى غير هذا البلد ، وأنا عاجز عن الوصول الى موضع الوفاة فقيض الله من يحملني اليه برفق فأموت فيه ، وأولئك القوم لا أراهم ولا يرونني . وكان ذلك السلطان بعث الى والي بجاية أن يحمل الشيخ مكرما محترما . وكانت بجاية اذ ذاك لأهل مراكش وكذلك غيرها من بلاد أفريقية . فحمل الشيخ مكرما معظما الى أن وصل تلمسان . فحين نزلوا به فى موضع قبره بالعباد وسألهم عن اسم المكان فقيل له : العباد ، فقال انه صالح للرقاد ، فتوفى هناك رحمه الله ونفعنا ببركاته — وهو أندلسي الأصل من فيطانة حصن من أعمال اشبيلية .

وكان ببجاية معاصر لهذا الشيخ العالم أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي (18) مؤلف العاقبة وغيرها وبها توفي وقبره يزار .

وكذلك الشيخ أبو الحسن علي الأشبيلي المتوفى بها وغيرهم من العلماء والصالحين الذين كرامتهم ظاهرة مشهورة فى حياتهم وبعد وفاتهم — رحمهم الله —

وبجاية الى الآن خراب هدمها النصارى — دمرهم الله — لم يبق منها الا ديار قلائل على طرف البحر وقلعة صغيرة تسمى باللؤلؤة (19) ينزل بها متولي تلك الناحية من الترك يمنع المرسى من العدو . قال ابن عبد ربه : بجاية مدينة عظيمة مستندة الى جبل ومبانيها يركب بعضه بعضا وتسمى المقدمات . وبناؤهم انما هو بالجص وحده لا يبنون

---

18 — **ابو محمد عبد الحق .. الاشبيلي** : ولد سنة 1122/516 وتوفي سنة 581 هـ /= 1185 م ، ومن مؤلفاته المشهورة كتاب « العاقبة فى علم التذكير » ، راجع التفاصيل 3 عنوان الدراية ص 41 — 44 .

19 — **اللؤلؤة** : يقول ابن خلدون : « قصر جميل بناه الحمادي الناصر سنة 460 هـ = 1068 م . »

Scanned by CamScanner

وعلى فرسخ منها الوادي الكبير يركبون فيه فى السفن الصغيرة يقرون فيه يتنزهون فيه وهو أعجب ما يقرون بـه . بالتراب ولا بجيار . وأهلها أهل شدى فى كلامهم . وفيها يقول الشاعر :

بجاية كلهـــا عقـــاب   المشـــي فى أرضهـــا عقـــاب
يخفـــق فى طرقهـــا فـــؤادي   كخـــرنـــق صـــاده عقـــاب

وقال الشيخ أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن أبي ابراهيم . ابن أبي خالد البلوي (20) رحمه الله فى رحلته الى بجاية :

بـــلدة قـــدرهـــا خطـــير   وذكـــرهـــا فى كـــل بلد يطـــير
خطـــابهـــا من المـــلـــوك كثـــير   ومحلهـــا من النفـــوس أثـــير

فكم هاجت من كفاح ، وسلت عليها من فيض وصفاح ، يمتـد أمامها بسيط أخضر مدى البصر ، قد أجرى الله فيه مذانب للمـاء تسقيـه وتضرب فى نواحيه كأنها سبائك اللجين معدودة فى بساط الزبرجـد محفوفة بالزمرد والعسجد ، والبساتين ملتفة الأشجار ، يانعة الثمار ، والنهر الأعظم ينساب بين يديها قد انعطف عنها انعطاف السوار والحـدائق تنتظم بحافته وتفيىء ظلالها الوارفة عليه فهي النضيرة الروح ، العطرة الريحان والروح ، العذبة الأنهار ، الجنية الأزهار ، الطيبة الهواء ، المشرقة الأضواء ، التي أجمعت عليها الأمراء ، ويسلم لها اللواء ، وشيد فيها البناء ، وبعد لها الصيت المزود والثناء ، وانتظم فيها من الوادي والبحر ، قلادتان على ذلك النحر ، قد حليا ذلك البلد وتجلها كوالد وما ولد قد مرجنها الله بحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان (21)

---

20 ـ **أبو البقاء خالد** .. البلوي الأندلسي من أدباء القرن الرابع عشر ميلادي صاحب الرحلة المسماة : « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » أو الرحلة الحجازية التي قام بها سنة 737/1336 هـ .. وفى الرحلة أخبار مفصلة عن مدن الجزائر مثل هنين وتلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة والعناب .

21 ـ اقتباس من القرآن الكريم ، سورة الرحمان آية 19 و 20 .

Scanned by CamScanner

فاذا ضاحتهما الشمس انعكس الضياء ، وزاد الاحتفال في النور والأعياء ، في أرباض قد انتظمت انتظام الأحباب ، وشقائق ترفل في أثواب من الشباب ، وتسرد لذيالها بين تلك القباب ، ورياض كأنها تشرق فوق ثراها جزيرة خضراء أعين النرجس الجني نجوم واخضرار الرياض منها سماء ، للثرى تحتها شيات وللماء غبيط وللغصون لقاء .

فأول من لقيته من أرباب المحابر ، وركاب أعواد الكراسي والمنابر فاضل الأفاضل وكابر الأكابر الشيخ العالم المحدث أبو عبد الله محمد ابن جعفر (22) رحمه الله قصدت لقاءه والأخذ عنه وقدمته وبداتي منه وكنت أسمع من ملفوظ حامده ومحفوظ محامده ، ما هو بغية للسامع وحلية للمسامع فلما رويت من مكارمه ما رويت واستصغرت ماسمعت لعظيم ما رأيت واستقللت ما سمعته أذناي لما عاينته عيناي وأنشدت لنجم الدين ابن مهذب الدين .

كانت محادثة الركبان تخبرني عن مجدكم وسناكم أطيب الخبر
حتى التقينا فو الله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

فأنزلني بمنزله الكريم ، وقابلني بالترفيع والتكريم ، فأقمت معه فيه يفيض علي من كرمه بحرا زاخرا ويعاوضني من علمه بمنهل لا أجد له آخر ويرويني بمسرغاته الفاصلة ، ويرويني من مسموعاته الحافلة ، فلا أدري من أي بحريه أعجب ولا أيهما أروى وأعذب ..

سمعت عليه تصانيف كثيرة وأجازني وكتب لي بخطه وكان رحمه الله أمام هدى وعدالة ، ووحيد معارف وجلالة ، عالم الرواية ، كامل المعرفة والدراية ، رصين العقل اماما في التحديث والنقل متفاوت الكرم ، بعيد الهمم زكي الشيم ، حسن المنازع ، مليح المبادىء

---

22 – لم نعثر على ترجمته .

Scanned by CamScanner

والقاطع ، واقعا من النفوس أعلى المواقع . (23) انتهى كلام أبي البقاء .

وجلبته بتمامه ليعلم منه ما سلف لهذه المدينة من الحضارة والعمارة ودرج فيها من العلماء والصالحين اذ لا يظن بها ذلك شاهدها على حالتها اليوم من الخراب والبقاء لله تعالى وحده .

زوبعة في البحر

فلما سافرنا من بجاية عشية يوم الأربعاء هبت علينا ريح شديدة تلك الليلة وعظم الموج وهال البحر واشتدت الريح وصار الموج كالجبال الشوامخ يضم السفينة كلها ويسيلها يمينا وشمالا كالبهيمة التي تتمرغ في التراب وأيس الناس من السلامة والنجاة وأيقنوا بالهلاك والغرق وبعدت السفن من البر خوفا منه اذا لم يجدوا مرسى هناك وأمر الرايس الناس كلهم بالنزول الى جوف السفينة حتى لم يبق على ظهرها الا خدمة أحبالها وقلاعها من النصارى (24) والبحرية ايخف ظهرها ويقل اضطرابها وميلها ويجدوا سعة لخدمتها والبحر لا يزداد الا اضطرابا وموجا . واشتد الميد بالناس والقيء، ويتنخم كل واحد في مكانه لا يدري من هو جليسه ولا يحس بما فعل به ولسان مقاله وحاله ينشد قول ابن الدراج القسطلي الأندلسي : (25)

اقول وموج البحر والهول والدجى ... تمور بنا فيها عيون وآذان
الاهل الى الدنيا معاد وهل لنا ... سوى البحر قبرا وسوى الماء اكفان

---

23 ـ طال استطراد البلوى وزاده ثقلا سجعه المعقد فحذفنا ما لا علاقة له بالرحلة .

24 ـ **النصارى** : يشير التمقروتي الى الاسرى منهم اللاين وقعوا في قبضة المسلمين ، وكان الاسرى يستعملون للمجاذيف في المراكب البحرية .

25 ـ **ابن دراج القسطلي** (ابو عمر احمد بن محمد) شاعر وكاتب المنصور ابن ابي عامر . ولد سنة 347 هـ / 951 م وتوفي سنة 421 / 1030 .

Scanned by CamScanner

والقوى المتماسك منهم من قدر على أن ينطق بالشهادة ويستعد للموت .

وعظم الخطب واشتد الأمر تلك الليلة كلها ومن الغد الى أن جزنا مرسى جيجل ودخلنا مرسى القصب (26) فخف علينا الحال واشتد فرح الناس بالسلامة والحمد لله .

القـــل :

ثم دخلنا مرسى القل (27) وهو مرسى مليح ، مستكن من الريح ، ففيه سوق وديار وجامع أقمنا فيه يومين وصلينا فيه الجمعة ثم سافرنا منه الى مرسى بونة (28) .

بـونـة :

وهي مدينة وتعرف ببلد العناب لأن أكثر شجر فجوجها العناب . قال ابن عبد ربه : « ويطل على بونة جبل كثير الثلج وفيه مسجد يصيبه شيء من ذلك الثلج وان عم الجبل . وبونة كثيرة اللحم والحوت واللبن والعسل وأكثر لحومها البقر ويصح بها السواد دون البياض » .

ومنها ترفع السفن اليوم السمن الكثير الى قسطنطينية . قال أبو البقاء خالد .. فى رحلته : « وبونة مدينة مكينة وقلعة حصينة شهيرة الامتناع ،

---

26 ـ **مرسى القصب** : موضع لا يمكن تحديده بالضبط ، ولعله بين جيجل ورأس بوفارون .

27 ـ **القـــل** = شولو (Chullu) الرومانية مدينة عتيقة على نحو 128 كلم من قسنطينة .
من القل فى القرن 16 م . راجع Léon l'Africain, desc. II, p. 364 :

28 ـ **بونة** : وهي Hippo Régius, Hippone وبونة عند الجغرافيين العرب وبلد العناب .
نشرت مجلة الأصالة عددا خاصا لعنابة بمناسبة انعقاد ملتقى الفكر الاسلامي بها سنة 1976 ، عدد 34 / 35 . والذين وقفوا بعنابة من الشعراء ورجال الأدب كثيرون وأوصافهم لجانب من جوانب الحياة بها أو حادث من حوادث ماضيها عديدة .
راجع بالعدد الخاص مقالة لنا بعنوان : مدينة العناب فى آثار الأدباء والكتاب . ص 179 ـ 182 .

Scanned by CamScanner

والقوى المتماسك منهم من قدر على أن ينطق بالشهادة ويستعد للموت .

وعظم الخطب واشتد الأمر تلك الليلة كلها ومن الغد الى أن جزنا مرسى جيجل ودخلنا مرسى القصب (26) فخف علينا الحال واشتد فرح الناس بالسلامة والحمد لله .

القـل :

ثم دخلنا مرسى القل (27) وهو مرسى مليح ، مستكن من الريح ، ففيه سوق وديار وجامع أقمنا فيه يومين وصلينا فيه الجمعة ثم سافرنا منه الى مرسى بونة (28) .

بـونـة :

وهي مدينة وتعرف ببلد العناب لأن أكثر شجر فجوجها العناب . قال ابن عبد ربه : « ويطل على بونة جبل كثير الثلج وفيه مسجد يصيبه شيء من ذلك الثلج وان عم الجبل . وبونة كثيرة اللحم والحوت واللبن والعسل وأكثر لحومها البقر ويصح بها السواد دون البياض » .

ومنها ترفع السفن اليوم السمن الكثير الى قسطنطينية . قال أبو البقاء خالد .. فى رحلته : « وبونة مدينة مكينة وقلعة حصينة شهيرة الامتناع ،

---

26 – **مرسى القصب** : موضع لا يمكن تحديده بالضبط ، ولعله بين جيجل ورأس بوفارون .

27 – **القـل** = شولو (Chullu) الرومانية مدينة عتيقة على نحو 128 كلم من قسنطينة .
من القل فى القرن 16 م . راجع Léon l'Africain, desc. II, p. 364 :

28 – **بونة** : وهي Hippo Régius, Hippone وبونة عند الجغرافيين العرب وبلد العناب .
نشرت مجلة الأصالة عددا خاصا لعنابة بمناسبة انعقاد ملتقى الفكر الاسلامي بها سنة 1976 ، عدد 34 / 35 . والذين وقفوا بعنابة من الشعراء ورجال الأدب كثيرون واوصافهم لجانب من جوانب الحياة بها أو حادث من حوادث ماضيها عديدة .
راجع بالعدد الخاص مقالة لنا بعنوان : مدينة العناب فى آثار الأدباء والكتاب . ص 179 – 182 .

Scanned by CamScanner

بائنة الارتفاع ، معدومة الشبيه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام وتستطاع ، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة ، سامية الأرجاء ، واسعة البناء ، موضوعة على نسبة حسنة في الاعتدال والاستواء . والمدينة العجيبة كالعروس في ناديها ، وقد رفلت في درع وأدب وامتنعت بحسامه المسلول من غير الأيام وعواديها ، فاتخذت به من المطالب معتصما ، وتحلت في سواره معصما فبكل مسقط نظره ما اشتهت الأنفس من نعيم ونضر ، فهي هتان يهبه بستان ، ومرىء لخواطر الأدباء فتان :

نهر يسيل كما ينوب نضار ... وتنوب في أيدي السقاة عقار
فاذا استقام فصارم باهي الضبا ... واذا انحنى جدع به فسوار

لها أرض تقتنص النظر بتدبيج أزهارها واطراداتها وتؤمن الراكضين من هبرة غبارها وكبرة عثارها كأنما نسج أديمها منسج واستوت أطرافها وأوساطها فجوها سجيسج ومتى تكهلت الفصول أعاد الله شبابها فأنشاها خلقا جديدا وجعل عودها عودا مثمرا ». فيا لله اتساع ظواهرها وبواديها والحسن البادي ببحرها وبواديها وارتفاع تلك القلعة والحصن وما أوتي من المنعة والحسن قد عمرت فجاده وغيها واستقر بين خصب الوادي ورحب النادي ثواه واستيطانه ..

وقد قمنا بمرسى بونة يومين وهو مرسى حصين في جون واسع جدا وزرنا في جامعها قبر الوالي الصالح أبي عبد الملك مروان بن علي بن القطان (29) قال القاضي عياض في رسم هذا الشيخ من المدارك هو أندلسي الأصل سكن بونة من بلاد أفريقية وكان من الفقهاء المتفنين

---

29 – ابو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطان البوني فقيه ومفسر وحافظ ، اندلسي الأصل نشأ ببونة وبعد اسفار طويلة عاد اليها وعكف على التدريس والتأليف الى أن مات سنة 439 هـ/=1047 م . وله « تفسير الموطأ » للامام مالك . راجع أخباره في كتاب المدارك للقاضي عياض .

Scanned by CamScanner

ألف فى شرح الموطأ كتابا مشهورا رواه عنه الناس وتفقه بأحمد بن نصر الدواودي (30) روى عنه حاتم الطرابلسي (31) وأبو عمران (32) كذا قال حاتم كان رجلا فاضلا حافظا نافذا فى الفقه والحديث أصلـه من قرطبة . سمعنا منه تفسير الموطأ من تأليفه ولزم الدواودي وغيره . قـال أبو عمران : كان صالحا عفيفا عاقلا حسن اللسان رحمه الله .

ثم سافرنا منها الى ميناء بنزرت ..

* * *

II
العـــودة منـــه

ثم أرسينا فى بلاد العناب وأقمنا فيها يوما ثم سافرنا منه وجزنا على بجاية ليلا وطاب لنا الريح ثم أرسينا الى الجزائر قال أبو البقاء خالد .. فى رجوعه من رحلته :

بجـــاية :

ثم دخلت بجاية المحروسة فى يوم الأحد السابع عشر لشوال من عام 740 هـ فنزلنا فى قصر من الديار ودار من القصور دار تخجل منهـا الدور وتتعاض القصور وتقر لها بالقصور .. ونحن فى ضيافة السلطان أبي زكرياء يحي ابن أمير المؤمنين أبي يحي بن أبي بكر الحفصي يطاف علينا بالطيبات والطيب بين العود الرطيب والندى الذي احتوى عـلى الشادي والأديب اللبيب وجمع مع الصديق الصادق والحميـم الحبيب هو.الفقيد الأجل الفاضل الكامل أبو الحسن علي بن محمـد الشهير بالحي أحلته هناك الأقدار واطمأنت به فى تلك المدينة الـدار ونزح فى

---

30 ــ **الدواودي احمد بن نصر** توفي بتلمسان حوالي 402 هـ / 1011 ــ 1012 م .

31 ــ **الطرابلسي** (حاتم بن محمد بن عبد الرحمن التميمي) ولد بقرطبة سنة 398 هـ / 1007 ــ 1008 م وتوفي بها سنة 469 /=1077 . واخباره فى الديباج لابن فرحون .

32 ــ **ابوعمران موسى بن عيسى** ولد بفاس وحج ثم جال فى العراق ثم عاد الى قرطبة ثم نزل بالقيروان حيث مات سنة 430 هـ /=1038 م .

Scanned by CamScanner

كتاب

النفحة المسكية في السفارة التركية

تأليف الإمام العلامة المدرس ابي
الحسن سيدي علي بن المعظم ابي
عبد الله سيدي محمد الجزولي
التمجروتي نفعنا الله
ببركاته ورضي
عنه

طلب العلم عن الأوطان ، حتى صار كاتبا لهذا السلطان أيده الله وسنا له الفتح فتذاكرنا أزماننا بغرناطة سقى الله أرجاءها المشرفة وأغصانها المورقه وأيامنا بها ».

الجزائر :

ثم دخلنا مدينة الجزائر يوم السبت 8 ذي القعدة لليلة بقيت من غشت .

الجزائر .. عامرة كثيرة الأسواق بعبدتها كثيرة الجند حصينة ، لها أبواب (33) ثلاثة وفيها المسجد الجامع واسع امامه مالكي المذهب وفيها ثلاث خطب أحدها للترك امامهم حنفي المذهب ومرساها عامر بالسفن (33) ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة فى البحر يقهرون النصارى فى بلادهم . فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا فى قلوب العدو . فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد أفريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا حتى انهم يسمونها « اصطنبول الصغرى » وطلبة العلم فيها

---

33 ـ بل كان للجزائر 5 أبواب : باب عزون ـ باب الوادي ـ الباب الجديد ـ باب البحر ـ وباب الجزيرة .

33 ـ مكرر

يؤيد التمقروتي ما قاله الكاتب الاسباني هايدو (Haëdo) الذي أقام بالجزائر من 1578 الى 1581 :

« .. ان السفن القادمة من انكلترا تحمل الى الجزائر الحديد والرصاص والقصدير والنحاس والبارود والأقمشة من كل نوع . والمراكب الواردة من أسبانيا ـ وخاصة من كاتالونيا وبلنسية ـ فتحمل الملح والعطور والجواهر والذهب والفضة . .

ومراكب مرسيليا والموانىء الأخرى لفرنسا فانها تأتي بجميع أنواع أدوات البزازة والقطن ، والحديد والفولاذ والمسامير وملح البارود والشب والكبريت وحتى الزيت عندما يقل فى المغرب .. وحتى شحنات من البندق والقسطل .

ومن جنوة ونابلي وصقلية فتحمل السفن الحرير المنسوج ومن كل لون ، ومنسوجات دمشق ، كما تبعث البندقية بالنحاسيات ، والصناديق ، والصابون الأبيض . .

ويستورد التجار الاتراك من القسطنطينية المجاذيف ، والقماش للعمائم والخناجر والأحزمة والزرابي والمعالق المنقوشة والأواني الفخارية والصحون والأكواب المرصعة من الاسكندرية ، ويستقدم التجار العرب من جزيرة جربة ، التوابل والتمر ، ومن تونس زيت الزيتون الجيد والصابون الأبيض ..

(Topographia e Historia de Argel).

Scanned by CamScanner

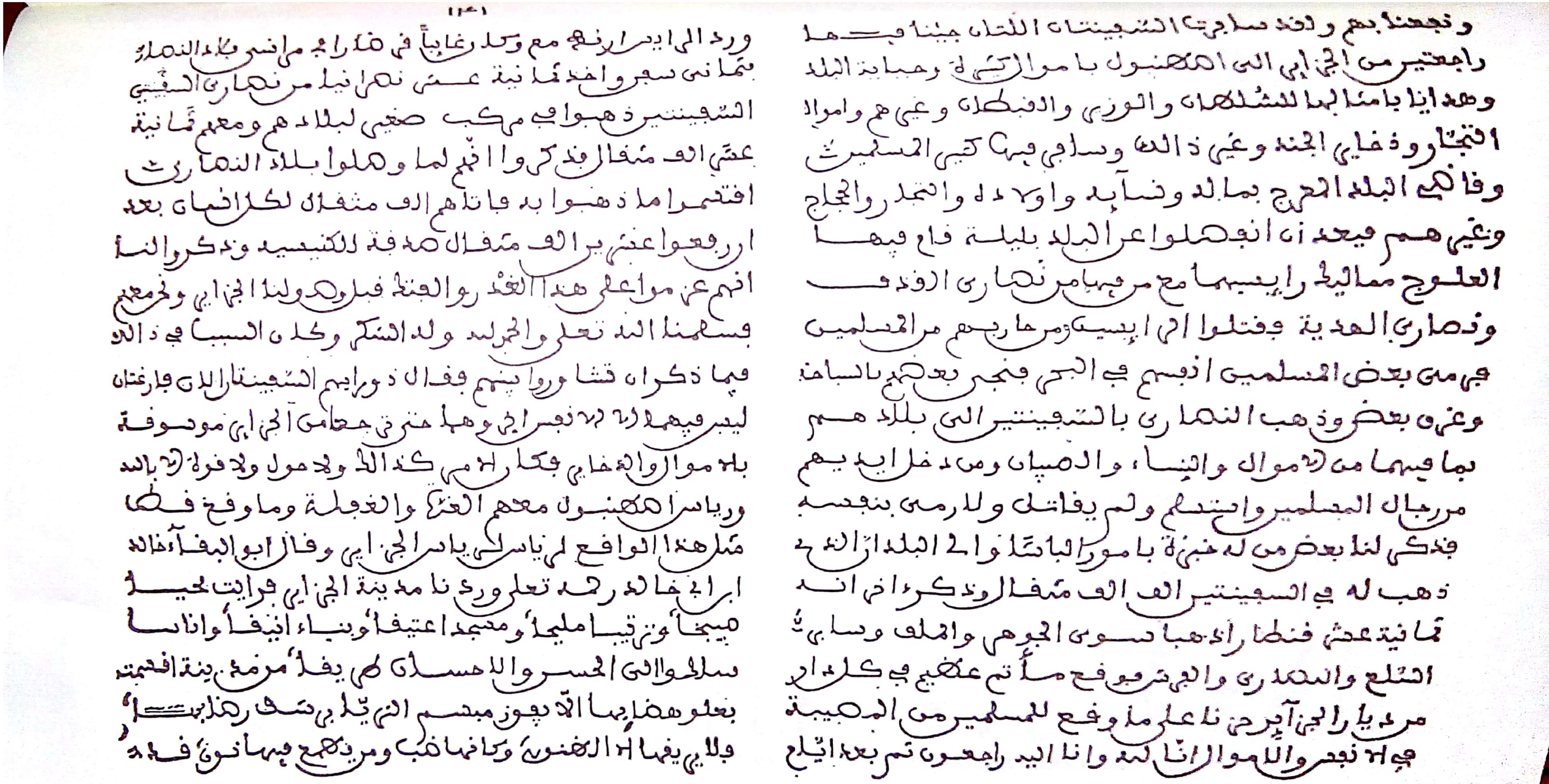
ونجعنا بهم ولقد سارت السفينتان اللتان جئنا فيهما
راجعتين من الجزائر الى اصطنبول باموال كثيرة وجباية البلد
وهدايا باشا لها للسلطان والوزير والقبطان وغيرهم واموال
التجار وذخائر الجند وغير ذلك وسافر فيها كثير من المسلمين
وفارق البلد الخرج بماله ونسائه واولاده والتجار والحجاج
وغيرهم فبعد ان انفصلوا عن البلد بليلة قام فيها
العلوج مماليك رايسيهما مع من فيهما من نصارى الاسارى
ونصارى المدينة فقتلوا الرايسين ومن حاربهم من المسلمين
ورمى بعض المسلمين انفسهم في البحر فنجى بعضهم بالسباحة
وغرق بعض وذهب النصارى بالسفينتين الى بلادهم
بما فيهما من الاموال والنساء والصبيان ومن دخل ايديهم
من رجال المسلمين واستسلم ولم يقاتل ولا رمى بنفسه
فحكى لنا بعض من له خبرة باموال الباشا والي البلد ان الذي
ذهب له في السفينتين الف الف مثقال وذكر انه
ثمانية عشر قنطارا ذهبا سوى الجوهر والملف وسائر
السلع والصدور والعبيد فوقع ما تم علينا في كل دار
من ديار الجزائر حزنا على ما وقع للمسلمين من المصيبة
في الانفس والاموال انا لله وانا اليه راجعون ثم بعد ايام

١٣١
ورد الى ايدي ارزنهم مع وكيل رغابيا في قدر اجر من انسى بلاد النصارى
ثمانين سجرا واخذ ثمانية عشر نصرانيا من نصارى السفينتين
السفينتين ذهبوا في مركب صغير لبلادهم ومعهم ثمانية
عشر الف مثقال فذكروا انهم لما وصلوا بلاد النصارى
افتخروا مما ذهبوا به فاتاهم الف مثقال لكل انسان بعد
ان رفعوا عشرين الف مثقال صدقة للكنيسة وذكروا انهم
انهم عزموا على هذا الغدر والخيانة فلو صحبنا الجزائر ونحن معهم
فسلمنا الله تعالى والحمد لله والشكر وكان السبب في ذلك
فيما ذكروا تشاوروا بينهم فقال ذو رايهم السفينتان الان فارغتان
ليس فيهما الا خمسون نصرانيا وهل حشر في جماعة الجزائر موصوفة
بالاموال والذخائر فكان الامر كذلك ولا حول ولا قوة الا بالله
ورياس اصطنبول معهم الغرة والغفلة وما وقع قط
مثل هذا الواقع لرياس الجزائر وقال ابو البقاء خالد
ابن خالد رحمه الله تعالى وردنا مدينة الجزائر فرأيت بها
مسجدا ونزيها مليحا ومسجدا عتيقا وبناء انيقا واناسا
سالموا الى الحسن والاحسان لم يفت مرمى بينة افضيته
بغلو هضابها الا يجوز مبسم النهر تلا بسند وهذا بعضا
ولا يفها الا الخفوة وكانها ضب ومن ذهب فيها نور فدد

صفحتان من « النفحة المسكية »

لا بأس بهم الا أن حب الدنيا وايثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرا . الكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد أفريقية وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا . وفى هذه المدينة قبر الولي الصالح أبي زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي (34) وقبر الوالي الصالح أبي العباس سيدي أحمد ابن عبد الله الحزيري (35) وقبر الوالي الصالح أبي النور (36) وكذا يقال له عند أهل البلاد وهو الذي قبره فى رأس الجبل وكل هؤلاء خارج باب الوادي وفيها غيرهم من الصالحين زرناهم وتبركنا بهم والحمد لله .

ولقد سافرت السفينتان اللتان جئنا فيهما راجعتين من الجزائر الى اصطنبول بأموال كثيرة وجباية البلاد وهدايا بأمثالها للسلطان والوزير والقبطان وغيرهم وأموال التجار وذخائر الجند وغير ذلك وسافر فيهما كثير المسلمين وقاضي البلد المعرج بماله ونسائه وأولاده والتجار والحجاج وغيرهم . فبعد أن انفصلوا عن البلاد بليلة قام فيها العلوج مماليك رايسها من فيها من نصارى القذف ونصارى الهدية فقتلوا الرايسين ومن حاربهم من المسلمين فرمى بعض المسلمين أنفسهم فى البحر فنجا بعضهم بالسباحة وغرق بعضهم وذهب النصارى بالسفينتين الى بلادهم بما فيها من أموال والنساء والصبيان ومن دخل أيديهم من رجال المسلمين واستسلم لم يقاتل ولا رمى بنفسه . فذكر لنا بعض من له خبرة بأمور الباشا والي البلد أن الذي ذهب له فى السفينتين ألف ألف

---

34 ـ **عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي** من كبار علماء الجزائر وصلحائها ـ ولد ونشأ بناحية وادي يسر 788/=1387 ثم جال بين بجاية وتونس ومصر وغيرها الى أن عاد الى الجزائر ـ توفي الثعالبي سنة 1471/875 بمدينة الجزائر .

35 ـ **احمد بن عبد الله الجزائري (أبو العباس) الزواوي** : نقيه ومتكلم وله نظم ، سكن مدينة الجزائر ومات بها 800-884/= 1398 ـ 1479 له « كفاية المريد » فى علم الكلام وهي منظومة لامية تنيف على 400 بيت شرحها الامام محمد بن يوسف السنوسي وله أيضا : « القصيد فى علم التوحيد » .

36 ـ **ابو النور** : دفن الولي الصالح بجبل بوزريعة (قرب المرصد الحالي) ثم حولت السلطات الفرنسية جثمانه الى موضع آخر لتبني بطارية بعين المكان .

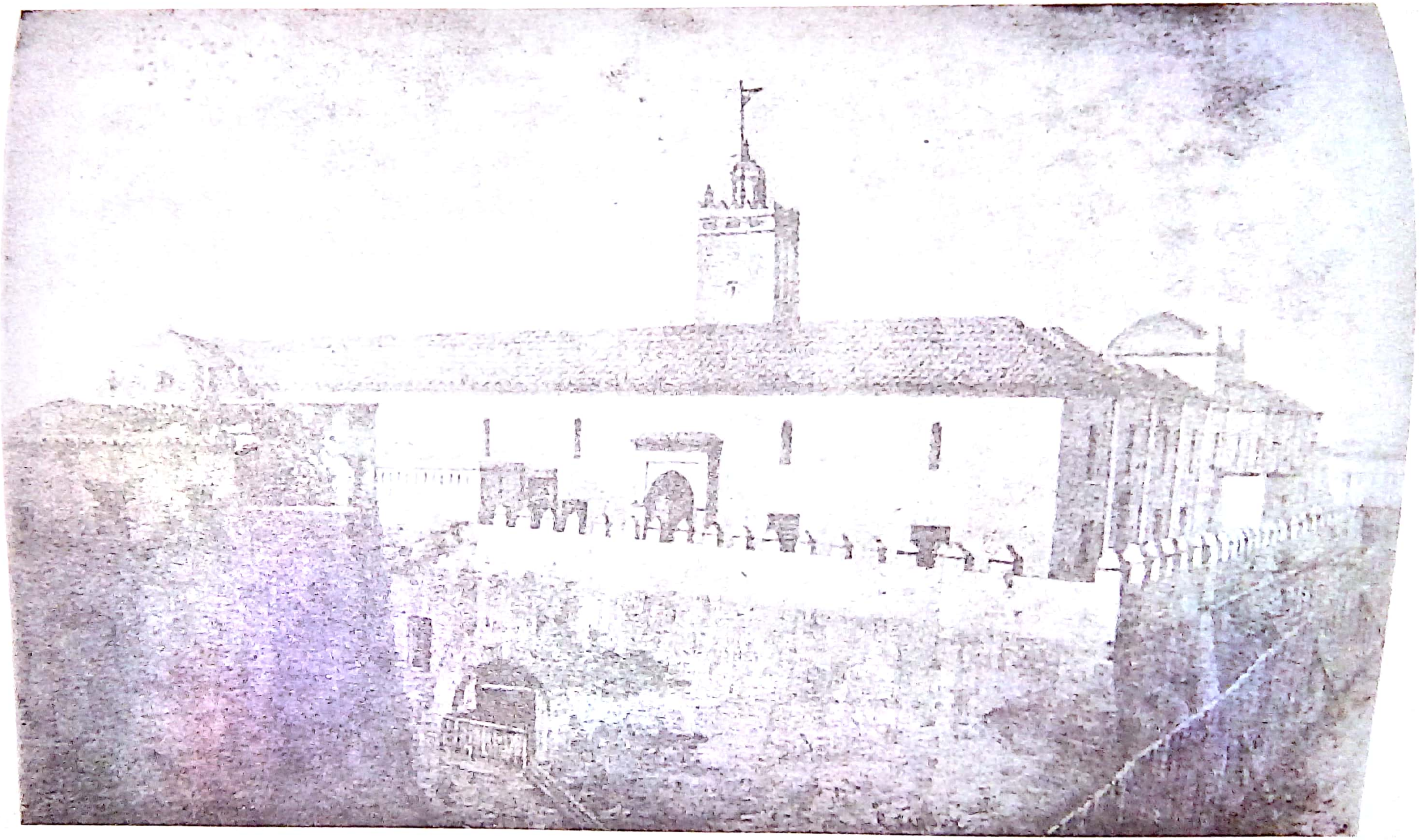

الجامع الكبير — صورة لـ م . بودكي

Scanned by CamScanner

مثقال وذكر آخر أنه ثمانية عشر قنطارا ذهبا سوى الجوهر والملف وساير السلع والنصارى والفرش فوقع مأتم عظيم فى كل دار من ديار الجزائر حزنا على ما وقع للمسلمين من المصيبة فى الأنفس والأموال .. انا لله وانا اليه راجعون .. ثم بعد أيام ورد الرايس رأناوط مامي (37) . وكان غائبا فى «حارا» فى مراسي بلاد النصارى بثماني سفن وأخذ ثمانية عشر نصرانيا من نصارى السفينتين ذهبوا فى مركب صغير لبلادهم ومعهم ثمانية عشر ألف مثقال . فذكروا أنهم لما وصلوا بلاد النصارى اقتسموا ما ذهبوا به فأتاهم ألف مثقال لكل انسان بعد أن رفعوا عشرين ألف مثقال صدقة للكنيسة وذكروا لنا أنهم عزموا على هذا الغدر والفتك قبل وصولنا الجزائر ونحن معهم .. وكان السبب فى ذلك فيما ذكروا أن تشاوروا بينهم فقال ذو رأيهم : السفينتان الآن فارغتان ليس فيهما الا الأنفس ؛ أخروهما حتى ترجعا من الجزائر موسوقة بالأموال والذخائر وكان الأمر كذلك .. ورياس اصطنبول معهم الغرة والغفلة وما وقع قط مثل هذا الواقع لرياس الجزائر . قال أبو البقاء خالد :

وردنا مدينة الجزائر فرأيت محيا صبيحا وترقيبا مليحا ومسجدا عتيقا وبناء أنيقا وأناسا سلكوا الى الحسن والاحسان طريقا .

.. أحاط بها البحر احاطة السوار بالزند فألبس ذلك الجسم روح المجد وركب خلايق الدهر على ذلك النجد فأقمنا بها .. حتى قرب أمد الرحيل وغلب واجبه على المستحيل فعزمنا على الخروج .. »

ثم سافرنا من الجزائر (38) ليلة الاثنين سابعة خلت من محرم عام تسعة وتسعين وتسعمائة أربع ليال بقيت من أكتوبر فحملتنا الريح الى مرسى هنين فدخلناها سالمين قال أبو البقاء خالد :

---

37 – ارناؤط مامي : من أصل ألباني : قبطان بحر كان قبل ذلك من خدم قارا علي الى ان عين على رأس الايالة 1583 – 1586 على حد قول هايدو Haëdo

38 – اقام التمقروتي اكثر من شهرين فى مدينة الجزائر (من 8 ذي القعدة الى 7 محرم) .

Scanned by CamScanner

هنين : بليدة قصيرة لا كبيرة ولا صغيرة جميلة المنظر متوسطة بين «هنين» بين جبلين بين بحر وشجر بخفضها ارتفاع الصغر والكبر ، موضوعة أسفل جبلين بين بحر وشجر بخفضها ارتفاع قلعة ودار صناعة وأسواق موفورة ومساجد معمورة ولقربها من الأندلس هي مذكرة مذكورة لقيت فيها الخطيب الماهر أبا عبد الله بن جابر فجبر الوحشة بالأئتناس وأنشدني لبعض الناس :

ابشر بخير عاجل تنسى به ما قد مضى
فرب امر مسخط لك في عواقبه رضى

ثم سافرنا منه ودرفت علينا الريح وحملتنا فما أرسينا الا في مرسى تيطاوان عشية يوم الجمعة لاحدى عشر ليلة خلت من الشهر المذكور (39) .

* * *

39 – توافق سنة 999 هـ سنة 1590 .

Scanned by CamScanner

مَاءُ الموَائد

الرّحلة إلى المشرق

العَودة مِنهُ

Scanned by CamScanner

I

الخروج من سجلماسة

« .. ثم سافرنا من سجلماسة (1) يوم السبت العاشر من ربيع الثاني (1662/11/11) وما خرجنا من البلد حتى وجدنا الركب أمامنا قد ارتحل وسار ولم يبق منهم فى المنزل داع ولا مجيب ، واقتفينا أثرهم فلولا أن أمير الركب خلف واحدا من أصحابه فى نحو من منتصف الطريق يدلنا على منزل الركب ، لكدنا أن نذهب عنه اذ لم نصل اليهم الا بعد العشاء الأخيرة ، ووجدنا الركب قد نزل فى « عين العبـاس » فنزلنـا معهم وأقمنا غدا هناك ننتظر لحـاق بعض أصـحابنا ممن تخلف عنـا بسجلماسة لقضاء بعض الأوطار فلحقوا بنا فى ذلك اليوم ومن هناك ودعنا آخرين جاؤوا معنا من أهل بلدنا .

وانقطعت أخبارنا عنهم وأخبارهم عنا ، وكتبنا معهم كتابا للاخوان والأصحاب وكتبنا من هناك الى أصحابنا ومشايخنا بفاس ونحن فى غاية وصول الكتب اليهم بين الرجاء واليأس .

ثم ارتحلنا من هناك مسرعين ، والى داعي البين مقطعين ، ولم يبق لنا التفات الى من وراءنا ، ولم نشغل بغير ما نحن فيه آراءنا ، واستقبلنا أراضي واسعة ، ومناهل عن العمران شاسعة ، لا يهم المـرء فيها الا

---

1 ـ **سجلماسة** : كانت تقع على ضفة وادي زيز على مسافة قريبة من تافلالت ، قيل انها أسست سنة 787 وحاصرها المرابطون واضمحلت بعد سنة 1362 ، وتحقق عن موقعها الحقيقي (D'Avezac) سنة 1836 ، راجع البكري : كتاب المغرب ، والأسد الأفريقي : وصف .. ج 2 ص 424–425 و 428–430 .

Scanned by CamScanner

شعابها الا خوافق الرياح ولا يجتريء على قطعها الا ذو خف أو جناح .

ثم نزلنا ذلك اليوم عشاء منهلا يسمى الرفاعية وهي أحساء تحفر فى رمل وماؤها طيب كالذي قبله ومنه يؤخذ ماء ثلاثة أيام لقطع الحماد (2) فتفقد الناس قربهم ورأوا ركابهم . وأصبحوا مرتحلين ، وطلعنا الى ظهر الحماد ظهرا قريبا من الكرب فى موضع يقال له « وادي السبط » .

ثم ارتحلنا منه وسرنا يومنا الى الليل فى رأض جرشة وعرة يغني عن وصفها ما لها من الشهرة لا حطب فيها ولا كلأ ولا ماء والا ما فى القرب والا فلا . فلا تلمح العين أقدامها اطلاع ، وصادفنا فيه ريح بارد ، كأنه من نفس جهنم وارد ، قد جمع الى برده عصفا . لا أكاد أستطيع له وصفا ، ولم نبت الى المغرب ولم يجد الناس وقودا الا أخضر صلاعها ، فى بعض تلاعها .

ثم من الغد نزلنا من الحماد بعد الظهر وبتنا قبل العصر تحته فى أرض سهلة مسترملة فيها بعض ما ترد به الابل جرعتها ، وتطفيء به لوعتها .

وادي قير

ثم ارتحلنا من هناك وبلغنا « وادي جير » (3) وهو وادي كبير فسيح ملتف الأشجار قليل الأحجار كثير المرعى غامض المسعى ، يجتمع اليه سيول من المسافات البعيدة ، ولا تصل الا بعد أيام عديدة ، وابتداؤه من ناحية بلادنا وعليه قرى ومزارع ويمتد كذلك الى ناحية الصحراء والحمادة متصلة فى جوانبه الى أن يصل الى أطراف الحماد الكبير الذي

---

2 - **الحماد** : أرض يابسة ومرتفعة .

3 - **وادي قير** : واد ينحدر من جبال الأطلس جبل تاندرارة ويجري نحو الجنوب الى أن ينصب فى وادي مسعود .

Scanned by CamScanner

بينه وبين سجلماسة ومن هناك تنقطع العمرة الى أن يصل الى أول قرى « وادي الأساور » فتتصل قواه كذلك نحو من عشرة أيام الى قريب من «توات» (4) فيتعطف يمينا فى رمال كثيرة وهو من أطول أودية المغرب مسافة وأقلها فائدة وأكثرها مخافة الا أنه فى وقت مرورنا فيه فى غاية العافية . قد وجدنا به أفراسا مهملة ليس معها أحد ولا يقدر انسان أن يقربها لمبالغة الأمير فى التنقيب عن لصوص تلك البلاد وابلاغه فى معاقبتهم فنفع الله البلاد بذلك وان كان غالبه ظلما لا تنكر الباطل فى طوره فانه بعض ظهوراته . وسرنا مع ذلك الوادي الى الظهر .

ونزلنا على ماء يقال له ضاية (5) الحمار ثم ارتحلنا منه وقطعنا حمادة أخرى ونزلنا قريبا من موضع يقال له «السد» على ماء فى وادى جير غادرته السيول ثم ارتحلنا منه ومررنا ضحى بقرية يقال لها « اجلى »(6) وهي أول قرى وادي الساورة وأول القرى التي كتب لنا الأمير اليها بما أحسن صاحبها ولا أفضل .

بني عباس

ونزلنا ذلك اليوم بقرية يقال لها «مازر» ثم ارتحلنا منها ونزلنا قرى « بني عباس » (7) ، وهي ثلاث قرى متصلة فى سفح جبل صغير على شفر الوادي ، فيها نخل كثير وفاكهة وبساتين حسنة وفيها ساقية من الماء الجاري العذب . وباحدى قراها كان سيدي أحمد بن عبد الله بن

---

4 – **توات** : واحة كبيرة بالجنوب تمتد من الغرب الى الشرق وتضم عدة قرى أو القصور ، والتوات مركز تجاري وملتقى طرق الشمال والجنوب والمحيط وتونس ، واشهر مدنه تيميمون وفرارة ، ومحط رحال القوافل المتوغلة فى الصحراء نحو النيجر ، وتأسست فى المنطقة عدة زوايا نشرت العلم وكونت الطلبة .

5 – **ضاية** : ارض منخفضة تجتمع فيها المياه لمدة

6 – **اجلي** : قصر يوجد فى ملتقى وادي زسفانة وادي قير .

7 – **بني عباس** : قصر على نحو 225 كلم من بشار ، فى طريق القوافل بين الشمال والتوات فرارة والهوقار .

Scanned by CamScanner

أبي محلي القائم (8) فيما مضى . ومنها كان ابتداء أمره وقيامه ، وداره الى الآن معروفة (9) .. ثم ارتحلنا من بني عباس ظهرا على اثر سماء ونزلنا بعيدا منها محلى شفر الوادي ثم منه الى قرب قرية يقال لها «بشير» .

ثم ارتحلنا من هناك وتركنا الغابة عن يسارنا وهي قرى كثيرة ذات نخيل وهي أكثر قرى الوادي تمرا وتقصدها العرب كثيرا للميرة (10) ولم يكن مرورنا عليها بل أخذنا على حمادة عن يسارنا حتى نزلنا بموضع يقال له « فم المدفع » وبه تجمع الطريق التي سلكناها مع طريق صابر التى تقطع الحماد الكبير . ونزلنا على «مزعمو» ثم ارتحلنا منه ومرنا بقرية يقال لها «بني خلف» وسرنا يومنا حتى نزلنا بزاوية سيدي أحمد بن موسى ـ نفعنا الله به ـ وأحسن صاحبها فى القرى لنا ولسائر أهل الركب وأعطى ما بعث به اليه الأمير . ثم ارتحلنا منه صبحا بعد ما زرنا قبر السيد المذكور وسرنا مع قراها ذلك اليوم حتى نزلنا وراء آخر قرية منها بموضع يقال له « الطويل » . ثم ارتحلنا منه وتركنا قرى أولاد رافع عن يسارنا وقطعنا حمادة هناك ونزلنا على ماء يقال له « تمغارن » وبتنابه ، وأخذنا منه ماء ثلاث ليال ثم ارتحلنا منه ومر بعض الركب مع الوادي على قرى يقال لها « القصبات » ، ومر الآخر على يسارها وظن أصحابهم أنهم قد تاهوا فلم يجتمعوا الا عشاء ، ونزلنا آخر الوادي بمضيق من الجبل حيث ينعطف ذاهبا فى الرمل . ثم ارتحلنا منه وذهبنا فى الحماد بين توات والوادي ونزلنا بموضع يقال

---

8 ـ **احمد بن عبد الله أبي محلي** : من المرابطين الذين حاربوا مولاى زيدان سلطان المغرب ، وكان أمره قد بدأ بمنطقة الساورة واستولى سنة 1611 على سجلماسة ولقي تشجيعا من طرف اتراك الجزائر وأعيان تلمسان وطارد السعديين فى الجنوب واستولى على مراكش ولجأ مولاي زيدان الى ابي زكرياء يحي بن عبد الله فقام هذا الأخير وحاربه المحلي وقتله سنة 1613 .

9 ـ حذف سؤال وجواب طويل فى جواز اللحن للشاعر فى القوافي (ج1 ص19) .

10 ـ **الميرة** : كل طعام يدخره الانسان .

Scanned by CamScanner

له « الدميرنة » تصغير دمران اسم شجرة تأكلها الابل كثيرا وتصلح عليها ، وسمي بها المحل لوجودها فيه . ثم ارتحلنا منه وسرنا يومنا وما وصلنا الى « المهورة » الا قريب من ثلث الليل الأول . وهي ثنية فى آخر الحماد مشرفة على أول بلاد توات وما سرنا قط مرحلة مثلها كلافا وجوعا للابل قاسيناه يوما قمطريرا وليلة نابغة ــ والله يكفر بها الزلات ويجعلها آخر ما نتلقاه من المشقات ــ

واحات توات

ثم ارتحلنا منها ودخلنا أول عمالة توات وهي قرى « تسابت » (11) وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح المتبرك به حيا وميتا سيدي محمد بن صالح المعروف « بعريان الرأس » تلميذ الولي الصالح المشهور سيدي أبي الرواين دفين مكناس بمغربنا ــ نفعنا الله بها وأدركنا بعنايتها ــ وكان وصولنا اليها ضحى يوم الخميس آخر يوم من ربيع الثاني (11/30) وأقمنا بها ستة أيام ، وبعنا بها خيلنا وما ضعف من ابلنا واشترينا ما يحتاج اليه من التمر ، وبها من التمر أنواع كثيرة ووجدنا التمر فيها رخيصا ولم نلق هناك أحدا ممن ينتسب الى ولاية أو صلاح ، ولا من أهل العلم والفلاح ، وغالب أهلها عوام أهل تجارة جل عيشهم التمر ، وبخارج البلد مرعى حسن للابل صلحت فيه ابل الحجاج أيام الاقامة وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة ويقولون للمثقال الاربعيني مثقال شريفي نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة . وصلينا الجمعة فيها أول يوم أقمنا فيها وسرد الخطيب خطبة عظيمة وعظية حسنة تلفقها من صحيفة الا أنه أكثر فيها اللحن وآخرها فقد نصحكم الواعظ يا أهل الاسلام فأقبلوا النصيحة والسلام . وحضر الخطبة رجل ممن كان معنا فى الركب فبكى بموعظته تلك ، بكاء كثيرا وأظن أن

11 ــ **تسابت** : ناحية ، جنوب دغامشة على نحو 30 كلم من وادي الساورة وهي مجموعة من « القصور » ومنها « عريان الراس » .

Scanned by CamScanner

بكاءه ذلك كان عن صدق لا استعمال فيه ولم أعلم حتى الآن من هو .
وسبب اقامتنا فى هذه البلاد هذه المدة أن كثيرا من الحجاج لما غلا صرف الذهب فى تافلالت أخروا الصرف الى توات فان الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من بلاد « تنبكت » ومن بلاد « اقيرز » من أطراف السودان ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خارج السودان نافقة فى هذه البلاد كالخيل وملابس الملف والحرير . فاذا قدم الركب اليها كان فيها سوق حافل . ثم ارتحلنا من توات بعدما لحق بنا جملة ممن يريد الحج من أهلها يوم الخميس السابع من جمادى الأولى (12/7) وخلفنا قرى توات وراءنا وعدلنا ذات اليسار الى بلاد « أوكرت » ونزلنا بقرى «الدغامشة» (11مكرر) قرب زاوية سيدي عبدالله بن طمطم، فلما ارتحلنا ذهب أمير الركب مع بعض أصحابنا لزيارته ولم تتيسر لي زيارته لأن الركب عدل عنه يمينا وأنا لا أقدر اذ ذاك على المشي كثيرا راجلا والبلاد ذات رمل وقد أثنى لنا أصحابنا عنه كثيرا وانه من أهل الخير والدين يطعم الواردين عليه فى بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء .

غريبة : ومما تواترت به الأخبار عن هذا السيد انه لا يترك أحدا من أعراب ذلك البلد يأكل طعامه فان لم يشعر به حتى جلس بين الناس أقامه ويقول لهم هؤلاء اللصوص لا أتركهم يأكلون طعامي يستعينون به على ظلم المسلمين ومع ذلك لا يقدر أحد منهم مع عتوهم واستكبارهم على اذايته ، وعلى كل حال فالرجل من أهل الخير والصلاح توثر عنه كرامات كثيرة .

---

11 مكرر – الدغامشة : مجموعة من القصور على بعد 20 كلم غربي دلدون .

Scanned by CamScanner

لطيفة : أخبرني الأخ فى الله المحب المخلص سيدي عبد الرحمن بن الحسن ، وكان ممن ذهب لزيارة هذا السيد أنه لما خرج لوداعهم قرأ لهم فاتحة وبالغ فى رفع يديه فلما فرغ منها قال له رجل آخر من الحجاج يا سيدي اقرأ لي فاتحة فانتهره وقال له أما علمت أن فاتحة الكتاب لما قرئت له وانها السبع المثاني والقرآن العظيم فهلا نويت حاجتك عند شروعنا فى قراءة الفاتحة فان فاتحة مرة واحدة تكفي أهل السموات والأرض أو كلاما هذا معناه ولقد هدى فى ذلك رضي الله عنه . وذلك مما يدل على أن له حالا مع الله وسعة معرفة به وبأسمائه وكلامه . ولقد نفعني الله بكلامه هذا فلا أقرأها بعد ذلك لنفسي أو لمن طلبها مني الا نويت مطالبي كلها أو مطالب الطالبين وان تعددوا فأجد بركة ذلك . وهذا شأن أهل الصدق مع الله فى ظهور اثر سماع كلامهم فيمن سمعه أو بلغه والله تعالى يمدنا بمدد أهل القرب الموجب لحصول مرضاة الرب .

ولم يلحق بنا أصحابنا الذين ذهبوا لزيارة هذا الرجل الصالح حتى نزلنا قرية يقال لها « أولاد محمود » وهي من قرى الدغامشة ثم ارتحلنا منها ونزلنا ببلاد «أوكيرت» (12) عشاء ، وهي قرى كثيرة ذات نخيل جم وهي معدودة من بلاد تجورارن (13) واشترى الناس منها ما احتيج اليه من الزاد الى بلاد واركلا . وأقمنا بها يومين وبدلنا بها من الأباعير ما ضعف (14) .

---

12 — **اوكيرت** (او بلاد الخنافسة) نحو 14 «قصرا» معظمها على الضفة اليسرى لوادي مقدن ، والناحية خصبة بزراعتها ونخيلها ، ومن أهم مراكزها زاوية سيدي عمر ، ويتردد على أسواق الناحية قبائل الأغواط وأولاد سيدي الشيخ ، والموضع فى طريق القوافل القادمة من مزاب ومتليلي والقاصدة « للسودان » .

13 — **تقرارين** : ومعناه باللهجة المحلية = « المخيمات » وتعرف الناحية بقرارة .

14 — يقول احمد بن الحسن الوزان (Léon l'Africain) « ان سعر اللحم مرتفع بتيقورارين لعدم وجود الماشية وذلك يرجع للجفاف فى البلاد ، وياكل الناس لحم الابل يشتريها السكان من الأعراب ، وهذه الابل هي تلك التي عادت غير قادرة على القيام بالسفر .. » (وصف افريقيا ص 436) .

Scanned by CamScanner

فتوى حول بيع ماء الري

فتوى حول بيع زاوية سيدى عمر بن محمد صالح الأنصاري

لطيفة : وكنا نزلنا بقرب زاوية سيدى عمر بن محمد صالح الأنصاري ولقيت بها رجلا ممن ينتحل الفقه اسمه سيدي محمد الخزرجي الشامي وهو فى غالب الظن من أهل الخير وله بعض الخبرة ابن علي بن أبي بكر وكان قد وجه الى الركب بسؤالين أحدهما فى نازلة من بفروع الفقه الأحباس والآخر فى نازلة من البيوع/. وألزمني بالكتب على الأخيرة منهما ومضمن السؤال ــ وكان فيه طول ــ أن رجلا اشترى من آخر ستة أجزاء أو قريبا من ذلك من ماء عين جلبت من بعيد بالفقاقير وذلك وصف ماء هذه البلاد كلها ، وثمانية أجزاء من عين أخرى والعينان مختلفتان فى القلة والكثرة والبعد والقرب وغير ذلك من الأوصاف التي تختلف بها رغبة الناس فى المشترى اختلافا كثيرا . ثم أن هذا المشترى باع من آخر أجزاءا معلومة العدد من كلتا العينين كخمسة مثلا ولم يبين ما لكل عين من الأجزاء .

فأجبت بفساد هذا البيع للجهل بالمثمور اذ لا يدري ما له من العين المرغوب فيها وما له من الأخرى • ثم ان خصم هذا المستفتي وجه بسؤال فيها الى القاضي سيدي أحمد الخطيب الا أنه زاد فى السؤال ان الماءين يجتمعان فى بركة حتى يصيران ماء واحدا ثم بعد ذلك يجزآن أجزاءا وأن الأجزاء المبيعة انما هي من الماء بعد اجتماعه فى ذلك المحل •

فأجاب بالصحة لأن الماء بعد اجتماعه فى ذلك المحل صار معلوم القدر وأجزاؤه معلومة وان اختلفت مواده التي يجتمع منها وذكر أن هذه المسألة كثيرة الوقوع عنهم ببلاد مراكش لأن أكثر بساتينهم « بالخطاطير » ويسميها أهل هذه البلاد الفقاقير وهو أنسب لأنها

Scanned by CamScanner

آبار متعددة يفقر من جنب كل واحد الى الآخر فيزيد ماؤه وينمو بزيادة ماء غيره عليه ولا يزال كذلك حتى يخرج على وجه الأرض فتسقى به الأجنة والمزارع ويجزأ أجزاء كثيرة بالأيام وقد يجزأ اليوم الواحد بأجزاء كثيرة فتباع تلك الأجزاء .

ولما كتب الجواب على النازلة المذكورة على الوجه الذي ذكر فى السؤال ذهب به المستفتي الى القاضي المذكور ليضع خطه فيه بالتصحيح فأبى وقال : ان الجواب صحيح وتحيل فى عدم الكتب بعذر أبداه . فلما لقيته سألته عن عدم تصحيحه للجواب فقال لي انه قد وجه الي بسؤال فى النازلة على خلاف ما وجه به اليك وأجبت بالصحة فلا أحب أن يوجد خطي فى سؤالين متناقضين فى نازلة واحدة وان كان كل منهما صحيحا بالنظر الى ما ذكر فى سؤاله . وكثيرا ما يقع هذا فينسب به المفتى الى الميل والتعصب وان كان بريئا من ذلك وقبلت عذره فى ذلك وهو صحيح فقد ذكر لي بعض مشايخنا أن سيدي أحمد المغربي لما ولي الفتوى بفاس كان لا يجيب فى نازلة قد تقدم له جواب عنها بما يخالف مقتضى السؤال الثاني ويقول ان ذلك مما يوجب الطعن فى المفتي عند كثير من الناس . فربما يقذف من أجل ذلك بألسنة الذم ويلحق برداء الحيف . والذي يظهر لي وان كان لما ذكر وجه أن الأولى الجواب عن السؤالين لاختلاف فصول السؤال فان كان والأمر كما ذكر فالحكم كذا . فاذا فعل ما ذكرنا زالت الريبة وتبين الحكم لمن أراد اقتفاءه والا أدى ذلك الى التضييق على كثير من المستفتين والابطال لحقوقهم والله أعلم .

ولما جئنا لزيارة سيدى محمد المذكور وقفنا بباب داره وقيل لنا انه دخل الدار فكتبت اليه ببيتين وكان ذلك قبل اجتماعنا به وهما :

ببابك قوم يطلبون زيارة لكيما ينالوا دعوة منك رابحة
أحبوك لا عن رؤية قد تقدمت ولكن لأخبار اتت عنك صالحة

Scanned by CamScanner

فخرج الينا وهش وبش وأجزل القرى – جزاه الله عنا خيرا – وعقدت معه أخوة فى الله ، ولما ودعته طلبت منه الدعاء فدعا لي وقال لي معرفة الله كنز ومعرفة أحكامه طريق الى ذلك الكنز . فمن مات قبل الوصول الى معرفة الله فقد مات فى الطريق ولم يصل الى الكنز . وهذا كلام حسن فى بابه (15) ..

ذكر خروجنا من بلاد أوقروت : ورحيلنا من هذه البلاد صبيحة يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادي الأولى (2/12) قاصدين واركلا .

وخرج معنا جملة من أهلها قاصدين الحج وأخذنا على طريق وادي « امقيدن » ومعنا رجل من عرب الخنافسة اكتراه أمير الركب يدلهم على الطريق ومعاطن المياه كثيرة فى هذا الوادي قل ما يخلو يوم من منهل وماؤه عذب غزير وفيه يقول أعراب ذلك البلد : « وادي امقين ما نعطش فيه ، كل يوم نجي على ما » الا أنا وجدنا غالب المناهل قد دفنها أولاد محمد عرب توات خائفين من عدوهم ابن سعيد أن يغيروا عليهم فطمسوا ما فى طريقهم من الماء لأجل ذلك . ولم نزل نسير مع ذلك الوادي نرد الماء يوما بعد يوم فى أيام بلغ بردها الغاية ، وأفرط الى غير نهاية .

والن

الى أن نزلنا عاشر يوم على قرية يقال لها « والن » بعد ما قطعنا قربها رمالا كثيرة يحار النظر فى كثرتها وصعوبتها وقاسينا منها شدة ولقيت الابل أضعاف ما لقينا وعلمنا عند ذلك حسن مبالغة القائل : اللهم صل على سيدنا محمد عدد الرمال . ولولا أن هذه القرية فى مثل

15 – حذف كلام طويل واستطراد ممل حول قضايا فقهية مثل نشوز المرأة وطلاقها وغير ذلك مثل رؤية الرسول فى المنام (ج1 ص 24–49).

هذه المفازة ما حسن تسميتها قرية اذ ليس فيها الا نخلات معدودة قد يبس أكثرها وبقيت جدرات تسفى عليها الرياح وحجرات من جريد النخل وعرش من الجريد مرفوعة من الأرض مقدار القامة يبس فيها تمر تلك النخل اذ لا يقدرون على وضعه على الأرض لئلا يغلب عليها الرمل فيذهب أدراج الرياح .

ولم نجد فى هذه القرية الا رجلا واحدا ومعه نساء من قرابته يعونهن وهو من ذرية رجل من الصالحين اسمه سيدي محمد بن موسى مدفون فى تلك القرية عليه بناء • وزعموا أنه أول من بنى تلك القرية وأحياها وفجر ماءها وغرس نخيلها ، والعرب يحترمون النازل بها بحرمته ويتأثر من تعدى عليه منهم بذلك . ويأتون ببعض صدقاتهم اليه وقد وجدنا فى روضته سفرا من نوازل البرزلي بخط الامام ابن مرزوق (17) وقد أفسد القطر جانبا منه ومعه اجازات لبعض السادات القادرية بخط مشرقي وكثر تعجبنا من وصول ذلك الى هذه القرية .

وصية محمد بن اسماعيل :

وما كنا نظنه الا من كتب سيدي محمد ابن اسماعيل الذي مات بتكرارين فانه لما مات هناك سنة أربع وستين (1064 = 1653 — 54) خلف كتبا كثيرة وأوصى بها لخادم الروضة النبوية وأوصى بأن يصبر

---

16 — **البرزلي** (أبو القاسم بن أحمد) فقيه مالكي ، ولد بالقيروان ودرس مدة بتونس — وتوفي بها سنة 1438/841 م . وله «جامع مسائل الأحكام ممن نزل من القضايا بالمفتين والحكام »

17 — **ابن مرزوق** : المرازقة أسرة علم وتأليف حلت بتلمسان فى القرن 5 هـ = 11 م فى عهد لمتونة ، وأشهرهم :
- شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد .. الملقب بالجد والخطيب (ولد بتلمسان 1310/710 وتوفي بالقاهرة 781/=1379 . صاحب المسند الصحيح ..
- محمد السادس الملقب بالحفيد (766–/1364 — 1438/842) .
- محمد السابع (1421/814 — 1495/901) الملقب بالكفيف .

(راجع : دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الثانية ج 3 ص 890–892) .

Scanned by CamScanner

شخصه بصبر وكافور ويحمل الى المدينة المشرفة يدفن فيها وعين لمن يحمله نحوا من ثلاثمائة دينار من متخلفه وكان له فرس أدهم من عتاق الخيل وأوصى به للجهاد وأعتق عبيده ودفع لكل حصة من ماله . فلما مات نفذ أهل البلد وصيته الا في حمله فانهم لم يجدوا من يحمله معتلين بخوف ظلم الولاة بمصر والحجاز أن يطالبوهم بماله اذا رأوا جنازته محمولة من الغرب ويقولون ما فعل به هذا الا وله أموال تفوت الحصر فدفنوه في بلادهم بعدما هم بعض التجار برفعه . وبقيت كتبه هناك مدة ثم حملوها الى القليعة فارين بها لما بلغهم أن متولي البلد يتحدث بأخذها ، ولم تزل هناك الى أن ذهب سيدي علي بن الشيخ الحفيان للحج بعد ذلك بسنين فبعثوها معه وضاع كثير منها وقد رأيت بعضها بالمدينة المشرفة ورأيت زمام ما وصل منها وليس يشبه ذلك عدة كتبه ، وقد أخبرني بنفسه رحمه الله قبل موته بسنة لما لقيته بفيقيق أن كتبه تبلغ قريبا من ألف وخمسمائة تأليف والذي بلغ منها الى المدينة المشرفة نحو من مائة وسبعين سفرا رأيت منها جملة كبيرة وهي كتب نفيسة جدا اقتنى أكثرها لما كان بمدينة اصطنبول اشتراها له الوزير الأعظم بسبب حكاية وقعت له معه قبل أن يتولى الوزارة ، وذلك أنه لقيه ببغداد عند ضريح قطب الزمان الشيخ عبد القادر الجيلالي (18) والوزير اذ ذاك مصروف عن عمالة كبيرة من أعمال السلطان . فهو يتخوف من غائلة السلطان ويأمل الوزارة فقال ياسيدي ادع الله لي فان توليت الوزارة فاقترح علي ما شئت فلما ذهب سيدي محمد بن اسماعيل الى القسطنطينية وجده قد تولى الوزارة فأكرم مثواه وأحسن نزله فقال له نساند وما تقترح فقال له ان بهذه المدينة كتبا نفيسة وليس لي

---

18 – عبد القادر الجيلاني (محيي الدين أبو محمد) من كبار صوفية الاسلام ومؤسس الطريقة القادرية الشهيرة .

قيل ولد بالعراق سنة 470/1077–1078 وتوفي سنة 561/1166 وقيل بل ولد بفارس بمقاطعة جيلان

راجع (E.I. (2) I. 70-72)

Scanned by CamScanner

ما أحصل به أمنيتي منها . فبعث الى دلال الكتب وقال له : كل ما يقع بيده من الكتب فاعرضه على هذا الشيخ فما استحسن منها فاتركه نه وخذ الثمن من عندي لأربابه . فلم يزل ذلك دأبه مدة اقامته هناك . وكان هذا الرجل أعجوبة فى سائر أحواله فانه ممن حصل جانبا عظيما من العلوم الشرعية ولم يخل من جانب الأذواق الوهبية وجال البلاد شرقا وغربا فلم يدع المغرب الأقصى ولا أفريقية ولا بلاد السودان وأقام بمصر مدة نحوا من سبع سنين فى حياة الشيخ اللقاني (18مكرر) وأخبره انه ختم المختصر بالأزهر سبع مرات ولقي مشايخ ذلك الوقت وجاور بمكة والمدينة مدة ودخل اليمن وادعى فيه المهدية أو ما يشاكلها فلم يتم له ذلك ودخل العراق وأقام مدة ببغداد وانتسب للشيخ عبد القادر وأخذ العهد على طريقه ودخل فى جملة أتباعه . ثم ذهب من هناك الى القسطنطينية وهو فى كل ذلك يصرح بما فى نفسه من الامارة ولا يكنى غير متهيب صولة سلطان ولا غيره ثم جاء من الروم الى طرابلس فى سفينة فى سنة ستين . ولقيته اذ ذاك بسراته (19) عند ضريح الشيخ زروق وقال لي اني قد أذن لي فى نصرة الدين واظهار الكلمة وأخبرني بذلك من لقيته من الصالحين ، وقد جئت الى هذا الشيخ أستأذنه فأنا أنتظر الاذن من قبله . وتركناه هناك الى أن بلغنا خبره أنه بلغ الى سواحل البحر الغربي وزار سيدي عبد السلام بن مشيش (20) وأقام بتلك البلاد مدة فلم يتم له ما أراد وكان أظهر أمره أيضا قبل ذلك بسنين عديدة بالسوس الأقصى فلم يتم له الأمر ثم كر راجعا من جبال غمارة الى القليعة وأقام بها مدة ثم سار من هناك الى أن خرج الى فقيق

---

18 مكرر : عبد السلام بن ابراهيم المالكي اللقاني المصري : توفي سنة 1078 هـ/1667 م .

19 ـ **مسراته** : مدينة بليبيا ، على ساحل البحر وبها قبر أبي العباس أحمد زروق البرنسي الفاسي ، أستاذ الشيخ الخروبي .

20 ـ **عبد السلام بن مشيش** = هو الشيخ أبو محمد .. بن أبي بكر بن علي .. أحد اقطاب التصوف تخرج عليه أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية .
توفي بن مشيش حوالى 625 هـ . (راجع : (1) عبد السلام بن الطيب .. القادري (1058 ـ 1110) منظومة « الاشراف على نسب الأقطاب الأربعة الأشراف » طبعة فاس 1308 هـ .

Scanned by CamScanner

وأقام بها مدة ولقيته هناك أوائل سنة أربع وستين (1064) فطلب منا المساعدة على ما يحاوله فلم يصادف عندنا ما يحب وأظهرنا له جلية أمرنا وانا لسنا ممن يتعرض لما ليس من شأنه ولا ممن له قدرة على أقل ما يحاوله . فلما تحقق ذلك منا أظهر التأسف والتلهف على ما مضى من عمره وسعيه فى غير طائل وقال : اني جلت جوانب الأرض فلم أجد من يبكي للاسلام بالعين التي أبكي بها فوالله ما كذبت ولا كذبت الا أني عسى أن أكون قد غلطت فى فهم ما أخبرت به فاني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي أنت عالم وغني وسلطان . فأما العلم فقد حصلت عليه ما قسم لي . وأما الغنى فاني لا أعدم الخمسمائة دينار أو ما يقاربها متى طلبتها . وأما السلطنة فلعلها سلطنة الآخرة وكنت أظنها فى الدنيا وأنا الآن تائب مما أنا فيه ، عالم أن الله لم يرد فى ذلك فنيتي الرجوع الى الحج والزيارة . ثم أستوطن جوار الشيخ عبد القادر الجيلاني أعبد الله حتى أموت . ففارقناه على هذه النية . فذهب من هناك الى تفورارن ومات بها ، وكان رحمه الله ينتحل السيمياء والكيمياء ويحسن الأوفاق ويخبر عن نفسه ببعض ذلك . ولو استقصينا أخباره لطال الكلام . ومن محاسنه انه لما دخل الى طرابلس قال له عثمان باشا اقترح علي فقال له : اني أريد أن تحرر كل من فى عمالتك من الاشراف فلا يعطون شيئا مما يعطيه غيرهم وتحرر جيران الشيخ زروق . فعد فى عمالته من الأشراف فوجد نحوا من خمسمائة دار فحررت كلها ولم يؤخذ منها شيء الى الآن ولعمري انها فعلة حسنة أنشد عند تأسفه على ما مضى من تطوافه فى البلاد على غير طائل :

مشيناها خطا كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطا مشاها
وارزاق لنا متفرقات ... فمن لم تأته منا أتاها

وأنشدني أيضا :

فسد الزمان كما ترى من حاله ... وكذا عوائد آخر الأزمان

Scanned by CamScanner

وأولى من هذا قول الآخر :

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان

وبالجملة فهذا الرجل كان أعجوبة زمانه ونادرة وقته سخاء وذكاء ودهاء ونجدة وعلومة وعبادة ولولا ما ابتلاه الله به من وسوسة الامارة التي توسوس فى دماغه ، فلا تدعه يسكن فى مكان ولا يقر له معها فى أرض قرار ، نسأل الله الغفور العافية والمعافاة الدائمة من كل ما يقطع عنه بمنه وكرمه .

القليعة

ثم ارتحلنا من قرية «والن» ونزلنا ضحى بينها وبين القليعة ــ تصغير قلعة ــ (20 مكرر) وهي قرية حصينة من حجر صلد فى سفح جبل منقطع عنه ، وبها آبار كثيرة طيبة الماء ونخيل ليس بكثير وهي فى طاعة سلطان واركلا وبها عامله وهمته على قدر همة مستعمله وقد أخبرني من رآه أسود حافي الرجل عاري الرأس فى ملاءة وسخة ومع ذلك يتحاكم اليه أهل قريته ويذعنون لأمره .

وبهذه القرية كان ينزل الشيخ الحاج الابر سيدي أبو حفص بن الولي الصالح سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة ويعرف عند أهل بلده بسيدي الشيخ (21) وأولاده حتى الآن يدعون أولاد سيدي الشيخ . وله حرمة وصيت فى هذه النواحي كلها يمها وصحرائها خصوصا ولده هذا سيدي أبو حفص فله هدى وسمت حسن وتنسك

---

20 مكرر : القليعة : تصغير قلعة ، حصن اسسه زناتة قديما ، عندما استقر الخوارج بسدراتة بعدما غادروا تاهرت (سنة 908 هـ) ، ثم استولى عليه الشعانبة سنة 1560.

21 ــ **اولاد سيدي الشيخ** : قبيلة جزائرية انتشر أبناؤها فى الجنوب الغربي من الوطن ، اكثرهم رحل وقليلهم مقيمون مستقرون ، ينتمون الى الشيخ عبد القادر بن محمد المتوفي سنة 1023 ــ 1024 /=1615 ، ودفن بالأبيض وقبته تحيط بها مجموعة من « القصور » واشتهرت هذه المجموعة من القبائل بحمل نار الثورة على الفرنسيين فى مارس 1864 الى 1884 .

Scanned by CamScanner

مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج فقد أفنى غالب عمره في التردد الى الحرمين الشريفين وربما رجع من الطريق قبل أن يصل ولم يزل ذلك دأبه الى أن توفي في سنة احدى وسبعين وألف (=1660) ودفن عند والده بمقبرتهم المعروفة بالأبيض قرب بوسمغون ، وقد حججنا معه سنة تسع وخمسين (1059/1649 م) وقفلنا معه الى توزر وزرناه مرارا عديدة ولقيناه بعد ذلك في حجة سنة خمس وستين (1065/1654) ونحن قافلون ، وتؤثر عنه كرامات وله أتباع ، وكان يسير غالبا للحجاز بنسائه وأولاده ويعامله الناس كثيرا الأمراء فمن دونهم ويتبركون به .

ثم ارتحلنا من القليعة وسرنا نصف يوم والجبل عن يميننا في يوم عاصف الى أن صعدناه عشاء وبتنا ، وفي الغد سلكنا في أرض وعرة حرشة الا انا وجدنا بها الكلأ للابل فحمدناها والطريق في غالبها يسلك في شعاب تنساب بين فرافر أسياب الأرقم فمن رآها من بعيد ظنها أرضا بيضاء يتصل بعضها ببعض وهي تتقطع تقطع السحاب .

زرارة

وفي اليوم الرابع جئنا الى ماء يقال له « زرارة » وهي بئر طويلة جدا متوحدة في بسيط من الأرض بين جبلين أحدهما من رمل وماؤها حلو جدا وفيه يقول أعراب ذلك البلد « ما أحلى ماءك وما أبعده يازرارة » .

فلما تجاوزنا حصلت للركب روعة بخبر أخبروه ان بازائهم قوم من العرب يريدون الاغارة ، فشهر الناس للقتال وأخرجوا عدتهم وهيئوا آلة حربهم فلم يلقوا كيدا وتبين بعد ذلك أن الخبر لا أصل له .

الجديد

وبات الحجاج في تلك الليلة على ماء يقال له « الجديد » وفي ثاني يوم منه وهو سادس يوم من رحيلنا من القليعة نزلنا على ماء يقال له

Scanned by CamScanner

« زالت دغير » ضحى يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادي الأولى (12/29) وهو بئر واحد غزير الماء فى بسيط من الأرض بين جبلين لا يخلو من العمارة فى الغالب ممن يجاوره من الأعراب . وغالبهم أهل عافية لا اذاية فيهم .

ثم ارتحلنا منها وأخذ الناس ماء أربع ليال . ومررنا فى طريق بأسفل واديها وفيه تل فى بسيط من الأرض به رسم مسجد وقبور وكأنه مزارة فصلينا به الظهر وزرناه بحسن اعتقاد لأنه محل تعبد فى أرض قل ما يذكر فيها اسم الله كثيرا وقد سألنا الدليل عن ذلك الموضع فأخبرنا أنه مصلى سيدي الحاج أبي حفص ولرجل من الصالحين يسمى الحاج يوسف وعن يمينه فى شعبة من تلك الشعاب ماء يقال له « أبو الرغاوي » .

ثم بتنا تلك الليلة أسفل من العقبة التي يطلع منها الى الحماد ولم يسر الركب فى ذلك اليوم الا نصف مرحلة لأنهم وجدوا الكلأ كثيرا فظلت الابل راتعة وصحابتها أمامها هاجعة وتسوقنا هناك فئة قليلة من الأعراب بغنم قليلة تخاطفتها الحجاج بأعلى ثمن لطول عهدهم باللحم .

ثم ارتحلنا غدا وطلعنا الحماذة وتراخى الناس فى السير أيضا لأجل الكلأ تراخيا أورثهم زيادة رحلة ألجأتهم الى سير جاد مخافة العطش اذ لا ماء من المورد المذكور الى «وارقلا» .

ثم بتنا تلك الليلة وقد قل الكلأ وأنذر قلته بالطلوع الى سطح الحماد الكبير الذى قل مثله فى بلاد المغرب .

ثم ارتحلنا غدا وطلعنا الى السطح المذكور وهي أرض جرداء حرشاء لا علم فيها الا المراير التي شقت على سلوكها المزاير وأوجام على الطريق مبنية هي لمتأملها عن الدليل مغنية . ثم بتنا تلك الليلة وهي ثالثة الليالي بوادي معشوشب انتفعت فيه الابل ، ونزلناه عند العصر .

Scanned by CamScanner

ثم ارتحلنا غدا في يوم عبوس قمطرير ، ذي قتام وزمهرير ، وسلكنا في مهمة صغيرة أرجاؤه كان لون أرضه سماؤه قد سخرت فيه الرياح للرمال تحملها أمامها كالجبال حتى لا يكاد الرجل أن يعرف مسايره ولا يسمع مسامره . وسايرتنا ذلك اليوم حتى الليل والرمال أمامنا كالسيل ولقينا من ذلك ما نقص علينا عافية تلك البلاد واستسهلنا معه ذهاب الطريف والتلاد — أستغفر الله — بل العافية لا يعادلها شيء — اللهم عافيتك أوسع . ثم بتنا تلك الليلة وقد كلت الأبدان وتشابهت الوان الأحرار والعبدان وهي الليلة الرابعة ، لأنواع التعب جامعة . كأنها رابعة ليالي القادسية (22) أو احدى الليالي النابغية .

ثم ارتحلنا غدا وسلكنا في أرض كأنها المحشر ومحل المنشر الا انها ليست بيضاء ولا نقية بل سوداء شقية لا تسمع فيها الا همسا ولا يسلك الدليل فيها الا حرسا لم تضع الابل رؤوسها الى الأرض كأنها سائرة ليوم العرض في أرض مزقت من حروشتها النعال وآلمت اخفاق الابل وحوافر البغال ، فلففنا على الأرجل الخرق والرقاع كأننا في «غزوة ذات الرقاع» ، تتعارج في أرض صفصف قاع ، هي فيما رأينا شر البقاع ، وقد فرغ من عند الناس الطعام والشراب وتعوضوا منهما الرمل والسراب وكثير من الناس يظنون أنهم يحصلون تلك الليلة وارقلا فكان الأمر على خلاف ما أملوه وفوق الحساب الذي علموه . ثم بتنا تلك الليلة أيضا في أرض كالتي قبلها ونراها في الجوع والعطش أعظم منها لا مثلها .

ثم ارتحلنا غدا وهبطنا من الكرب ، بعد شدة الكرب ، قبل الظهر بقليل ، والجسم من كل منا عليل ، وأنشدت لبعض الاخوان في ذلك اليوم :

---

22 — **القادسية** : موضع على بعض كيلومترات شرقي الكوفة ، وقعت به معركة بين المسلمين والفرس سنة 637 وكان النصر للمسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص الذي أسس الكوفة ، ومات سعد سنة 670 م .

Scanned by CamScanner

ثم ارتحلنا غدا فى يوم عبوس قمطرير ، ذي قتام وزمهرير ، وسلكنا فى مهمة صغيرة أرجاؤه كان لون أرضه سماؤه قد سخرت فيه الرياح للرمال تحملها أمامها كالجبال حتى لا يكاد الرجل أن يعرف مسايرة ولا يسمع مسامره . وسايرتنا ذلك اليوم حتى الليل والرمال أمامنا كالسيل ولقينا من ذلك ما نقص علينا عافية تلك البلاد واستسهلنا معه ذهاب الطريف والتلاد — أستغفر الله — بل العافية لا يعادلها شيء — اللهم عافيتك أوسع . ثم بتنا تلك الليلة وقد كلت الأبدان وتشابهت ألوان الأحرار والعبدان وهي الليلة الرابعة ، لأنواع التعب جامعة . كأنها رابعة ليالي القادسية (22) أو احدى الليالي النابغية .

ثم ارتحلنا غدا وسلكنا فى أرض كأنها المحشر ومحل المنسر الا أنها ليست بيضاء ولا نقية بل سوداء شقية لا تسمع فيها الا همسا ولا يسلك الدليل فيها الا حرسا لم تضع الابل رؤوسها الى الأرض كأنها سائرة ليوم العرض فى أرض مزقت من حروشتها النعال وآلمت اخفاق الابل وحوافر البغال ، فلففنا على الأرجل الخرق والرقاع كأننا فى «غزوة ذات الرقاع» ، تتعارج فى أرض صفصف قاع ، هي فيما رأينا شر البقاع ، وقد فرغ من عند الناس الطعام والشراب وتعوضوا منهما الرمل والسراب وكثير من الناس يظنون أنهم يحصلون تلك الليلة وارقلا فكان الأمر على خلاف ما أملوه وفوق الحساب الذي علموه . ثم بتنا تلك الليلة أيضا فى أرض كالتي قبلها ونراها فى الجوع والعطش أعظم منها لا مثلها .

ثم ارتحلنا غدا وهبطنا من الكرب ، بعد شدة الكرب ، قبل الظهر بقليل ، والجسم من كل منا عليل ، وأنشدت لبعض الاخوان فى ذلك اليوم :

---

22 — **القادسية** : موضع على بعض كيلومترات شرقي الكوفة ، وقعت به معركة بين المسلمين والفرس سنة 637 وكان النصر للمسلمين بقيادة سعد بن ابي وقاص الذي اسس الكوفة ، ومات سعد سنة 670 م .

Scanned by CamScanner

لئن طال الحماد فقـد حمـدنا بفضـل الله عاقبـة الحمـاد
سنبلـغ سالمين وفضـل ربي علينـا كـل يـوم فى ازديـاد
سيحسـن فى التناهي دون ريب كمـا قـد كان احسن فى المباد

وتراءى لنا نخل وارقلا كأنه سحابة وطبا أو ناقة عجفا ، يتقطع السراب دونه وكثير من الناس لا يفهمونه .

وارقلا

فدخلنا وارقلا (23) قبل غروب الشمس ونزلنا بباب المدينة المسمى بباب السلطان وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولنا دخول قافلة فى أعـراب « الأربـاع » قدمت بسمـن كثـير وغنـم وابـل وزرع . اشترى الناس منهم ما احتاجوا اليه بأرخص ثمن ، وقـدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو أكثر فتنعم الناس فى اللحم والتمر والسمن . واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم .

وكان دخولنا لمدينة وارقلا عشية الخميس وأقمنا يوم الجمعة واليومين اللذين بعده . ودخلنا المدينة لحضور صلاة الجمعة . وصـلينا بجامع

---

23 ـ **وارقلة** : ويسميها ابن خلدون : واركلا ، وواركلة وواركلى ، وقيل تسمى وارقلان جمع وارقلة نسبة الى بني وارقلة الذين قدموا ، أيام الفتح الاسلامي من الشمال والغرب صحبة مغراوة ثم استولوا على المدينة .

وفى أوائل القرن 4 هـ = 10 م ـ بعد نكبة الرستوميين بتاهرت حل بوارقلة عدد من الخوارج الى القرن 12 م حيث التحقوا بمزاب .

وحكم المدينة بعد ذلك بنو توجين وفى أيام بني هـلال تعددت الاضطرابات وخربت المدينة ثم اعيد بناؤها قرب المكان الأول ، ثم تعرضت وارقلة للحروب بين الموحدين وبني غانية فساءت أحوالها .

وفى القرن 14 م وقعت تحت حكم ابن مزني ثم تحت امر بني أبي غبول واحتلها صالح رايس سنة 1552/959 وزادت أحوالها اضطرابا فى القرن 17 م وبقيت تحت حكم محلي الى منتصف القرن 19 م .

راجـع :

Léon L'Africain : *Description de l'Afrique II.* 438-439.
Colomieu (comt V.) : *Voyage dans le Sahara Algérien* (collection Tour du monde, 1863).
Lewicki (T.) : *L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII et au IXème siècle.* Cahiers d'Etudes africaines, 8, 1962.
Blanchet (P.) : *L'Oasis de Ouargla,* Annales de Géographie, 1900.

Scanned by CamScanner

المالكية وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحـن والخطـأ والتحريف والتقديم والتأخير مع ادغام أكثر حروفها حتى كأنها هسهسة فكنت أتخوف أن لا تصح لنا معه جمعة ان كانت صلاته كخطبته فنجى الله فأحسن فى قراءة الفاتحة بما ظننا أن صلاتنا معه مجزئة . ودعا فى خطبته للامام المهدي ثم السلطان الأعظم الخاقان الأفخم محمد بن ابراهيم بن مراد (24) ثم لسلطان بلاده مولاي علاهم (25) .

فلما فرغ من الصلاة بعثت ببعض أصحابنا ليسأله عن المهدى المدعو له فى الخطبة أهو المنتظر أم أحد المنتحلين ذلك ممن مضى ؟ فسأله عن ذلك فاذا هو لا يفقه شيئا من ذلك وقال : أظنه النبي صلى الله عليه وسلم فعلمت أنه وجد الخطبة مكتوبة فى صحيفة عنده وحفظها كما وجدها الا أنه لم يحرر حفظها ونقلها ولعلها من خطب بعض من كان أيام المهدي ابن تومرت (26) زاد فيها هو الدعاء للامامين اللذين فى عصره .

ثم بعد الصلاة طلعنا للمأذنة وهي مشرفة على المدينة كلها فنظرنا الى أطرافها ووسطها وكنا نستقلها قبل ذلك فاذا هي عظيمة لها سبعة أبواب وهي فى وسط خط من النخل ومساحة المدينة بالتخمين نحو نصف فرسخ فى مثله محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها لا يصل أحد الى سورها الا من ناحية الأبواب .

وقد خلا كثير منها بسبب فتنة وقعت قبل قدومنا بنحو من شهرين وذلك أن طائفة منها هم بيضة البلد وعصبة أهلها اتهمهم الأمير بالقيام عليه فاتفق معه رعيته على قتلهم وأن لا يفلتوا أحـدا منهم كبـيرا أو

---

24 – **ابراهيم مراد** : محمد الرابع بن ابراهيم بن مراد – الخايفة العثماني الذي حكم من 1648 الى 1687 ، واحتل وارقلة حاكم الجزائر صالح رايس سنة 1552 .

25 – والي المدينة آنذاك .

26 – **ابن تومرت (المهدي)** ولد بالسوس ما بين 470 و 480 هـ /= 1077 – 1087 سافر الى المشرق طلبا للعلم متنقلا بين عواصمه مدة ثم عاد الى المغرب الأقصى وتزعم الحركة التي قضت على المرابطين ، توفي ابن تومرت حوالى 524 هـ / = 1130 م .

Scanned by CamScanner

صغيرا . فأمر بسد أبواب المدينة وتقدم الى من خارج البلد من الأعراب أن يرتصدوا خارج السور بمن أفلت من البلد قتلوه . فقام عليهم بالسيف بغتة هو ومن معه فقتل منهم مقتلة عظيمة نحوا من المائتين ولم يسلم منهم الا من تسور جدار السور ولم يلقه الأعراب أو افتدى منهم . وهي فعلة شنيعة عدت من هفوات ذلك الأمير وأسقط ذلك منزلته عند كثير من الناس مع أنه معروف قبل ذلك بحسن السيرة . وأورث ذلك شحناء بينه وبين اخوانه أولاد الشيخ أحمد بن جلاب (27) فان أمه أخت الشيخ أحمد وكانوا قبل شيعة له وبهم تمكن من البلد .

ثم لقيت امام المسجد بعد ذلك وأدخلني الى منزله وأحضر لي ما عنده من الكتب فاذا عنده أجزاء من الموطأ ومن البخاري ومن الأكمل وبعض شراح المختصر والرسالة (28) غالبها لم يكمل وحبسني لطعام صنعه حتى حانت صلاة المغرب ، فدخلت المسجد بازاء داره لصلاة المغرب وهو مسجد متقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفى جوانبه معدة للوضوء وقضاء الحاجة ومكان معد لتسخين الماء فأعجبني غاية .

---

27 - **بنو جلاب** : «سلاطين» تقرت . هم من بقايا بني مرين حكموا تقرت ونواحيها من القرن 15 الى القرن 19 .

ومؤسس هذه الامارة هو الحاج سليمان المريني الجلابي وقد حكم من 1414 الى 1431 ، وخلفه ابنه علي ثم حفيده أحمد .

وقد غزا صالح رايس تقرت سنة 1552 أيام أحمد بن سليمان كما حاصر تقرت صالح باي أيام الأمير فرحات ، وحكمت تقرت أميرات أيضا منهن عيشوش ارملة الامير عامر وذلك ما بين 1833 و 1840 ، وآخر أمير جلابي هو سلمان بن علي الكبير (1852 - 1854) .

راجع :

Bargès : *Tableau historique de la dynastie des Beni Djellab, Sultans de Touggourt*, Paris 1858. 11 p.

Cherbonneau (A.) : *Précis historique de la dynastie des Banou Djellab, princes de Touggourt*. Paris S. D., 30p.

Magali-Boisnard : *Sultans de Touggourt*. Paris 1933. 132 p.

28 - الموطأ للامام مالك ، والأكمل أي أكمل الاكمل لأبي عبد الله الابي والمختصر لخليل بن اسحاق والرسالة لابي زيد القيرواني .

Scanned by CamScanner

فلما دخل المؤذن كبر فى آذانه أربعا أول الآذان وأربعا آخره فأنكرت ذلك فى نفسي اذ القوم فى ظني مالكية (29) . فلما دخل الناس للصلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيممون . فقلت : عجبا ما أولئك كلهم من ذوي الأعذار . ثم وقع فى نفسي أنهم مزابة روافض . ثم سألنا بعد ذلك فاذا المسجد مسجدهم يصلون فيه وهو معروف بهم وهم طائفة من الأباضة من أتباع عبد الله بن أباض (30) يوافقون المعتزلة فى أكثر عقائدهم كنفي الرؤية والقول بخلق القرآن ، ويبغضون بعض الصحابة وهم كثيرون فى تلك البلدة وأصل مادتهم من جبال مزاب ، فانهم كلهم روافض (31) وبها علماؤهم وهي — على من هو على معتقدهم — معظمة .

غريبة : وهؤلاء الروافض يسمون أشياخهم بعم فلان . فيقولون : « نص على هذه المسألة عمي داوود أو عمي ابراهيم » .

غريبة أخرى : أخبرني من أثق به من أهل ريغ (32) من أشياخها انه مر بهم رجل قاصد المزاب فسأله من هو ؟ فقال من أهل البصرة جئت زائرا لبلاد مزاب فقبح الله الزائر والمزور ورده مأزورا غير مأجور .

وسألت بعض الناس عن عدم انكار والي البلد عن هذه الطائفة مع انه ليس على معتقدهم فأخبرني أنهم عصبته فى حروب تقع بينه وبين أخواله وأعرابهم فلا يقدر أن ينكر عليهم ذلك وهذا كله من رقة الديانة وخيانة الأمانة .

---

29 — يكبر المالكية مرتين فقط .

30 — **ابن أباض** (عبد الله) المري التميمي مؤسس فرقة تحمل اسمه ، وهو من رجال النصف الثاني من القرن الأول الهجري وأوائل الثاني ، ظهر فى بداية الأمر فى حضرموت واحتل صنعاء ..

31 — فرقة من الشيعة الغلاة، قيل سموا كذلك لأنهم رفضوا رأي الصحابة فى مبايعة أبي بكر وعمر ..

32 — **وادي ريغ :**

Scanned by CamScanner

ولما كان آخر أيام الاقامة سألت صاحبنا امام المسجد هل فى البلد شيء من خزائن الكتب فأخبرني أن عند الأمير خزانة من الكتب وانه لا يمنع من أراد الدخول اليها . فذهبت معه اليه وأدخلنا ورحب بنا وأخبره صاحبنا بما أريد فأدخلني الى كتبه ، فاذا عنده نحو أربعين سفرا من جملتها « التوضيح » والتتائي وبهرام وحواشي على الصغرى (33) ، وأخرج لنا طعاما وسأل عن مسائل فقهية وله بعض الالمام بها وجرى فى الكلام معه ذكر وتعارض الأصل والغالب . فطلب مني أن أكتب له فى ذلك شيئا فكتبت له بعد الخروج من عنده ما حضرني من كلام العلماء فى ذلك وأوردت له بعض الأسئلة وحضرني عند الكتابة بيتان فى مدح هذا الأمير لما شاهدت من حسن خلقه ولين جانبه وهما :

فان ولاة الأمر فى كل بلدة كثيرون لكن الأمير علاهم
علاهم «علاهم» اذا تحلوا بحلية من العدل والممدوح رقم حلاهم

وبعثناها مع صاحبنا امام المسجد وهذا الامام يدعى عند أهل بلده بياسيدي وأخوه سيد خير وهما معروفان بأولاد الفقيه منصور وهما أقرب من رأيت فى هذه المدينة بسيرة الطلبة وما أظن أحدا منهما يحسن بابا من أبواب أي علم .

ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم

ولأهل هذه البلدة دراهم يتعاملون بها يكثر فيها النحاس أربعة وعشرون فى ربع ريال . وقد أضاف أهل المدينة الركب أربع ليالي ضيافة لا بأس بها .

---

33 ـ **التوضيح** : عنوان كتب عديدة ، لعله يقصد به هنا التوضيح لخليل ابن اسحاق فى مختصر بن الحاجب ـ التتائي (شمس الدين محمد بن ابراهيم) شارح مختصر خليل ـ بهرام (بن عبد الله بن عبد العزيز) قاضى القضاة بمصر .
الصغرى (العقيدة) للسنوسي .

Scanned by CamScanner

بعض العوائد

وفي باب المدينة التي نزلنا من قبله خرق كثيرة من صوف وكتان وأكبرها صحيحة لا قطع فيها يصلح للانتفاع وليس مثلها مما يرمى به في العادة وتعجبنا من كثرتها مع صحتها ، ولا نعلم السبب في عدم أخذها وتركهم الانتفاع بها . وهي لو جمعت لكانت أحمالا . وسمعنا هناك أنها ثياب الموتى وأن من مات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت ولا تمس ولا نعلم صحة ذلك .. والله أعلم .

ومن غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الآبار فيحفرون بيرا نحوا من خمسين قامة ثم يصلون الى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه فاذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع كذلك بسرعة الى فم البير ويصير عينا .

فان لم يتدارك الحافر بالجذف أغرقه الماء . ومتى احتاجت العيون الى الكنس حصلت لمتعاطي كنسها مشقة كثيرة وربما تركوها بلا كنس للمشقة فتندثر وقد أخبرني من أصحابنا من عاين كنسهم للعيون بأمر غريب . وكذلك عيون أهل وادي ريغ .

مقوسا

ثم ارتحلنا من وارقلا يوم الاثنين (1663/1/8) ونزلنا ببلدة قريبة منها على نصف مرحلة تسمى مقوسا وهم من طاعة وادي ريغ لا من طاعة وارقلا فلما نزلنا منعوا الحجاج من الدخول وأتهموهم انهم اتفقوا مع سلطان وارقلا على أن يأتي أصحابه في وسط الحجاج كي يدخلوا الباب خديعة . وزعموا أنه اتفق معهم على أن يأخذ هو الأموال ويأخذ المغاربة البلد يسكنونه . وهذا من قلة عقولهم وبلههم كيف يتوهمون ان ناسا تركوا أهلهم وأموالهم وديارهم ابتغاء وجه الله يرضون بسكنى هذه البلاد التي لا يسكنها الا من ضاقت عليه البلاد .

Scanned by CamScanner

وبات أهل البلد يحرسون تلك الليلة وهم فى أشد ما يكون من الحقد على أهل وارقلا ينتظرون قدوم العساكر من أميرهم المريغي فيزحفون اليها معتقدين أن أموالهم ودماءهم حلال وأنهم كفار بسبب الفعلة المتقدمة. وقد سألت البعض منهم هل يذهب أحد منكم هذا العام للحج فقال لي من ذا الذي يذهب هذه السنة للحج ويدع الجهاد فى باب داره فلا تظن أن أحدا من أهل البلد يشتغل بشيء هذا العام الا بالجهاد . فاستغربت ذلك كثيرا . وسبب توهمهم المتقدم فى الحجاج أن بعض صعاليك الحجاج ممن قصده التمعش جلسوا عند سلطان وارقلا وخدموا عنده وأعطاهم السلاح فبلغهم ذلك فظنوا أن الركب كلهم متفقون معه على ذلك .

ثم ان ارتحلنا من هناك قاصدين وادي ريغ فى أرض ذات رمال لا يهتدى فيها الا من مارسها كثيرا . وفى اليوم الثالث منها أصبحت علينا ريح باردة فى مكان كثير الرمل وجاءتنا من أمام حتى لا يكاد الرجل يرى من بجنبه ودامت علينا الى الليل ولقينا منها شدة وهي احدى الأيام البهم . وفى الغد مررنا ببلدة يقال لها «اقدق» وهي أول بلد وادي ريغ .

تماسن

ورحلنا الى بلدة تماسن وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل .. وأميرها ابن عم أمراء تقرت وهو كالمستقل فى بلده وأجزل ضيافة الحجاج ، وفى مسجدهم صومعة وثيقة البناء طويلة جدا! فيها نحو من مائة درجة على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي وتاريخ بنائها سنة سبع عشرة وثمانمائة .

Scanned by CamScanner

تقـرت

ثم ارتحلنا منها ونزلنا تقرت(34) وهي قاعدة وادي ريغ ومسكر أمرائها أولاد جلاب ، وكان نزولنا بها يوم السبت الرابع عشر من جمادى الثانية وأول من لقينا بعد النزول من طلبتها سيدي محمد بن عبد الكريم التواتي ولد عالم توات فى زمانه سيدي عبد الكريم (35) قاضي توات وبلده بتمنطيط .

ثم خرج ولده هذا بعدما تفقه وبقي بوارقلا أعواما ثم انتقل منها الى تقرت وهو رجل دمث الأخلاق طيب الأعراق قد شد طرفا من الفقه والنحو وله بعض الخبرة بعلم العروض . وقد أجزل الضيافة جهده وخرق اجماع متفقهة البلد سواه ، وسألني عن قوله عليه السلام بئس الميت أبو امامة لليهود والمنافقين فانهم قالوا لو كان محمد نبيا مامات صاحبه . وظن متفقهة البلد أنه أمامة الباهلي . فكتبت لهم فى معنى ذلك وبينت لهم أنه أبو أمامة أسعد بن زرارة وأن أبا أمامة الباهلي انما توفي بعد أيام النبوة بأزمان كثيرة .

---

34 ـ **تقرت** : عاصمة وادي ريغ بين ميزاب غربا ووادي سوف شرقا يختلط تاريخها بتاريخ قبيلة ريغة سنجة وبني افرن وبالحروب بين ابن غنية والموحدين ، وعرفت تقرت حكم بني مزني وحكم بني عبيد الله وبني جلاب وسطوة الأتراك منذ صالح رايس الى أن دخلها الفرنسيون فى 5 ديسمبر 1844 .

35 ـ **محمد بن عبد الكريم** (المغيلي نسبة الى قبيلة مغيلة بقرب تلمسان) فقيه ومفكر جزائري .
ولد بتلمسان ، فى منتصف القرن 9 هـ ، وبعد دراساته رحل الى الصحراء ونزل بتوات ، وكان بهذه الواحات الشهيرة يهود استولوا على مصادر التجارة والمال حتى طغى نفوذهم فأصبح الحكام صنائع لهم .
فكتب المغيلي عدة رسائل فى أمرهم ودعا لمحاربتهم ، ثم ارتحل المغيلى الى كانوا ومن هناك الى كاغو حيث اتصل بسلطان البلاد الحاج محمد اسقيا وذلك سنة 1502 .
ثم عاد المغيلي الى توات بعد أن قتل اليهود ابنه عبد الجبار ومكث بتوات الى أن مات حوالي 909/=1504 .
وترك المغيلي نحو أربعة عشر مؤلفا معظمها فى الفقه .
راجع أخباره فى نيل الابتهاج لأحمد بابا ، والبستان لابن مريم .
وكذلك :
Bargès (l'Abbé) complément de l'histoire des Beni Zeinyan, rois de Tlemcen, p. 389.

Scanned by CamScanner

ثم خرج بعد مفتي البلد مع سيدي محمد أخي الأمير وسيدي محمد ابن ابراهيم تلميذ سيدي على الأنصارى وسألوا عن مسائل كثيرة .

وفى الغد من يوم وصولنا الى تقرت بعثت الى سيدي أحمد أخي الأمير بأبيات أستعير منه الأبي واليعمري (36) وهي هذه :

يا سيدي اخجل بدر الدجا	حسنا وليث الغاب يوم الردى
يدعى ابا العباس يوم الوغى	وبابي بشر يوم الندى
له محاسن الخلال التي	احصاؤها يعجز من عددا
نمن بالأبي على مسلم	ثم أرده اليكم غدا
انظر فيه لفظة اشكلت	على فى بعض الذي اسندا
وابعث الينا سيرة اليعمري	أيضا فأنت خير من أسعدا
لا زلت تحيي دارس العلم فى	أزمنة قد قل بها الهدى
ابقاك ربي للعلا صاعدا	ومرشد فى فعله مرشدا

ولم يزالوا ـ مدة اقامتنا هناك ـ يترددون الينا ويسألون ، واستحسنوا قصائدي الوتريات وأخذ مني سيدي محمد بن ابراهيم الكراسة التي جمعت فى معاني « لو » الشرطية والكراسة التي سميتها « تنبيه ذوي الهمم العالية ، على الزهد فى الدنيا الفانية » ، وأعطاني مجموعا فيه عدة تآليف اغتبطت به كثيرا وقرأ على سيدي محمد بن عبد الكريم شرح منظومة أبي الفرج الأشبيلي (37) فى ألقاب الحديث وسألوني عن قتال أهل (وارقلا) هل يحل لهم أم لا . فقلت لهم انهم ليسوا من أهل طاعتكم ولا ولاية لكم عليهم فقالوا انه يجب علينا تغيير المنكر وهذا منكر . قلت نعم الا أن من شرط المنكر أن لا يؤدي الى

---

36 ـ **الأبي (ابو عبد الله)** صاحب كتاب « أكمل الأكمل» وهو تلخيص كتاب « الأكمل الأطول» تفسير القرآن لنجم الدين عمر بن محمد السمرقندي المتوفي سنة 537 هـ .
اليعموري (فتح الدين محمد بن محمد) المتوفي سنة 734 هـ ، وله كتاب « عيون الأثر فى فنون المغازي والشمائل والسير » .

37 ـ **أبو الفرج الاشبيلي** : لم نعثر على أخبار صحيحة تهم هذا الناظم .

Scanned by CamScanner

منكم أعظم منه ، فانكم لا تصلون الى ذلك الا بعد قتل مئين من الناس كثيرة ان وصلتهم •

وأمراء هذه البلدة وأولاد الشيخ أحمد بن جلاب وأسلافهم من بني مرين ووالدهم هذا كان من أمراء العدل على ما يحكى عنه ، وأولاده على سيرته لا يقدمون على أمر الا بعد سؤال متفقهتم وهم الذين أفتوهم بجواز قتال أهل وارقلا الا أنهم ليس عندهم من يعمل على قوله من الفقهاء ولو كان عندهم من يحملهم على الشريعة ويدلهم عليها لأقاموا الدين على وجهه • وعلى كل حال فهم أعدل من رأينا من الأمراء وليس عليهم أبهة الملك بل يخرج الأمير منهم وحده أو مع رجلين وهو عند أهله كواحد منهم فى جلوسه وكلامه يتوصل اليه كل أحد ، وأخوه سيدي أحمد يحسن طرفا من الفقه ويجالس الفقهاء وله أخلاق حسنة ونية صالحة بل جل أهل البلد من فقهاء وغيرهم لهم نيات صالحات وأخلاق حسنة عريون من التكبر والعجب وأشباه ذلك ، ولأمير البلد حكم نافذ فى أهل مملكته والاعراب الذين يردون عليه ، وقد ضاع لنا جملان ليلة رحيلنا ، فبلغ الخبر اليه فأخذ الذي جاء بطلب البشارة وحبسه وبعث الحرس حتى آتوا بالابل فجزاه الله خيرا • وأما دراهسهم فقراريط صغيرة اثنان وثلاثون منها فى ربع ريالة •

ثم ارتحلنا من تقرت يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادي الثانية (17 / 1) وسرنا قاصدين سف (38) فى بلاد ذات رمال كبيرة يضرب بها المثال فى كثرة الرمل . وكان من فضل الله علينا الذي عجزت الألسن عن شكره ، وحارت العقول عن كنه أمره أن مطرنا فى تقرت — بفضل الله ورحمته — بنوء الحاجوز مطرا لبدت الرمل حتى صارت كالتراب بل فاق التراب باللين والرطوبة فلا تغيس فيها الأقدام ولا تحملها الرياح فسرنا فيه على أنعم حال — ونحمد الله ونشكره لما شاهدنا من

38 — سف : بين توقرت وشط الجريد . عاصمته الواد .

Scanned by CamScanner

كثرة الرمل وعظمته وتتخيل وقوعنا فى حبائلها لولا المطر المذكور .
ومعونة فصل الشتاء فكيف بزمن الحرور ، وتتعجب ممن يستسهل
فيها المرور ، على مر السنين والدهور . وقطعنا تلك الرمال فى أربعة
أيام الا أنا لا نجد السير فيها الا فى اليوم الأخير الذي وصلنا فيه الى
سف وهي خط من النخيل مستعرض فى وسط الرمل قد غاب على
أكثره . وفيه بلاد عديدة وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض .
أخبرني أهل البلد أنهم اذا أرادوا غرس النخل بحثوا فى الأرض قليلا
حتى يصلون الى الماء فيغرسونها بحيث تكون أصولها فى الماء ثم يردون
عليها الرمل فلا تحتاج الى السقي أبدا ويعالجونها بعد ذلك بأبعار
الابل وغيرها فيضعونها فى أصولها ولولا ذلك لماتت . وكذلك يفعلون
بأنواع الخضر والبقول وسائر ما يغرسونه . وكثيرا ما يقتنون الكلاب
للصيد فان بلادهم ذات صيد كبير ، وجل معيشتهم منه ومن التمر ،
وتمرهم من أطيب تمار تلك البلاد .

وأقمنا بها يوما واحدا واشترينا بها ما نحتاج من ابل . وسكنى
أهل هذه البلاد فى زرايب من جريد النخل فاليها يأوون وبها يخزنون .

ثم ارتحلنا ونزلنا بموضع يقال له « العلندا » وأصابنا فيه مطر
وابل وأقمنا بسببه يوما على غير ماء لأن البلد كله رمل فلا يمسك ماء
فكان الماء سبب اقامة الناس وهم لا يجدونه للوضوء والشرب الا ما فى
القرب فعد للمراحل التي بعدها أو ما جمع فى الأوعية المطروحة خارج
الأخبية أو على أطرافها فيجتمع فيها ما سال منها ، وفى هذا الحال
قلت :

يا صاحبي هل علمت شيئا كثرته سبب الاقامه
والناس فى غاية احتياج له وقد طلبوا انعدامه
ولم نجده وقد سئمنا نزوله غاية السآمه

ثم ارتحلنا من هناك مرحلتين وفى الثالثة وصلنا الى ماء قريب من « السبخة » (39) وما وصلنا الى ذلك الماء ضحى حتى عطشنا وأقام الناس عليه يحفرون وفى احدى تلك المراحل سايرت بعض الأصحاب ضحى فى أرض مستوية الجوانب ، متقاربة المطالع من المغارب ، لا يكاد البصر يرى فيها أكثر من ميل من جهاتها الأربع (لا) تكاد السماء فيها على الأرض ترتفع . فأنشدت :

انظر بعينك هل ترى غير السماء فوق الثرى
والأرض من وشي الحيا لبست رداء أخضرا
والعيس بينهما كشهب الليل جدب فى السرى
والناس يتبعونها مثل المجرة من ورا

لطيفة : شاهدت من صنع الله فى ذلك اليوم خروج النبات من الأرض فى تلك الليلة بذلك المطر وظهرت على وجه الأرض خضرة ولم نعهد مثل ذلك فى غير هذه وانما يرى النبات فيها بعد المطر بأيام . ولما تعجبت

هذه وانما يرى النبات فيها بعد المطر بأيام . ولما تعجبت من ذلك أخبرني الأخ الشقيق سيدي عبد الرحمن أن سيدي عبد الرحمن الثعالبي ذكر فى تفسيره عند قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة (40) قال شاهدنا ذلك فى أرض نفزاوة فتحققنا صدق ذلك ولله القدرة الباهرة .

ثم ارتحلنا من ذلك الماء وبتنا على حد السبخة التي هي على حد قرى نفزاوة وأظن أنها سبخة سيدي أبو هلال التي لم ير مثلها فى سباخ الأرض كلها طولا وعرضا وكثرة ملح .

* * *

---

39 ـ **السبخة** : أرض ذات ملح ، وما لم يحرث ولم يعمر .

40 ـ **قرآن كريم** ، سورة الحج آية 63 .

Scanned by CamScanner

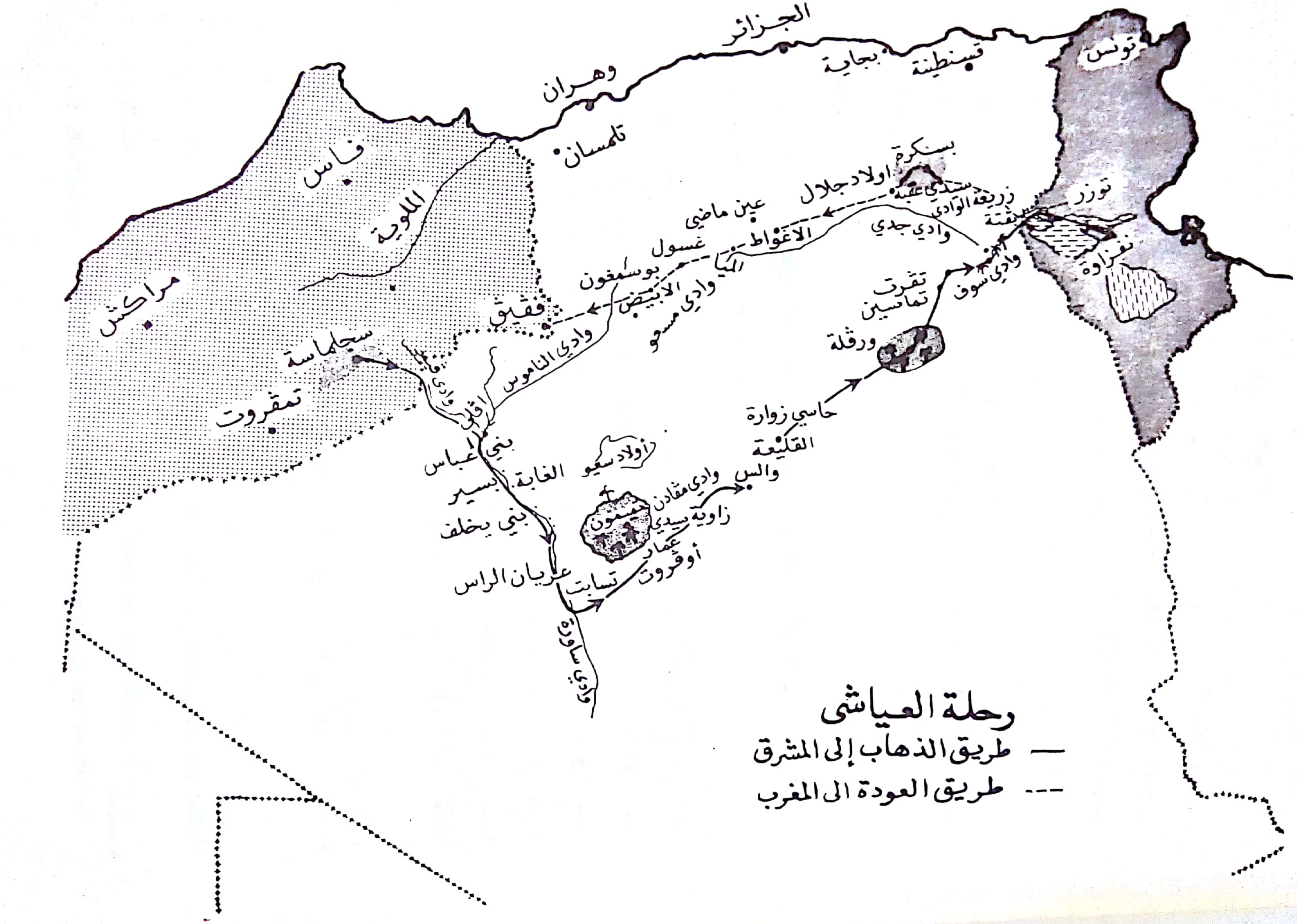

Scanned by CamScanner

II

طريق العودة

« .. ثم ارتحلنا من مدينة توزر يوم الأحد 25 شعبان (1074 = 14 مارس 1663) وبدأ الركب فى المرور بمدينة نفطة (41) بعدما كانوا عزموا على سلوك الطريق اليمنى على الحامة وهي المعهودة للأركاب لاتصال عمرانها ، وفى هذه السنة مررنا بنفطة وزرنا الشيخ أبا علي مرة أخرى . ومررنا ذلك اليوم ولم نبت الى حاسي السلطان ولقينا أهل نفطة قد بيتوا الجراد وقد بقيت فى البلاد بقية جوع . وكان بها جوع فى الزمن الماضي .

نفطـة

ونفطة مدينة كبيرة أيضا قريبة من توزر وفيها وادي مثل واديها ويقال ان خراجها مثل ثلثي خراج توزر .

ثم ارتحلنا من حاسي السلطان ولم نبت الى قرب الكلابية ثم وردناها ضحى يوم الثلاثاء بعدما داخ عنها الدليل وتحير الناس فلم يهتدوا اليها الا بمشقة ووجدناها مردومة ونزل الناس عليها وجهروها وأقاموا عليها بقية يومهم فى أرغد عيش على الماء والمرعى ، والله المعين . وبات الجراد بازاء الركب فى الكلابية وسرى اليه طائفة من الحجاج فأخذوا منه ما استعانوا به فى زادهم تلك المدة . وكان الجراد فى ابان ولادته بيوضا .

وارتحل الناس من الكلابية ونزلنا « الرفيق » وهي احساء متعددة وماؤها صاف وهو مثل الذي قبله .

---

41 ـ **نفطة** : عاصمة بلد الجريد ، وهي واحة كبيرة ، تضم توزر ونفطة والوديان والحامة . يقول كاريت : (Carette)

C'est la grande porte de communication entre les parties méridionales des deux Régences.

(Recherches sur la géographie et le commerce de l'Algérie méridionale, p. 92).

Scanned by CamScanner

زريبة حامد

ثم ارتحلنا ونزلنا قرب « الأعرج » وفى ذلك اليوم خرجنا الى أرض صحيحة وجئنا الى « زريبة حامد » ووجدنا عليها عرب نميلة وأولاد سيدي المبارك بن ناجي ولقينا هناك أخا الشريف المجذوب صاحبنا وهو أشبه الناس به وأخبرني بموته ـ رحمه الله ـ وهو من أفضل من رأيته من المجاذيب ـ وله حال قوي فيما أظن لقيته سنة أربع وستين وسنة خمس وستين فى ذلك البلد . وهو ينتمي الى سيدي محمد بن بوعلي البسكري رضي الله عنه ولقيت هناك أيضا صاحبنا سي عبد الله بن محمد ابن المبارك ومعه جماعة من اخوانه وبني عمه ، وكانوا يرتقبون قدومنا منذ أيام ، وفى ذلك اليوم يئسوا منا وراحوا آخر ذلك اليوم الى « الخنقة » وهي بلدهم . فلما رأوا أعلام الركب تخفق جاؤوا وباتوا معنا وأضافونا ضيافة حسنة وبعث الى والده وقدم صبحة وتبركنا به وسألوا عن مسائل من أمر دينهم . وهم أهل خير وبركة لهم رغبة فى العلم وتعلمه الا أنهم فى بلاد قل فيها أهل التحصيل وأبلغتهم سلام شيخنا أبي مهدي ـ رضي الله عنه ـ وكانت بينهم وبينه ألفة قديمة ومودة كبيرة حياة عمهم الأكبر سيدي التواتي بن ناجي وكان من العلماء العاملين . فلما توفي حصلت بينهم جفوة سببها منهم ولم يحتمل لهم ذلك وذاك أن شيخنا لما خرج من الجزائر وتقلب فى البلاد آوى أخيرا الى سيدي التواتي وقام بحقه وألف به وبقي معه الى أن طرق الوباء تلك الناحية فى حدود الستين والألف . وفى غالب من كان مع الشيخ التواتي وبقي معه الشيخ أبو مهدي صابرا محتسبا الى أن طعن الشيخ التواتي فقام أبو مهدي بأمره الى أن توفي ودفنه وفرغ من تجهيزه فجاء الى اخوانه الذين فى بلدهم بالخنقة وكانت له عليهم آلة ورأى أنه قد أمتن عليهم وأسدى اليهم معروفا بما فعله مع كبيرهم وأخيهم . فلما رأوه تنكروا له وتجافوا عنه خشية العدوى فيما زعموا .

Scanned by CamScanner

فأنف هو من ذلك وذهب مغاضبا لهم وترك كتبه هناك عندهم وقال لي لا أبعث اليها أبدا ألا أن يبعثوها من عند أنفسهم . وقد تعللوا أنهم لم يجدوا أمينا يبعثونها معه وقالوا لي لو مررت بنا لبعثناها معك . ولا عذر لهم فى ذلك .

ومن جملة ما سألونا عنه انا وجدناهم متحيرين فى أمرهم لطروق الوباء فى نواحيهم وتخوفوا أن يدهمهم فى بلدهم . وعزموا على الفرار منه ولو لم يطرق البلد فتوقفت فى ذلك اذ لم أر نصا وقلت لهم مقتضى من علل حرمة الفرار لما يؤدي اليه من ضياع المرضى وعدم القيام بأمرهم الذي هو واجب ان ذلك يجوز قبل وصول الوباء الى البلد . ومقتضى الخروج وقوفا مع ظاهر لفظ الحديث . ثم بعد ذلك رأيت الامام الحطاب (42) فى كتاب الظواهر جعله محل نظر ورجح الجواز . والله أعلم .

ثم ارتحلنا من ذلك المكان أول يوم من رمضان يوم السبت ومررنا بزريبة الوادي ضحى ولم نبت الى المنصف ، وهو نصف الطريق بين الزاب وسيدي عقبة . ووجدنا فى المنصف نزلتين لأولاد صولة قد نزلوه ذلك اليوم وكانوا أغاروا على ذلة لبعض الأشراف وأخذوهم . وفى الغد جئنا لبلد « سيدي عقبة » وتحققنا الوباء فيه وفى البلاد التي فى أطرافه وفى بسكرة . ولم ندخل لزيارته وبتنا بينه وبين بسكرة ولقينا فى ذلك اليوم نزلة الأشراف الذين أخذهم أولاد حولة رجالا ونساء راحلين وعليهم أثر الجوع باد وفتنتوا أكبادنا وهم قوم من الأشراف صح نسبهم واشتهر بين الحاضر والبادى من أهل تلك النواحي . وأخبرني بصحة نسبهم شيخنا أبو مهدي وهو عارف بأخبار البلد وأهلها وانما أزري بهم كونهم يرحلون وينزلون فى البادية .

---

42 ـ راجع الحجوي : تاريخ الفقه المالكي .

Scanned by CamScanner

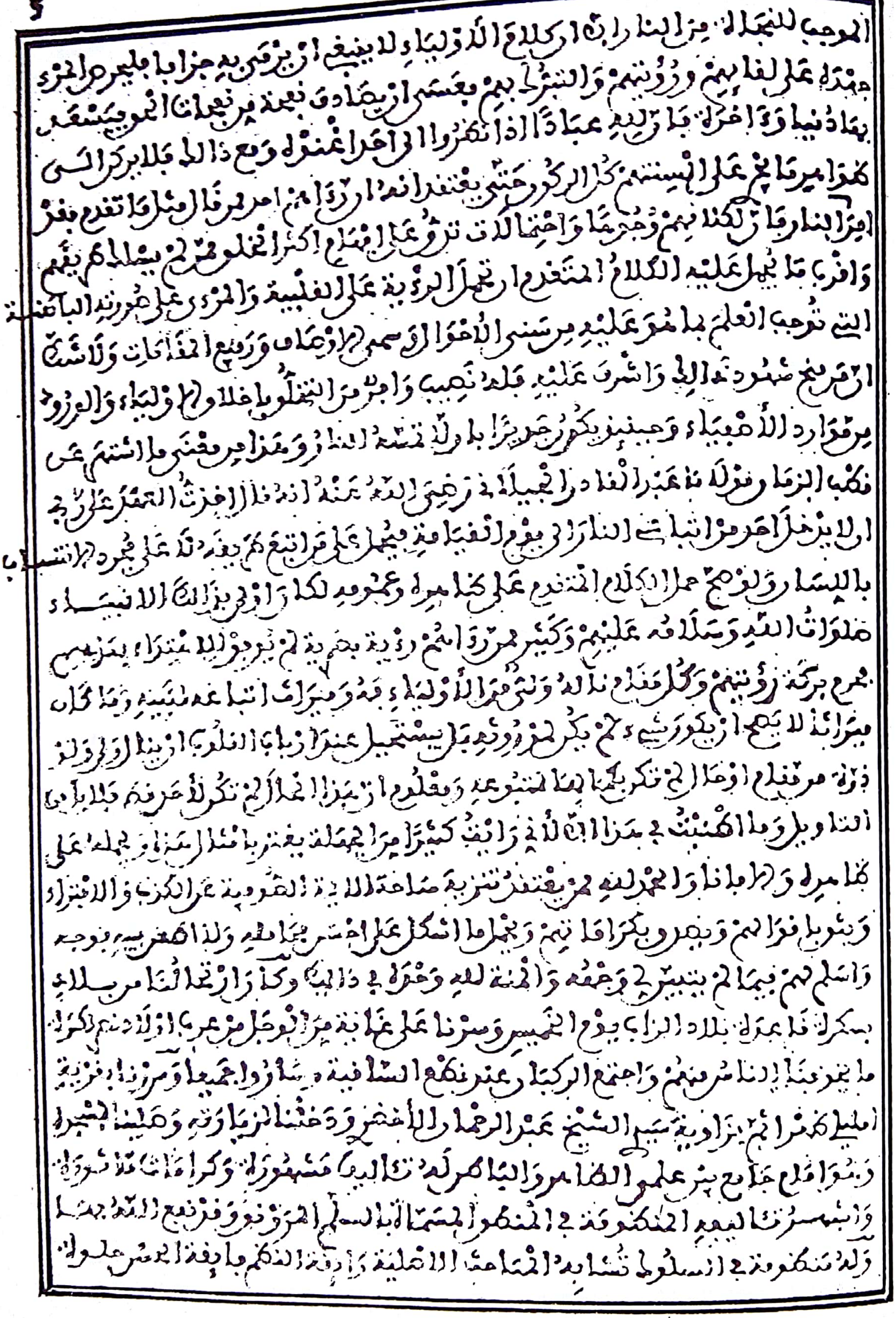

3

الموجب للتجمل من البنا ان كلام الأولياء ولا ينبغي ان يرقى به جزافا فليحمل الجزء
جهده على لقائهم ورؤيتهم والتبرك بهم فعسى ان يصادف نفحة من نفحات الله فيسعد
بها دنيا واخرى فان لله عبادا اذا نظروا الى احد اغنوه ومع ذلك فلا بد ان السي
كلوا مما يجري على ألسنتهم لكل الركب حتى يعتقد انه ان ذلك امر من امر قال ومثل ما تقدم بعض
من ابنا رمان لكلامهم وجرمها واحتمالات ترد على كلام اكثر الخلق مما يشكل ثم يفهم
واقرب ما يحمل عليه الكلام المتقدم ان يحمل الرؤية على القلبية والمراد على عقوبته الباطنة
التي توجب العلم بما هو عليه من سيئ الاحوال وسمج الاوصاف ورديء الصفات ولا شك
ان من بلغ شهوده لذلك واشرف عليه فلا يصيب وامن من ان يتخلق باخلاق الاولياء والعزوف
من موارد الاشقياء وجدير ان يكون جريئا بان لا تمسه النار وهذا من معنى ما اشتهر عن
بعض الزمان ومن ذلك ما عند ابن الجيلاني رضي الله عنه انه قال العزيز المتعين على ربه
ان لا يدخل احد من اتباعه النار يوم القيامة فيحمل على من اتبعه ثم يغير ذلك على مجرد الانتساب
باللسان ولو صح حمل الكلام المتقدم على ظاهره وعمومه لكان اولى بذلك الانبياء
صلوات الله وسلامه عليهم وكثير ممن رآهم رؤية بصرية لم يزدد الا عتوا يعني بهم
محروم بركة رؤيتهم وكل مقام ثالث ونثر من الاولياء فهو من اتباعه نبيه وما كان
من ائمة لا ينبغي ان يكون نبي فاضل بكل معنى فهو لا يستقيم عند ارباب العقول ان ينال اولى ولو
دونه من مقام او حال الا تكرم بمثابة الا يهتدي وقد علم ان هذا المال الذي تكر لا عرقه قبل ابن
الناس وبالاحوال الجنس في هذا الذي رايت كثيرا من الجهلة يغترون بامثال هذا ويحملونه على
ظاهره وظاهره اذا والجاهل منهم يعتقد تبرية ساحة الاولياء القدوة عن الكذب والافتراء
ويتوبوا فوالله وينصرون بكراماتهم ويحمل ما اشكل على احسن محامله ولذا اعتبر بيه بوجه
واسلم لهم فيما لم يتبين له وجهه والمنة لله وحده في ذلك وكان رحيلنا من بلاد
بسكرة فاعدلنا بلاد الزاب يوم الخميس وسرنا على غابة من النخل من عمارة الزاب
ما يعز عندنا الدنانير منهم واجتمع الركب عند تلك الساقية ثم ساروا جميعا ومررنا بقرية
املشي ثم نزلنا بزاوية سيدي الشيخ عبد الرحمن الأخضري وقصدنا لزيارته وعلينا الغبرة
وسواقي جامع بين علمي الظاهر والباطن له تآليف مشهورة وكرامات مأثورة
واشهرها تآليفه المنظومة في المنطق المسماة بالسلم المرونق وقد نفع الله به جملة
وله منظومة في السلوك تشابه المباحث الاصلية ورائقة النظم بالغة الحسن حلوة

صفحة من رحلة العياشي

Scanned by CamScanner

سيدي عقبة

وأما سيدي عقبة المنسوب اليه البلد فهو عقبة بن عامر التابعي (43) وهو الذي افتتح بلاد افريقية وبنى مدينة القيروان، وقد استوفى المؤرخون أخباره ./ وذكر ابن خلدون خبر قتاله مع الكاهنة التي بجبل أوراس وقبره للآن مشهور يزار وعليه مسجد عجيب وحوله قرية كبيرة فى وسط هذا البسيط وفى مسجده مئذنة كبيرة متقنة البناء وفى أعلاها عمود .

والحجاج يزعمون أن من تمسك بذلك العمود وحركه وقال أقسمت عليك أيتها المئذنة بحق سيدي عقبة الا ما تحركت فتهتز . وقد طلعت اليها ورأيت ذلك وليس كما زعموا وانما هو من اتقان البناء وفرط طوله فاذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز وذلك يقع فى كل بناء وغالب من دخل المسجد من الحجاج يكتب خطه على أساطير المسجد وحيطانه ويكتب اسمه واتخذوا ذلك ديدانا وعادة مستمرة . وقد دخلته مرارا وقد عاقنا الوباء من دخوله فى هذه المرة وزرناه من خارج وبتنا بينه وبين بسكرة . وأصابتنا ريح عاصفة بليل منعت غالب الناس من وقود النار فأصبحت مفطرا ذلك اليوم من أجل ذلك .

بسكرة

ونزلنا بسكرة (44) ضحى يوم الاثنين وكان نزولنا خارج البلد من

---

43 – **عقبة بن نافع** (الفهري) من كبار قواد المسلمين ، وهو ابن أخت عمرو بن العاص فاتح مصر ، تولى عقبة قيادة الفتح فى أفريقية سنة 42 هـ = 663 م وأسس القيروان سنة 670 م وتقدم منتصرا نحو الغرب حتى المحيط ، وفى طريق العودة فاجأته جيوش بعض القبائل عند مخرج الوادي فقتلته سنة 683 م .

44 – **بسكرة** = (وعند الرومان (**Vesœra**)) .
عاصمة الزيبان وهي من أقدم مدن الجزائر اذ سكنها البربر قبل قدوم الرومان . وتداول على أمرها – بعد الفتح الاسلامي – بنو رمان الى 1058 م ثم بنو سندي الى 1152 ، ثم بنو مزني من أواخر الثالث عشر الى قدوم الاتراك ، الذين وصلوا اليها أيام حسن اغا والذي احتل الحضنة ودخل بسكرة سنة 949 = 1542 ، وفى أيام صالح رايس خضعت المدينة لنظام الجزائر (1552) وبنى بها الترك برجا عند منبع المياه ، وشن عليها صالح باي عدة غارات وبقيت المدينة على هذه الحال الى أن احتلها الفرنسيون فى 4 مارس 1844 .

راجع

Seriziat ; monographie de Biskra in Bulletin de la société de climatologie algérienne

Scanned by CamScanner

غربيه لأجل الوباء ، واضطر الناس لدخول البلد لشراء الزاد ، ووجدنا الركب الذين قدموا أمامنا نزلوا داخل البلد وأقاموا بها يومين قبلنا وخوف أهل البلد من عرب أولاد نصر بن بوعكاز وحذروهم من غاراتهم على ابل الركب . فلم يسرح للركب سارحة الا ما يشترون من الحشيش اقتفينا آثارهم فى ذلك ولحقتنا فى ذلك مشقة عظيمة من حبس الابل والشراء لها . ولم أدخل البلد لمزاحمة الأشغال الى عشية يوم الأربعاء ، ودخلت لزيارة أبي الفضل (45) رضي الله عنه وقبره خارج المدينة وحوله مسجد ومساكن أقوام من جيرانه . ودخلنا المسجد وطلعنا الى مئذنته وهي فى غاية الاتقان والطول والسعة تقدر الدابة على الصعود اليها بحملها ، وأدراجها مائة وأربع وعشرون درجة . والمسجد فى غاية السعة واتقان البناء الا أنه قل عامروه وضعف ساكنوه فلا ترى به مدرسا ولا قارئا مع أن هذه المدينة من أعظم المدن وأجمعها لمنافع كثيرة مع توافر أسباب العمران . فيها قد جمعت بين التل والصحراء ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جار فى نواحيها وأرحاء متعددة تطحن بالماء ومزارع حناء الى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول وكثرة اللحم والسمن فى أسواقها .

وبالجملة فما رأيت فى البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لأسباب المعاش الا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها وعساكر الأعراب ، يستولي عليها هؤلاء تارة وهؤلاء تارة الى أن بنى الترك عليها حصنا حصينا على رأس الماء الذي يأتي اليها فتملكوا البلاد وضروا بأهلها وأجحفوا بهم فى الخراج ولم يقدروا على الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذي له حياة البلد وأهله . فاجتمعت عليها غارة العرب من خارج وظلم الترك من داخل وقد أشرفت على الخراب وقاربت يبابا

45 – **أبو الفضل** : لا زالت قبة بالمدينة – أعلى باب الدرب – تسمى سيدي أبي الفضل وتساءل بعضهم هل هو أبو الفضل الذي كان واليا على الزاب سنة 678 هـ = 1279 م ؟

Scanned by CamScanner

لولا ما تأصل من أسباب عمرانها الموجب لرغبة الناس فى سكناها . وقد لقيت بها فى سنة تسع وخمسين رجلا من الصالحين ممن جمع بين العلم والعمل والزهد والورع وصدق التوجه الى الله واسمه سيدي بوطيب نصير لم تر عيني قبله ولا بعده أمثل منه فى هديه وسمته تخشع القلوب لوعظه وتلين لكلامه ولو كانت أقسى من حجر .

ولما رجعت من الحجاز فى سنة ستين (1060 / 1650) وجدته قد توفي بالوباء الواقع فى تلك السنة وكان وباء مفرطا مات به فى بسكرة على ما قيل لنا نحو من سبعين ألفا نفس .

وقد دخلنا المدينة عقبه فوجدنا أكثر حوماتها خالية ومساجدها دائرة ولقيت بهذه المدينة سيدي محمد الصالح وهو رجل من أهل الخير منفرد فى مسجد له بازاء داره يلازم فيه الصلوات الخمس ويجتمع اليه ناس من أصحابه يذكرهم ويعلمهم وخرج الينا أيضا من فقهاء البلد سيدي عبد الواحد الرماني وهو أيضا رجل من أهل الخير غلبت عليه الديانة والانقطاع عن الخلق . وقرأ علي أول صحيح البخاري من رواية أبي ذر . وذهب معنا الى زيارة أبي الفضل وفى الغد ــ يوم الخميس ــ ارتحلنا ودخلنا البلد ثانيا لزيارة سيدي محمد بن بوعلي فوجدناه على سطح دار يشرف على الطريق ولم ينزل الينا وقرأ لنا الفاتحة . ومن هناك ونحن فى الطريق ودعا لنا وهو رجل من أهل الأحوال الصالحة مغلوب عليه فى أكثر أوقاته تؤثر عنه كرامات وقد لقيته بداره سنة خمس وستين (1654 م) وهو فى مرمة له فى داره يعمل بها بيده فينسج الثياب . وأخبرنا أن قوته من كسب يده وأخبرنا بحاله ومبدأ أمره مع شيخه وقد انتشر صيته فى هذا الوقت بتلك البلاد وله أتباع وأصحاب يجتمعون اليه فى أوقات للسماع والذكر ، وسمعنا من بعض الحجاج ممن زاره بعد ذلك أنه قال ان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال له ان النار

Scanned by CamScanner

لا تمس من رآك ، وزعموا أنه قال ومن رأى من رآك مراتب متعددة والله أعلم بحقيقة ذلك (46) .

.. وكان ارتحالنا من بلاد بسكرة ــ قاعدة بلاد الزاب ــ يوم الخميس وسرنا على غاية من الوجل من عرب أولاد نصر لكثرة ما يخوفنا الناس منهم ، واجتمع الركب عند قطع الساقية وساروا جميعا .

الأخضري

ومررنا بقرية « امليلي » ظهرا ثم بزاوية سيدي الشيخ عبد الرحمن الأخضري (74) ودخلنا لزيارته وصلينا بمسجده وهو امام جامع بين علمي الظاهر والباطن له تآليف مشهورة وكرامات مأثورة . وأشهر تآليفه المنظومة فى المنطق المسماة بالسلم المرونق وقد نفع الله بها وله منظومة فى السلوك تشابه « المباحث الأصلية » رائقة النظم فائقة الحسن حلوة ، وله مقدمة فى الفقه مشهورة عند أهل ذلك البلد وبيتهم بيت علم وصلاح .

قبر النبي خالد

وسمعت أنه هو الذي أظهر القبر الذي فى بلاد الزاب المنسوب لنبي الله خالد بن سنان عليه السلام ، وهذا القبر الآن من المزارات الشهيرة فى تلك البلاد تقصده الأركاب لزيارته من نواحي أفريقية كلها . واشتهر أمره عند الخاص والعام والبدو والحضر وعليه مسجد عظيم وحوله مدرسة والناس يأثرون عن ذلك المشهد كرامات وقد أشكل أمره علي وسألت عنه من يظن به علم فلم أجد عند أحد ما يشفي ولا رأيت خبره فى تاريخ ولا تقييد ، وغاية ما سمعت من بعضهم أن سيدى عبد الرحمن

46 ــ حذف كلام طويل ص (412–413) حول تأويل هذه الرؤية وكيف ينبغي للمرء أن لا يركن الى ظاهر كلام الأولياء لأن لكلامهم احتمالات عديدة .

47 ــ سبقت ترجمته .

Scanned by CamScanner

الأخضري أخبرهم أنه شاهد النور صاعدا من تلك البقعة الى السماء ثلاث ليال أو نحوها وأخبر أنه قبر نبي الله خالد . فان كان أطلع على ذلك من كشفه فيسلم له فانه أهل لذلك وقد سمعنا ورأينا فى بلاد المشرق بمشاهد متعددة من قبور الأنبياء والأولياء أظهرها أهل الكشف الصادق فتزار بحسن النية وجميل الاعتقاد وحسن الظن بقائل ذلك حتى ان المشهد المنسوب لكليم الله موسى عليه السلام بالأرض المقدسة انما أظهره بعض أهل الكشف بعد الستمائة أو قريب من ذلك ، وهو الآن من المزارات العظيمة الشهيرة . وقد ذكر لي بعض الناس نأ خبر خالد بن سنان هذا مذكور فى بعض التفاسير المنقولة عن الامام ابن عرفة وأنه فى هذا المكان وبحثت عن ذلك فلم أقف عليه ويبعد عندي كل البعد أن يكون خالد بن سنان العبسي مدفونا فى هذا المكان . فان الأخبار المنقولة فى شأنه المذكورة فى كتب أهل السير تأبى ذلك . فقد ورد فى بعض الأحاديث أنه نبي من العرب بعث بين عيسى عليه السلام ونبينا صلى الله عليه وسلم وأنه بأرض الحجاز وأنه مات بها وأنه أوصى بنيه أن ينبشوه بعد حول فيخبرهم بأخبار ما أرادوه وغير ذلك من الأخبار المنقولة عنه فاذا ثبت ذلك فما أبعد الحجاز من الزاب . وقد ورد فى بعض الآثار أنهم لم يدفنوه وأنهم حملوه على ناقة فذهبت به . فان صح ذلك فربما يتوهم أنه بلغت به الى هذا المكان ودفن فيه وهو خرق عادة أيضا . وأقرب ما يحمل عليه أمر هذا المشهد ان صح أن به قبر نبي ما . قال لي شيخنا أبو بكر بن يوسف السجتاني — وقد سألته عنه لما مررنا به سنة ستين وألف (1649) فقال لي : لم أر خبره منصوصا وأقرب ما يحمل عليه أحد رسل عيسى عليه السلام اللاثثة المذكورين فى قوله تعالى : واضرب لهم مثلا آصحاب القرية (48) .. الآية فقد ذكر بعض المفسرين أحدهم اسمه خالد وأنه نبي أصحاب الرس وقد ذكر بعضهم أن بلاد الزاب هي

48 — القرآن الكريم : سورة يس آية 12 .

Scanned by CamScanner

بلد أصحاب الرس فان صح أن هذا قبر نبي الله خالد ، فهو هذا والله أعلم (49) .

وتجاوزنا زاوية الأخضري وبتنا ببلدة تسمى « لـوى » وفى الغـد ارتحلنا وسرنا جدا خائفين ونزلنا ظهرا بالمكان المسمى بالرويسة بينـه وبين أولاد جلال نحو من فرسخ وهناك تحقق الناس أمر العرب وأنهـم متعرضون للركب قاصدون أخذه ومعهم نحو من ثلاثمـائة فارس وانهم ارتحلوا بجللهم ونزلوا بأعلى وادي سيدي خالد عـلى حافتي الطريـق ومرادهم اذا توسطهم الركب وثبوا عليه رجالا ونساء وصبيانا . وأخبرنا أهل البلد أنهم فى غاية ما يكون من الجوع وقالوا لنا لا طاقة لكم بهم ولو قاتلتموهم وقتلم ما عسى أن تقتلوه فان ذلك لا يردهم عنكم لشدة جوعهم . وأشاروا علينا بتنكبهم وترك الطريق التي هم عليها ، وبثوا الينا دليلا عارفا بالطريق ، واشتد الخوف على الحجاج وقوي العزم من جماعة أهل الركب على الرجوع الى بلاد ريغ وجاؤوا الي مستشيرين فلم أوافق على الرجوع الى ريغ واشتد ذلك علي وعلى سائر الضعفاء ، ورأينا أن الرجوع الى ريغ هو غاية التفريق والانقطـاع فى بلاد الصحـراء التي لا يقدر الضعفاء على سلوكها وقلنا لهم ان وصلنا الى ريغ فأنا أجلس هنالك وسائر الضعفاء ولا يصحبكم منا أحد ولم أزل أفتـل لهم فى الدروة والغارب الى أن هداهم الله وعدلنا ذات اليمين الى طريق «الظهرا» وتنكبنا المحل الذي فيه أولئك المحاربون وارتحلنا نصف الليل عنـد قرب مغيب القمر وسرنا بقية ليلنا فى أرض حرشة وظلمة وخوف شديد فلا تسمع الا همسا بأخفاف الابل . فلما أصبحنا خرجنا الى أرض سهلة بيننا وبين الجبل أزيد من بريد وزعم المخبر أن ذلك محل الخوف وسار الناس سيرا حثيثا الى أن دخلنا من خرزة فى الجبل تسمى « خرزة البطم »

49 – حذفت أبيات فى مدح النبي خالد (ص 415) .

Scanned by CamScanner

ظهرا وفى الجبل خرزات متعددة ــ والخرزة فى لغتهم اسم لكل فرجة فى الجبل يخرج منها طريق ، فلما دخلنا من الخرزة وعاد الجبل بيننا وبين العدو أمن الناس بعض الأمن لدخولهم بين الجبال . ووجدنا هنالك غرباء آخرين ضعفاء وهم خائفون مثل خوفنا ووجدنا عندهم سمنا اشترى الناس منها بعض شيىء وبتنا قريبا منها .

وفى الغد ارتحلنا وعدلنا يمينا فى أرض وعرة حرشة وسرنا الى قرب المغرب ، وفى الغد جئنا الى « الجرف » ظهرا وهو ماء غزير عذب بين جبلين ونزلنا فيه وأمنا من غائلة الأعراب . ورجع الدليل وهو من أولاد جلال .

اولاد جلال

وقرية أولاد جلال من أكبر قرى الزاب وهي قرية جامعة فيها مدرسة للطلبة المهاجرين وهم يسمون الغرباء مهاجرين . وهم فى قوة ومنعة من العرب لا يؤدون اليهم اتاوة . ويسمون كل من لا يؤدي اتاوة للعرب بالمجاهدين وقد صدقوا فى ذلك . وفى يوم نزولنا بالجرف ظهر الضعف فى فرسي التي أركبها وكانت قد أصيبت بريح ليلة أسرينا من أولاد جلال ولم أتفطن له . وفى الغد ارتحلنا فى يوم بارد غاية مثل الذي قبله وجئنا الى « عبد المجيد » ضحى ونزلنا ، وفى الغد نزلنا ظهرا أيضا قبل العوينة ، ومات رجل من أصحابنا الفلاليين من أولاد الامام أهل سجلماسة طعن بالوباء ، رحمه الله .

غريبة : كنت أسمع هذا الرجل ــ رحمه الله ــ كثيرا ما ينشد قبل أن يطعن بأيام هذه الأبيات :

سكناها ليالي آمنين ... وأياما تسر الناظرينا
فلما أن جلانا الدهر عنها ... تركناها لقوم آخرينا

Scanned by CamScanner

والأبيات لبعض أمراء بني زيان لما انجلوا عن تلمسان . فكان ذلك من عجيب الاتفاق وفى الغد جئنا للعوينة ضحى وعدلنا عن « دمـر » يسارا وبتنا .

وفى الغد مررنا ضحى « بأولاد سيدي مخلوف » فقراء أشراف قد بلغ الجهد منهم كل مبلغ وبقيت هنالك فرسى وأيست منهـا ووهبتهـا لهم وذكروا لي أنهم ان أيسوا منها ذبحوها ليأكلوها . وأخبرني بعض الحجاج بعد ذلك أنهم ذبحوها . وفى ذلك اليوم افترق الركب وحدث بينهم التنافس عندما أمنوا وهم الناس بالنزول دون الماء وليس معنا ماء وغالب الناس صائمون فأبيت فتبعوني ولم ننزل عليه الى المغـرب فى الفلجة .

الأغواط

وفى الغد لم نرتحل الى قرب الظهر ونزلنا الى قرب العرينة التي دون الأغواط . وفى الغد مررنا بالعوينة ضحى ونزلنا بالأغواط (49 مكرر) قبل الظهر يوم الأحد السادس عشر من رمضان (4/4) وكان فى الركب أعراب سعاة من دمر يتكففون الناس فقالوا لأهل البلد ان فى الركب وباء فلم يتركوا أحدا يدخل اليهم . ووجدنا الغلاء كثيرا عندهم مقدار مدين فاسيين بريال قمحا . فلم يخرج أحد منهم الى الركب وكانوا يدلون الزرع

---

49 مكرر : **الأغواط** : جمع غوطة : (الدور التي تحيط بها البساتين) مدينة قديمة على 428 كلم من الجزائر العاصمة وتمتد المدينة والواحة على الضفة الشرقية لوادي ملغير ، ويصعب تحديد تاريخ تأسيسها غير أن بعض المؤرخين يرجحون تأسيسها فى منتصف القرن العاشر .

قال أبو العباس أحمد الفاسي : « .. الأغواط بلدة طيبة وعليها أجنة ونخيل ولها أبراج وسور دائر بها غير أنها غير متقنة البناء ولها عيون ماء تجرى بداخلها ولقينا بها فى شهر يناير العجمي السفرجل الجيد الطيب الرائحة والدلاع والبطيخ والرمان .. » الرحلة الفاسية .

راجع :

Mangin (E.) : *Note sur l'histoire de Laghouat*. R A. 1893-1894-1895.
Yver (G.) : *Laghouat*, in *Encyclopédie de l'Islam*, III, 5.
Letourneux : Laghouat, 1964.

Scanned by CamScanner

من فوق السور ويأخذون الريال ويغسلونه ولا يتناولونه الا بعد الغسل، والله تبارك وتعالى يكتب السلامة والعافية آمين .

وفى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان ارتحل الناس من الأغواط بعدما تشاجروا فى أي الطريق يسلكون ، فمالت طائفة الى طريق عين ماضي ، وكان لي فيها ارب لبيع بعض الكتب ولقاء الأصحاب فلم يقدر ذلك . ومالت طائفة وهي الأكثر الى المرور على الطريق اليسرى لقربها وسهولتها وخصبها فيما زعموا واكتروا مخبرا ، وذهب الركب الآخر أمامنا وسرنا . فلما وصلنا الى الماء الأدنى الذي بين الجبلين وجدنا الركب الذي تفرقوا يحفرون فى حسيانه لأنهم قدموا بلا ماء . وأما ركبنا فقد جاؤوا بمائهم .

نزول مطر وخروج عقارب

ولما كان قريبا من الظهر أرعدت السماء وأبرقت وأرخت عزاليها بماء غزير وبرد منع الناس من المسير ولا (؟) ما نزلوا وأقاموا بقية يومهم وليلتهم وهي لا تصحو .

ثم ارتحلنا عنه فلما كان الضحى وسخنت الأرض أخرجت الأرض من مخبر عقاربها ما ملأ الأرض حتى لا تكاد ترمي ببصرك الى ناحية الا وقعت على عقرب وأخذ الناس يقتلونها فمنهم من قتل المائة فما دون وقضينا من ذلك عجبا الى أن بتنا ، ومن الناس من يقول ان العقارب نزلت مع المطر كما تنزل الضفادع ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

فلما بتنا أمطرنا بالليل وفى الغد ارتحلنا ووجدنا « وادي مساعد » كله ماء وأرضه رخوة فلم نقطعه الا بشقة عظيمة وسرنا بقية يومنا وطلعنا الى حمادة هناك فى ريح بارد ، وبتنا بها وبات المطر يسيح وأصبح فى الأرض كذلك وأقمنا وكان ذلك فى نوء الثريا فأنشدت بعض الأصحاب فى ذلك :

Scanned by CamScanner

بلادي التي كنت فيها هنيا سقاك على البعد نوى الثريا
وحيا الاله حماها ومن ثوى بفناها جميعا وبيا
فسقيا ورعيا لمربعنا فكم قد حبا الحي سقيا ورعيا

وقد خطر ببالي أيضا فى تلك الاقامة ذكر البلاد وطول غيبتنا عنها وسآمتنا للسفر فأنشدت :

يا رحلة كلما قصرت مشقتها بالسير طالت فعادت شهرها حينا
تسعا وعشرين شهرا أتوممها من السنين غدت عشرا وتسعينا

وفى يوم اقامتنا خرج بعض جيراننا من أهل مراكش فى طلب ابل له كان يظنها ذهبت فذهب هو فلم يهتد الى مكان الركب لأن أرض ذلك المكان مستوية فى مرأى العين وهي ذات غيطان متشابهة ، وفى الغد أصبح الناس يطلبونه الى أن وجده الدليل راجعا من حيث جئنا وهو تائه يظن أنه متوجه الى المغرب فأتى به الدليل الى الركب فارتحلنا وسرنا والابل فى غاية ما يكون من الضعف من أجل البرد والمطر الى أن قطعنا وادي الأشبور من أسفله ووجدناه حاملا وبتنا . وفى الغد أصبحنا على قرية تسمى « المايه » وليس فيها الا رجلان أو ثلاثة فى غاية ما يكون من الضعف والجوع . وزعموا أنهم شرفاء ولم يجد الناس عندهم ما يشترون الا الملح يبيعونه بالطعام وكان من لطف الله بهم أن الركب المتقدم أقام هناك يوما من المطر فماتت لهم ثلاثة من الابل وانتفع أولئك الضعفاء بلحمها ، وهناك وجدنا شيئا من خبر الغرب وأن طائفة من عرب مولاى محمد رحمه الله أغارت على العرب الذين بأحواز الكراكدة ، وأخبرنا أن الغرب أمطر مطرا عاما لم يعهد مثله ، وبعد أن تجاوزنا المايه يومين عدلنا ذات اليمين وقطعنا الجبل من ثنية هناك وعرة وكان المخبر يظن أنها تسلك الى الطريق فاذا بها تفضى الى أودية وعرة وأماكن لا تكاد تسلك فيها الابل ووقع الناس فى حيرة بعدما قطعوا كثيرا منها فمن قائل نرجع الى طريقنا ومن قائل نبيت هنا حتى نرى فى أمرنا ، فنزل

Scanned by CamScanner

الناس قبل العصر وذهب المخبر وشيخ الركب يلتمسون الطريق فمارجعوا الى قريب من المغرب ، وفى الغد ارتحلنا وسلكنا (أرضا) وعرة ولم نخرج الى أسهلها الا قريبا من الظهر ومررنا بقرية فى بعض تلك الشعاب قائمة البناء ملتفة الأشجار كأنما خرج أهلها بالأمس ، وسألنا بعض أهل تلك البلاد فأخبرونا أنها ربما سكنها بعض الضعفاء أيام الشتاء .

الفسول

وعندما توغلنا فى تلك الشعاب أيس أكثر الناس ممن لا خبرة لهم بالطريق ، ولم نبت تلك الليلة الى أسفل من « وادي الغاسول » وجدنا هناك عشبا كثيرا وتباشر الناس بالخير ، وفى الغد لقينا طريق الحجاج المألوفة وتباشر الناس بالخير وبلغنا قرية الكراكد ووجدناها فى غاية ما يكون من الغلاء وقد غارت عليهم خيل من خيول العمور بالأمس فأخذت لهم غنما بقيت لهم وقد كانوا أغار عليهم عرب الشريف مولاى محمد رحمه الله صاحب تافلالت . وأخذنا ماءنا منها وتجاوزنا فلم نبت الى موضع هناك يقال ان فيه مات الشيخ سيدي عبد القادر بن أبي سماحة وفيه مزارة تزار .

وفى الغد ارتحلنا ووجدنا عرب الأغواط الغربية قد فروا أمامنا من العمور ونزلوا قريبا من قرى « ربأ » ونزلنا عندهم ظهرا فوجدنا لديهم سمنا كثيرا وقليلا من الابل واشترى الناس حاجتهم من السمن وكان أهل الركب قد جاعوا جوعا عظيما من يوم خرجوا من الأغواط لأنهم كانوا يقطعون تلك المسافة فى خمسة أيام فما قطعوها الا فى أزيد من عشر ، وبلغ الشعير قريبا من الريال للصاع وبلغ الدقيق أكثر من ذلك . وبقيت لي هناك ناقة كنت أحمل عليها كتبي فبعتها بثلاث ريالات .

Scanned by CamScanner

بوسمغون

وفى الغد مررنا بقرى « ربأ » صبحا وفى الذي يليه نزلنا «بوسمغون» عند المغرب ووجدناه أرخص من كثير من البلاد التي مررنا عليها قبل ، وأقمنا فيه غدا آخر يوم من رمضان يوم الأحد ، ومن هناك بعث الحجاج المبشرين الى بلادهم مراكش ومكناسة وفاس وتافلالت . وبعثت أصحابي معهم بكتاب الى اخواننا واختصرته غاية وكان فى ضمنه بيتان وهما :

حملت جنين الشوق فى بطن مكة زمانا الى ان آن منها انفصاله
فزاد نموا فاستوى عندما غدا ثلاثين شهرا حمله وفصاله ..

وقد خرج المبشرون صبيحة يوم العيد قبل طلوع الشمس وبقينا بعدهم الى أن صلينا مع أهل البلد ، وكان من عادتهم أنهم يخرجون الى المصلى بسلاحهم لا يخرج أحد بغير سلاح صغيرا كان أو كبيرا ويبنون فى المصلى أحجارا يتخذونها غرضا للرمى بالبنادق فلا يذكر الله فى المصلى الا أناس قليلون وغالب الناس مشتغلون بالرمي حتى فى حال الصلاة والخطبة الى أن فرغ الامام من الخطبة فرجعنا ورحلنا ذلك اليوم ، واشتريت من هناك حمارا لركوبي بأربع ريالات لأني أضعفنى المشي على رجلي كثيرا بعد موت الفرس ، واكترى أمير الركب رجلا من أولاد سيدي سليمان بن أبي سماحة يذهب بهم ذات اليسار حتى يخرجوا فى فيقيق ، وكان ماهرا عفريتا عارفا بالطريق فسار بنا فى أرض سهلة مخصبة .

وادي الناموس

وفى اليوم الثالث نزلنا « وادي الناموس » وهو وادي كبير ملتف بأشجار الطرفا فى حلاها قيعان تمسك الماء وتنبت الكلأ يكفي الأنجاع

Scanned by CamScanner

من العربان اذا آووا اليه وفي أعلاه عند فرضة الجبل الذي يخرج منه الى الصحراء قرية « سندانة » وهم قوم من متفقرة ذلك البلد وكبيرهم الآن صاحبنا سيدي محمد بن سليمان وكان رجلا لا بأس به ينتسب الى الوالد ــ رحمه الله ــ بتلمذ وبعثت اليه ليأتينا فلم يجده من بعثته اليه فلحقنا أخوه ليلا ونحن بائتون في وادي الذيبة .

الوصول الى فقيق

وفي الغد دخلنا فقيق (50) خامس يوم من رحيلنا من بوسمغون وكان دخولنا من طريق تمزوغت يوم الجمعة ظهرا .. (6 شوال = 24 أفريل)

* * *

50 ــ **فقيق** : اشهر واحة بوادي قير .
وهي شرق جنوب المغرب الأقصى من اعمال وجدة بقرب الحدود الجزائرية وتحتوي الواحة على سبعة «قصور» اشهرها قصر زناقة ، وبها من النخيل ما يربو على 200,000 شجرة ويرجع ذلك لكثرة المياه .

المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية

Scanned by CamScanner

نشر أزاهير البستان

Scanned by CamScanner

وصف مدينة الجزائر

«.. وانه لما من علي المولى الكريم ، ذو الفضل السابغ العظيم ، بدخول مدينة الجزائر ، ذات الجمال الباهر ، وحلول مغانيها النواضر ، التي غص ببهجتها كل عدو كافر ، فلذلك يتربصون بها الدوائر ، فى الموارد والمصادر ، ويرسلون عليها صواعق لم تعهد فى الزمن الغابر (1) أبرأني من غليلي ووجدي ، ما عاينته من روائها (2) العسجدي ، وبحرها اللازوردي ، اذ هي كما قيل :

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس (3)

---

1 - تعرضت مدينة الجزائر ما بين 1510 و 1830 لغارات عديدة شنها الاوروبيون من بينها :

سنة 1516 أيام عروج غارة اسبانية بقيادة دي فارا
سنة 1518 أيام خير الدين غارة أسبانية بقيادة دي مونكاد
سنة 1541 أيام حسن أغا غارة أسبانية بقيادة شارلكان
وفى القرن السابع عشر تواصلت الهجومات الأروبية :
سنة 1622 غارة انكليزية وكذلك سنة 1665 وسنة 1672
سنة 1665 غارة فرنسية بقيادة بوفور
سنة 1669 فرنسية بقيادة شوفاليي بول
سنة 1672 غارة هولندية بقيادة الاميرال رويتر
سنة 1682 و 1683 غارة أخرى فرنسية بقيادة دكيسن
سنة 1688 غارة فرنسية أخرى بقيادة ديستري
وفى القرن الثامن عشر تجددت الغارات على الجزائر :
سنة 1770 غارة دانماركية .
سنة 1775 و 1783 غارات أسبانية .

2 - الرواء : المنظر الجميل .

3 - ينسب البيت الى الشاعر الأندلسي ابن اللبانة (توفي 505/=1113) فى وصف جزيرة مايورقة الى أن قال :

فكأنها الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

Scanned by CamScanner

ما شئت من حدائق ، كالنمارق ، وقصور ، نوع المحاسن من عليها مقصور ، والتي أعارها ذلك المرأى الجميل ، وأصارها فضية الصباح عسجدية الأصيل ، وألحفها بهجة واشراقا ، وألبسها نضرة وابراقا وأبدها للعيون ، آنق من جيرون (4) .

أخبار علمائها

غرر أعلام ، ينجلي بهم الاظلام ، وشموس أئمة ، تنفرج بهم كل غمة ، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة ، من رجال ، كالجبال ، وأحبار ، كالأقمار ، طلعوا في بروج سعودها بدورا ، ألبسوها رواء ونورا ، فاهتديت بأنوارهم السنية ، الى قطف ما راق من أنوارهم الجنية ، ورتعت في رياض آدابهم فتمتعت ، وأنهلت من حياض علومهم حتى تضلعت ، رياض آدابهم فتمتعت ، وأنهلت من حياض علومهم حتى تضلعت ، وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت ، وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت ، ونسيت ببشرهم وتأنيسهم ، وما اقتبسته من المعارف في تدريسهم ، ما عنيته من وهج القفار (5) ، وقاسيته في نجج البحار :

ولو لم يزد احسانهم وجميلهم على البر من أهلي حسبتهم أهلي

فلم أزل بين اقتباس أنوار ، واقتطاف أنوار (6) الى أن أشعر كبدي بالانصداع ، داعي الوداع وأصابني من الوجد شبه الجنة ، ولما أزف الرحيل ، واستعمل عزمي في أسبابه العنق والزميل ، التمست ممن اصطفيته من أولئك الأخيار ، أن يكتب لي من اجازته ما أطاول به

---

4 – جيرون : قيل هو جيرون بن يعد بن عاد نزل بدمشق ، فبناها فسميت المدينة باسمه ، وقيل هو اسم احد أبوابها القريب من الجامع الكبير ، وقيل هو من أسماء ارم ذات العماد .

5 – وهج القفار : هو الغبار .

6 – أنوار جمع نور = الضوء وأنوار : الأزهار .

Scanned by CamScanner

الأحبار ، فسوغ لي من اعتمرت بمطافه ، ما ترشفته من نطافه ، وأجاز لي من اهتديت بمناره ، ما أقبسني من أنواره ، وقد أردت أن أذكر من حلاهم فى هذه الأوراق ، ما تحسده الجواهر فى الأطواق ، وأنقل أكثر ذلك اجازة من أجاز ، وأباح لي الرواية عنه فى الحقيقة والمجاز ، والله أرجو فى اتمام ما قصدته ، ومنه أستمد الاعانة على الذي سردته لا اله سواه ، ولا مانع لما أعطاه .

الشيخ المانجـــلاتي

فممن اقبسني بكلتا يديه ، وأجاز لي رواية ما لديه ، العلم الأشهر ، والحبر الأكبر ، حائز الشرفين العرضي والذاتي ، أبو حفص عمر بن محمد بن عبد المؤمن المانجلاتي (7) أبقاه الله ، ونضر مرءاه ، هو بقية السلف ، وبركة الخلف ، الذي حمى الله به ذلك القطر من التلف ، اذ عليه المدار ، فى السير والأخبار ، واليه المرجـع ، فى كل خطـب مفزع ، واحكامه لقواعد العلوم ، هو الذي أمطاه قنن النجوم ، وأعطاه شرقا غير مروم ، لأنه يصول ، بنصول الأصول ، ويطول على كل ذي منطق ، بذوابل الجدل وصوارم المنطـق ، الى شمـــائل ، كنسمـــات الخمائل ، وهمة ، أكسبت الدهر غمة ، وفصاحة رابقة ، وبلاغة فائقة ، اذا حدث أو أملا ، فما أبدع وما أحلا ، وان استطرد فى درسه حكاية ، لتنميق رواية ، كان ذلك أعذبا وأسوغ ، من منادمة الظبي الألثغ (8) .

يقـــود عصابات القلـــــوب بيانه فلـــولا تقـــاه كنت أحسبه سحـــرا

على أنه دنا من أرذل العمر واقترب ، وبات من ورد الثمانين عـــلى قرب ، فما ظنك به اذ برد عمره نضير وبدر شبابه مستدير ، وروض

---

7 – عالم وفقيه ومعلم توفي سنة 1104 هـ / 1693 ، اهمل ترجمته عادل نويهض ف معجم أعلام الجزائر وخصص أسطرا لمنصور بن علي..المنجلاتي من رجال القرن9/=15.

8 – الحسناء فى لسانها لثغة محبوبة .

Scanned by CamScanner

فتائه مورق ، ونور ذكائه موتق ، وقد أفصحت عن علاه ، فى قصيدة طرزتها ببعض حلاه ، وأنشدتها بين يديه ، يوم ختمي جمع الجوامع (9) وهو يوم السبت الرابع من جمادى الأولى من شهور سنة أربع وتسعين وألف (10) .

مـدح الشيـخ

حي على الأنس ان طيف الهموم سرى | وسل نفسك وانهج نهج من صبرا
ولا تصخ لدعاوي البث ان صدحت | ان دواعيه تستجلب الضررا
واذكر معاهد قد راقت نضارتها | فان فى ذكرها أنسا ومعتبرا
لله منها أصيلان جنيت بها | فى روضة اللهو من نخل المنى ثمرا
اذ الأحبة يعدو عن وصالهم | بعد يُوجج فى أحشائنا سقرا
حيث ائتلفنا ولا واش ينم بما | نلنا عدا الأعطرين : الورد والزهرا
ولا رقيب على الافراح يحسدنا | دان خلا النيرين : الشمس والقمرا
وزهونا بتلاقينا وألفتنا | أغرى بنا الأعجمين : الطير والوترا
فصاح ذاك على أفنان دوحته | حي على الانس ان طيف الهموم سرا
وبث ذا ببنان اذ يحركه | خذ ما صفا لك وانبذ كل ماكدرا
والبحر مثل مذاب التبر حاك به | كف النسيم دروعا حسنها سحرا
والورق تسقط فى أمواجه دررا | كما سقطت على بحر العلا عمرا

* * *

حبر الجزائر والدنيا برمتها | من عالج العلم حتى ذاع وانتشرا
بدر الجلال ومصباح الكمال ومقبـ | ـاس الجمال الذي كل الورى بهرا
شيخ أحاط بأنواع المديح فما | أبقى لمن بعده شيئا وما وذرا
أن تنم أهل العلا الى محاسنه | تجد جميعهم من بحره نهرا

---

9 — هناك كتب عديدة تحمل هذا العنوان ، ويقصد ابن زاكور كتاب « جمع الجوامع فى أصول الفقه » لتاج الدين عبد الوهاب .. السبكي الشافعي ، كان مفتيا وقاضيا وحاكما وخطيبا بدمشق ثم بالقاهرة والكتاب جمعه صاحبه من زهاء مائة مصنف .

10 — الموافق لسنة 1683 م .

Scanned by CamScanner

ذو همة شغفت بالمجد كاليه حم بها احد النسرين فانكدرا
الى شمايل أزرت بالنسيم ضحى وخلق كالخلوق قد هفا سحرا
من يبلغ الأهل اني بعد بينهم جالست بدر هدى بالشمس معتجرا
وقد ظفرت بما قد كنت آمله لما قضت منيتي من نوره وطرا
حتى لقد خلت امالي قوائل لى : قدك ابن زاكور هذا البحر فاقتصرا
من ذا يطاولني والمجد صافحني والبدر اقبسني والعلم لي سفرا
قد كنت قدما أحس للنوى ضررا فاليوم حين اكتسبت المجد لا ضررا
ما احسن البين اذ كانت اساءته تفضى الى مثل مصباح الدجى عمرا
بقية السلف الماضي ونخبته لكن محاسنه أزرت بمن غبرا
قاضي القضاة الذي لا شيء يعدله فى عدله اذ فشا فى الناس واشتهرا
بحر العلوم التي غاضت مناهلها منذ زمان وسيل الجهل فيهاجرا
شمس الأصول التي تعشى أشعتها عين الجهول فلم يسطع لها نظرا
كم من فوائد أولاني غدوت بها أطاول العالم الحبر الذي مهرا
هذا وجمع الجوامع الذي بهرت غر معانيه من غاب ومن حضرا
ابدى لنا كل ما تحويه من نكت نفيسة تخجل الياقوت والدررا
واها لها من لئال قد ظفرت بها فالحمد لله حمدا طيبا عطرا
سحت على قبر تاج الدين غادية تخفف الأثقلين الترب والحجرا
ولا تخطت محليه بتحليه باهي بها الثقلين الجن والبشرا
نعم المحلى مولانا المحلى اذ نظم من دره ما كان منتشرا
يا رحمة الله عوجى بضريحهما ولا تزالى تنشى لهما خبرا
ان الامام أبا حفص الرضى عمرا أضحى يطرز ما حكى وما ابتكرا
بدر الجزائر صان الله بهجته عن أن يرى بخسوف البدر مستترا
وبحرها العذاب لا زالت جداوله تروض العالمين البدو والحضرا

* * *

قال كاتبه ، سترت معائبه ، وكنت أيام قراءتي هذا الكتاب كثير الكلف باختتامه ، شديد الشغف باخراج نوره من كمامه ، خوف أن

Scanned by CamScanner

يعوق السفر ، عن ذلك الوطر ، وكان الشيخ ــ رضي الله عنه ــ كثيرا ما يتأخر عن المجلس لغرض عرض ، من حفظ صحة أو دفع ما يتوقع من مرض ، فتأخر لأجل ذلك أياما ، لم أذق فيها من الوجد مناما ، فكتبت اليه فى ذلك بما نصه :

يا ايهـــا المـــولى الامــــــــام	ومـــن حــــوى أعـــلا مقـــام
لقـــد غدونـــــا فى ظـــــلام	مـــذ غبـــت يا حبـــر الأنـــام
اطلـــــــــع علينـــــا نقتبس	سنـــاك يا بـــدر التمـــــام

سيدي ، وأجل عددي ، أبقاك الله مخصوصا بالبركة من غير اشتراك ، ما ترجح التخصيص عند التعارض على الاشتراك ، زاد اشتياقنا اليكم على الطوق ، وشب عمر وصبرنا عن الطوق ، فليت شعرى متى تنكسر سورة هذا الصر ، وتنفصم عروة هذا الضر ، الذى حجب عنا ضوء محياك ، ومنعنا من لقياك ، فتبسط يمنى الزمان معروفها ، وتطوى يسراه صروفها ، وعسى الله أن يعادل سحاب صره بالصحو ، ويقابل ما كتبته يد ضره بالمحو ، فيسفر محياك ولا كأسفار الصباح ، متهللا بالبشر والانشراح ، فنستعين بأشعة أنواره ، على قطف أزهار الأصول وأنواره ، وكاتبه أفقر الخلق ، الى المعبود بالحق ، يقرىء عليك سلاما مسكى الشميم ، عنبرى النسيم ، تبتهج النفوس برياه ، وتتعاطى به عقار السرور وحمياه .

فكان ــ رضي الله عنه ــ بعد اذا أراد التأخر لعذر واضح من الاعذار ، من نزول جليد أو هطل مدرار ، بعث الي ولده ، يعلمني انه لا يستطيع أن يحضر مشهده .

* * *

ولما عزمت على الترحال ، ونويت أن أعمل فيه الوخد والارقال ، طلبت منه الاجازة فيما أقبسني من أنواره ، وأودعني من أسراره ، فكتب لي بعد الامتناع بخطه النضير ، ما أزرى بالدر النثير ، وهو :

Scanned by CamScanner

نص الاجـــازة

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آلـه وصحبه وسلم تسليما ، ورضي الله تعالى عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابع ، الى يو مالدين ، وعـن العلمـاء العاملـين ، ونفعنـا الله بالكل آمين ، وبعد : فقد اجتمعت بالشاب الأديب ، الأريب الحاذق اللبيب ، السيد محمد بن قاسم ابن زاكور ، مفتتح عام أربعة وتسعين وألف ، وقرأ على جمع الجوامع للامام السبكي من حفظه مع جماعة من الطلبة ، فمكثنا فى قراءته من أوله الى آخره نحو أربعة أشهر ، فرأيت من حرصه واعتنائه واشتغاله بما يعنيه ما أعجبني ، وفيه قابلية لما يلقى اليه مع ذهن ثاقب ، وفهم صائب ، ومشاركة فى فنون من العلوم وكانت قراءتنا لجمع الجوامع باحضار شراحه كالمحلى وكنا نقرأ كثيرا منـه باللفظ ، وولي الدين العراقى ، والكوراني ، وحواشى مع بعض شراح مختصر ابن الحاجب (11) فشغف بذلك وأعجبه لحرصه على العلوم ، فطلب مني أن أجيزه فامتنعت لأني فى نفسي لست من أهل هذا الشأن ، ولا من فرسان ذلك الميدان ، فألح علي المرة بعد المرة لظنه الجميل ، أني من هذا القبيل ، فأسعفت طلبته حرصا على جبر خاطره ، خشية من كسر قلبـه ، لأن كسر القلـوب ، فى كسر القلـوب ، وجبرها فى جبرها ، (12) فأجزته أن يروي عني ما رويته عن أشياخي من الفنون التي أسردها بشرطه المعتبر ، عند أهل النظر ، وكنت قرأت على مشايخ جلة أعلام ، ومن أجلهم عندى سيدي ومولاى الذي لازمته أربع عشرة سنة نهارا وليلا فى غالب الأوقات ، أبو الحسن سيدي على بن عبد الواحد

---

11 ـ ابن الحاجب (جمال الدين أبو عمرو عثمان) فقيه مالكي ولد بمصر بعد سنة 570 هـ/ 1174 م ، وتوفي بها فى 646 هـ = 1244 ، وله كتاب يسمى « مختصر منتهى السؤال والأمل ، فى علم الأصول والجدل » كماله مختصر فى فروع المالكية شرحه محمد بن حسن المالقي .

12 ـ قلوب :
جبر :

Scanned by CamScanner

السجلماسي الأنصاري (13) قدس الله روحه فى دار النعيم ، مع جماعة من الطلبة الأخيار ، والنجباء الأبرار ، أخذت عنه فن الأصول والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والفقه والحديث والسير والتصـوف ، ففي الأصول قرأنا جمع الجوامع مرارا ومختصر ابن الحاجب نصفه ، وفى البيان تلخيص المفتاح (14) مرارا وفى المنطق الجمل للخـونجي (15) مرارا ، ومختصر الشيخ السنوسي ونظم الشيخ سيدي عبد الرحـمن الأخضري (16) ، وفى المصطلح ألفية العراقي (71) مـرارا وجمـلة من كتب السير ، وفى الحديث صحيح البخاري ومختصر خليل فى الفقه ، ونظم ابن عاصم فى الأحكام ، كما قرأنا كتاب الشفا للقاضي عياض (18)

---

13 ـ أبو الحسن بن عبد الواحد الأنصاري . تنقل ما بين سجلماسة وفاس والحجاز ومصر فى طلب العلم ثم عاد الى المغرب واستقر بمدينة الجزائر وتصدى للتعليم بها الى أن توفي سنة 1057=/1647 .

14 ـ « تلخيص المفتاح فى المعاني والبيان » للامام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق توفي سنة 739 هـ . « ومفتاح العلوم » لسراج الدين أبي يعقوب .. السكاكي (المتوفي سنة 626 هـ) .

15 ـ الخونجي : محمد بن نماور بن عبد الملك ، الشافعي المتوفي سنة 624 ويسمى كتابه : « جمل القواعد » .

16 ـ السنوسي : محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب .. السنوسي الحسني كبير علماء تلمسان وزهادها . عالم فى التفسير والحديث والتوحيد . نشأ بتلمسان وتوفي بها سنة 895/=1490 ، له : « عقيدة أهل التوحيد » و « العقيدة الوسطى » وتآليف أخرى ذات قيمة .

ـ الأخضري (عبد الرحمن بن محمد الصغير) 918–983/=1512–1575 ، صوفي جزائري ، من أهل بسكرة . له تآليف كثيرة فى البيان والمنطق منها « الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون » (المعاني ـ البيان ـ البديع) و « السلم المرونق » (أرجوزة فى المنطق)و « الدرة البيضاء » فى الفرائض والحساب .

وضريحه مشهور فى زاوية بنطيوس بضواحي بسكرة .

راجع اخباره فى :

الورثلاني : الرحلة ص 87 .

حاجي خليفة : كشف الظنون 2 ص 998 .

الحفناوي : تعريف الخلف 1 ص 63 / 2 ص 404 .

17 ـ ألفية العراقي ـ فى أصول الحديث ، لزين الدين عبد الرحمان بن الحسن العراقي المتوفي 806 هـ ، وقد لخص العراقي فى هذا الكتاب علوم الحديث لابن الصالح وزاد عليه أشياء .

18 ـ أبو الفضل عياض بن موسى السبتي المالكي . فقيه ومؤرخ وأديب وشاعر ، ولد بسبتة سنة 476 هـ = 1083 وتوفي بمراكش سنة 544 / 1149 . له : « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » .

Scanned by CamScanner

مع البردة للامام البوصيري (91) فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، والسينية وعقائد الشيخ السنوسي قراءة ضبط وتحقيق ، وكنت أخذت قبل قدومه الى بلدنا عن غيره من المشائخ ، من أعظمهم وأولاهم شيخ الاسلام سيدي سعيد بن ابراهيم الجزائري (20) امام الجامع الأعظم نفع الله به ونفعه بعلومه وأسكنه بحبوحة الجنان الحديث والفقه والنحو وشيئا من التصوف كالحكم لابن عطاء الله والتنوير ، وعن غيره الحساب والفرائض وشيئا من علم التوقيت الى غير ذلك ، وأخذت عن غير من ذكر الخزرجية (21) بشرحها للشريف الغرناطي ، وأقرأتها للطلبة ماينيف على أربعين ختمة ، كما أخذت لأمية ابن مالـك (22) فى التصريف ، كل ذلك بجد واجتهاد مع التفرغ والاشتغال بالعلوم ، واليوم تشتت البال ، وتبدلت الأحوال ، نسأل الله أن يختم لنا بالحسنى ، ويلحقنا بأسلافنا وأشياخنا غير مبدلين ولا مغيرين ، انه ولي ذلك ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، وهم رضي الله عنهم أخذوا ذلك عن مشايخ جلة من أعلام المغرب والمشرق قراءة واجازة واعلاما ، وها أنا أكملت غرضه وأذنت له أن يروي ذلك عني بشرطه عمن رويته عنه ، ووالله مع هـذا ما ظننت أني فى هذه الطبقة ، ولكن : خلت الديار فسدت غير مسود ، وكان شيخنا أبو عثمان سيدي سعيد بن ابراهيـم يتـأوه عند ذكـر مشيخته ، وينشد لابن الحاجب :

---

19 ـ البوصري : شرف الدين (1213 ـ 1290) ، ولد فى بوصر ، اشتهر بقصيدته «البردة» التي مطلعها :

أمن تذكر جـيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى بمقـلة بدم

20 ـ سعيد بن ابراهيم الجزائري (ويعرف بأبي عثمان سعيد قدورة بن ابراهيم) . ستأتي بعض التفاصيل حول أسرة قدورة .

21 ـ الخزرجية : منظومة فى العروض والقوافي للشريف الغرناطي ومطلعها :

وللشعر ميـزان تسـمى عروضه ... بها النقص والرجحان يدريهما الفتى

22 ـ لامية ابن مالك (محمد بن عبد الله النحوي) المتوفي سنة 672 هـ ، وتسمى أيضا لامية الافعال ومطلعها :

الحمـد لله لا ابغي به بـدلا ... حمدا يبلغ من رضوانه الأمـلا

Scanned by CamScanner

لقد سئمت حياتي اليوم لولا مباحث صاحب الاسكندرية
كأحمد سبط احمد حين يأتي بكل مليحة كالعبقرية
تذكرني مباحثه زمانا واخوانا عهدتهم سرية
زمانا كان الابياري فينا يدرسنا وتغبطنا البرية
مضوا فكأنهم اما منام واما صبيحة اضحت عشية

وكذلك نحن مضى أشياخنا واخواننا الذين كنا نتذاكر معهم ، وتآلفنا بهم ، وخلفنا وتحولت الأحوال ، واشتغل البال ، نسأل الله أن يلحقنا بهم غير مبدلين ولا مغيرين ، بجاه سيد المرسلين ، وكتب عن عجل ، والقلب فى وجل ، صبيحة الأربعاء المكمل عشرين من شهر جمادى عجل عن عام أربعة وتسعين بعد الألف . عبد الله وأصغر عبيده : عمر بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف الجزائري الدار والمنشأ ، المانجلاتي نسبا أصلحه الله وكان له ولذريته وليا ونصيرا آمين آمين والحمد لله رب العالمين .

تمت الاجازة البديعة وبتمامها تمت ترجمة هذا المولى ، الذى خصه الله بعدم المساوى والأولى ، أبقاه الله ، ولا حرمني من لقياه .

* * *

محمد بن عبد المؤمن

ومنهم الفاضل العلامة ، الذي جعل للمحاسن علامة ، فاعترف بفضله كل موقن ، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد المؤمن ، الحسني الجزائري (23) أتم الله نوره ، وأدام سروره ، بمنه وفضله ، غرة مجد فى جبين الجزائر ساطعة ، ودرة فضل فى جيد المكارم لامعة ، وبحر من السماحة زاخر ، أعيى الأوائل والأواخر ، رحل الى المشرق مرارا ،

---

23 ـ محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري ، قاضي المالكية ، توفي سنة 1101/=1689.

Scanned by CamScanner

وانتجع للمعارف قطارا ، وحظى بصحبة شيوخ جلة ، أنهله كل واحد منهم وعله ، وما زال يخطب من عقائل المعاني كل خريدة ، وينظم من جواهر البيان كل فريدة ، حتى أربى على أهل زمانه ، وطاول أحبار أوانه ، وتوغله فى الأدب ، هو الذي أولاه عالي الرتب ، وأهدى اليه السيادة من كل غور ، وأرقاه على القعقاع ابن شور (24) ، اذا سجع كلاما ، أو رصع نظاما ، سحر ببيانه عيانا ، وأسكر بسلافة ابداعه أذهانا ، وان تكلم فى سائر العلوم ، نفس عن المكظوم ، وأحيا قتيل الهموم .

قال كاتبه ، سترت معائبه :

وكنت قبل أن ألقاه ، وتكتحل جفوني بمرآة ، لم أزل مكظوما محزونا ، أكابد من غمرات الاغتراب فنونا ، ولما شمت سناه ، وشممت شذاه ، صحت واطرباه ، ولم أنشد بعد واحر قلباه . وهذا الفاضل ممن بوأه الله المكانة العليا ، وجمع له بين الدين والدنيا ، فهو ينشد اذ كلفا به معا : ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا ، ولم يزل مدة اقامتي بمطافه ، يرشفني أعذب نطاقه ، ويجيش الي من المكارم بأبحر ، ويوليني من المحاسن ما يعمر عمر سبعة أنسر ، حتى شردت فى النوى ، عن ذلك المثوى ، وقد مدحته بقصيد ، ذهب من الابداع فى كل بريد ، ونظم من حلاه كل فريد ، وقطع من عداه كل وريد ، ورفعته اليه ، يوم ختمنا نظم أبي اسحاق التلمساني (25) عليه ، ذلك يوم الثلاثاء آخر ربيع الثاني من عام أربعة وتسعين وألف وهو هذا :

---

24 – القعقاع بن شور (بن‌عقال الذهلي) تابعي ومن كبار الأمراء فى دولة بني أمية ، كان من أعوان عبيد الله بن زياد ، وأحد الضباط الذين شاركوا فى الهجوم على مسلم بن عقيل سنة 60 / 680 م .
وفيه يقول الشاعر :
وكنت جليس قعقاع بن شور ‏ ‏ ‏ ‏ ولا يشقى بقعقاع جليس

25 – ابو اسحاق التلمساني : (ابراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري) فقيه واديب وشاعر . ولد بتلمسان وانتقل الى الأندلس ثم عاد الى سبتة وبقي بها الى ان مات سنة 690 هـ / 1291 م . له نظم فى الفرائض ومنظومات فى مدح النبي .

Scanned by CamScanner

البحـــر قد ابدى سنى نضرته فهـامت الأعـين فى بهجتــه
قـــد خلع الحسـن عليـه حلى وانتظم الابـــداع فى لبتـــه
كانه والشـــمس قد نفضـت شعاعهـــا الأنضـر فى لجنــه
مطـــارف العقيـان قـد طرزت باللازورد الفض مـن زرقتـه
ذكـــرني عهـــدا لنـا قد مضى بـأرض تطـوان علـى ضفتـه
فى جنـــة اربت عـلى « جلـق » علمهـــا الحســن بالويتـــه
ما شئت من نور كـدر عــلى زبرجـد يسـبى سنى خضرته
ومن غصون قد سقاها الحيـــا فعربدت بالرقص مـن خمـرته
دبجهـا النـوار مـن أصفــر يحكى النضـار الفض فى كهبتـه
واحمر يشـبه خـد الـذي انحلني شـوقي الى رؤيتـــه
حيـث المنى تطلعــه قمـرا تنـأى دجى الأحزان مـن طرته
لـم يعـره هجـر يهيـج الجوى ويعطف القلـب عـلى حرقتـه
الا نفـــارا هـو فى طبعـه ان نفـار الظبى من خلقتـــه
ينفـر تيهـا ثم يثنيه مـــا يبصر من وجدي على نفرته
فقلـت اذ ابصـــرته تائهـا كـن راضيـا حبي على ، وته
ولا تعــذبني بنـار الجفـــا يا من حياة الصب فى قبضتـــه
فافتر نظـم الـدر من ثغـره وأين نشر المســك من نكهتـــه
واين بدر التـم مـن وجهــه وأين لمع البـرق مـن غرتــه
واهتز عجبــا بخضـوعي له فأين غصـن البان من هــزته
اي هـــلال فى قضـيب نقى أضاءه الديجـور مـن لمتــه
عانقت من قــامتـه غصنـــا كمـا قطفت الورد من وجنتــه
لــم أصح من سكرى بتعنيقـه الا بتقطيعـي عـلى فرقتـــه
اي زمان قــد مضى مسـرعـا ياحـر انفـاسي عـلى سرعته
لم أنتبه مـن نـوم لـــذته الا بـأشـواقي الى أوبتـــه
يا ليت شعـرى والمنى ربمـــا تساعد المشتـاق فى بغيتـــه
هـــل يدنون القرب بعد النوى ؟ فأقطف الآمـال من ضيعتـــه

Scanned by CamScanner

وهل ارى تلك البدور التي … تزري ببدر الأفق فى طلعته ؟
اجل فجمعي بهم عاجلا … سهل على الرحمان فى قدرته
ما اقدر الله على رد من … ند به البين الى فئته
فيا نسيما من حماهم سرى … شممت عرف المسك من هبته
كيف الربى والمنحنى والنقى … والنهر والروض على ضفته
عهدى بها مرتع كل رشا … لا راعها الدهر بتنحيته
وكيف احبابي وهل علموا … شوقي الذي او بقت فى ازمته
نكبني الدهر بينهم … أشكو الى الرحمان من نكبته
امسيت صبا بالجزائر لا … اعدم شجوا ذبت من لفحته

* * *

لولا ابن عبد المومن المرتضى … قضى فؤادي من لظى لوعته
جعلته قصدي ونعم الذي … يقصده الانسان فى غربته
العالم النحرير من دابه … أن ينقذ الملهوف من كربته
وان يواسي من به شردت … عيس النوى او حاد عن وجهته
انخت آمالي به فانثنت … عاطرة الأنفاس من نفحته
ان تسأل الأحباب عن نزلي … فها أنا انعم فى جنته
اقطف أنوار المنى غضة … تحت ظلال العلم فى حضرته
اثقلني بالبر حتى لقد … أعجز أن أنفك من حوزته
ما شانه عيب سوى أنه … يغضي على مثلي في هفوته
ويسعف الطالب فى قصده … ويسعد الراغب فى رغبته
نزهته فى العلم يدرسه … لا عاقه المقدار من نزهته
افادنا علم الفرائض فى … أدنى مدى أرفل فى مشيته
من درسه النظم الذي صاغه … نجل التلمساني فى صنعته
نظم عقود الدرلم تحكه … ابدع ما ألف فى صفته
أحصى اصول الفن محكمة … وحاكها طرا على نزرته
ناهيك من نظم ومن ناظم … ومن مبين مقتضى حكمته

Scanned by CamScanner

بين ما اشكل من لفظه وحل ما استصعب من عروته
ماذا يقول المرء فى مدحه وقد تناهى الدهر فى خدمته
والشمس اولته اشعتها والبدر حلاه بتحليته
وخيم المجد بساحته وفاض بحر الجود فى بردته
بدر الهدى والعلم يا من غدت تسجد امداحي الى قبلته
خذها على رغم العدى غادة لفعها الصدق بأقبيته
خود زهت اذ بشرت بكم ولفها المجد بأرديته
كم رامها قبلك ذو همة فلم تصخ سمعا الى خطبته
بنت ابن زاكور فمنشأه فاس واهل الفضل من اسرته
صداقها الغالي قبولكها منه فما اغلاه فى نيته
فاسمح له واقبل هديته وعف بالصدق على زلته
لا زلت ذا حال تسوء العدى ما حن ذو بعد الى تربته
والله يبقيك أمام هدى ما غرد القمرى على دوحته

✻ ✻ ✻

ومن أعظم شاهد على سلامته من الدعوى ، التي عمت بها البلوى ، مع بلوغه في كل فن الدرجة القصوى ، أني فى بعض الأيام غلبني الضحك بحضرته ، فظن لحسن نيته ، وجميل طويته ، أن ذلك من عدم معرفته ، فكتبت اليه معتذرا من تلك الهفوة ، مقسما أن ذلك افتتان باقرائه وصبوه ، لا غلظة وجفوة ، بهذه الأبيات :

مهلا على القلب ان القلب قد لسبا اذ قيل حبر الهدى علي قد عتبا
حبر الجزائر لا تنفك محتجبا عن من يمد الى تنكيدكم سببا
لا وحياتك يا ابن الأكرمين أبا ما كان ما فات منا عن قلى عجبا
لكن طربنا بما أبديت من نكت نفيسة أورثتني ضحكا طربا
وقد فهمنا بالذي شربت افكارنا من عقار حكت الضربا
ومن يكن بعقار العلم مصطبحا اجدر به أن يرى من سكره طربا

Scanned by CamScanner

هبنـــا زللنا اما للحـــلم أرديه — سابقـــة ترتديها زلــة الفـربا
ان كان هـذا الذي أبديتـه كـذبا — فــلا قضت مهجتي من علمكم أربا
ولا ركبت جياد العلم مسـرجة — ولا اقتديت بمن هـام بهـا وصبا
ولا ظفـرت بمـا ارجوه من وطر — ولا برحـت أعاني الكـد والوصبـا
ولا حننت الى فـاس وجـيرتهـا — ولا دعاني الى تطوان عـرف صببا

فافتتن رضي الله عنه بشعري ، وتقبل عذري ، وتجاوز من وزري ، وبعث الي بدراهم ، وأغرقني بحرا أمد ببحار من المكارم :

انمـا البشـر روضـة فاذا كـ — ـان وبـذل فـروضـة وغـدير

وهمى علي بعد ذلك جوده الصيب ، بمجلد طيب ، تضمن شعـري أبوي تمام والطيب .

ولهذا المولى أشعار ، أرق من نسمات الأسحار ، ورسائل ، آنق من نفحات الخمائل ، لو قرأهما على الصخر لتفجر ماء صراحا ، ولـو ألقاهما على البحر لصار سلسالا قراحا ، شاهدت من ذلك ما تقر برؤيته العيون الباكية ، ويحسده نسيب عبد الرحمان بن حسان فى رملة بنت معاوية (26) .

وقد أخبرني فى هذه الأيام غير واحد ممن قدم من تلك البلاد من أهل الانتجاع والارتياد ، أنه تولى قضاءها ، ورد عليها بعدله رونقها الذي فقدته وبهاءها ، أبقاه الله يظهر سناها ، وينضر مرآها .

---

26 – عبد الرحمن بن ثابت الانصاري الخزرجي ، شبب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت الخليفة معاوية فقال :

رمل هل تذكرين يـــوم غـــزال — اذ قطعنـــا مســـيرنا بالتمني
اذ تقولين عمرك الله هــل شيــ — ـىء وان جل سوف يسليك عني
أم طمعت يا ابن حســـان فى ذا — ك كما قـــد أراك أطمعت مني

(راجع ترجمة النعمان بن بشير الأنصاري فى كتاب الأغاني) .

Scanned by CamScanner

ولما فرغت من ذلك الطواف ، وعزمت على الانصراف ، سألته أن يجيز لى ما قرأته عليه ، أو سمعته لديه ، فنفث لي بهذا السحر ، من غير أعمال روية ولا فكر ، وهذا نص أجازته :

نص الاجازة الثـانية

الحمد لله الذي أجاز على العمل الحسن الصحيح المقبول أحسن اجازة ، ووعد بوجادة ذلك يوم مناولة الكتاب باليمين وعدا لا يخلف سبحانه انجازه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ولا ضد ولا ند له ، شهادة يضحى بها العمل الموقوف مرفوعا ، ويتصل بها ما كان مقطوعا ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، المرفوع قدره على جميع الخلائق ، المعنعن خبر نعته بأكمل الخلائق ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله صلاة وسلاما يرفع بهما كل معضل ، ويهتدي بهما من جانب سبيل الصواب أو ضل .

وبعد ، فان العلم أشرف ما يتحلى به الانسان ، وأكمل وصف يتكمل به الأعيان ، وقد ورد فى فضل العلم والعلماء ما هو مقرر مشهور ، ومعروف بين أهله مذكور ، وان ممن ضرب فيه بنصيب وافر ، وحصل منه القدر المفيد الظاهر ، الفقيه النبيه ، العالم الوجيه ، اللوذعي الأوحد، جامع الفضائل التي لا تجحد ، أبا عبد الله الشيخ محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد ابن زاكور الفاسي حفظه الله وحرسه ، وبكل المبرات والمسرات انسه ، فانه لما حل حضرة الجزائر ، التي عم أمنها القاطن والزائر ، قرأ معنا صدرا من كتاب « جمع الجوامع » للتاج السبكي وبعضا من تلخيص المفتاح من باب الفصل والوصل ، وأرجوزة ابن التلمساني فى الفرائض ووقعت المشاركة بيننا وبينه فى المسائل العلمية ، والنوادر الأدبية ، فألفيته سابق الحلبة ، ودراك المسائل الصعبة ، فالتمس مني أن أجيزه فيما قرأ معي ، أو سمعه مني ، فاعتذرت اليه من التقصير ، والباع القصير ، وعدم التأهل لأن أجاز

Scanned by CamScanner

فضلا عن أجيز ولست محسنا للاطناب ولا متمكنا من الكلام الوجيز ، فلم يقبل مني ذلك ، وصادف وقتا لم يمكنني فيه اسعافه باجادة ما هنالك، فأجزته بذلك على شرطه المعتبر عند أهله ، باجازة الحافظ الشهير علامة مصر ، وحافظ العصر ، أبي الحسن الشيخ على الشرملسي عن الشيخ ابراهيم اللقاني والشيخ عبد الرحمن اليمني بروايتهما معا عن أبي النجاة الشيخ سالم السنهوري عن الشيخ نجم الدين الغبطي ، عن الشيخ زكرياء عن ابن حجر بسنده المعروف وبسند عال عن الشيخ على المذكور عن شيخ الفقهاء والمحدثين أحمد بن خليل السبكي عن نجم الدين عن الشيخ زكرياء عن ابن حجر ، وكما أجازني أيضا العالم الماهر ، العلم الظاهر ، نزيل مدينة الرسول المطهر ، ومدرس حرمه المكرم المنور ، أبو العباس الشيخ أحمد بن تاج الدين عن شيخ الاسلام، بالبلد الحرام ، جمال الدين الشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي عن شيخ وقته شمس الدين محمد بن أحمد الرملي عن الشيخ زكرياء عن ابن حجر بسنده المتصل وطرقه المعروفة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما أجزته أن يروي عني هذه المنظومة ويشرحها ان أمكنه أو من أهله الله لذلك وله الأجر التام ، والفضل السابغ العام ، وهذا أولها :

أرجوزة محمد بن عبد المومن

يقول راجي رحمة المهيمن ... محمد نجل ابن عبد المومن
الحمد لله وصلى ربي ... على النبي وآله والصحب
وبعد فالقصد بهذا الرجز ... جمع المهم بكلام موجز
من واجب لله والرسول ... ومن فروع لذوي التحصيل
الله موجود قديم باق ... مخالف للخلق بالاطلاق
وقائم بنفسه واحد ... ذاتا وفعلا صفه يعتقد
ثم الوجود صفة نفيسة ... والخمسة الأخرى غدت سلبيه

Scanned by CamScanner

وصفة المعاني سبع : قدرة ... علم ، حياة ، وكذا الارادة
سمع ، كلام ، بصر ، وسم ... سبعا بمعنوية فى النظم
كونه قادرا مريدا عالما ... حيا سميعا مبصرا مكلما
ثم الذي على الاله يستحيل ... العدم ، الفنا ، الحدوث ، والمثيل
والافتقار ، والتعدد ، البكم ... عجز ، وجهل ، موت ،العمى،صمم
كرامة ، وكونه أصما ... وعاجزا ، وجاهلا ، واعمى
وكارها ، وميتا ، وأبكما ... وجائز فعل وترك فاعلما
والعالم الحادث قد دل على ... وجود رب الخلق جل وعلا
لو انتفى القدم كان حادثا ... مفتقرا لمحدث كن باحثا
فيلزم الدور او التسلسل ... ونفى عالم كذاك يحصل
نفى البقا مستلزم نفى القدم ... ان ثبت القدم ينتفى العدم
لو ماثل الخلق الحدوث يلزم ... فينتفي البقاء ثم القدم
لو لم يقم بنفسه كان صفه ... فاحتاج للمحل يا ذا المعرفة
ثم الصفات لم تقم بشان ... من معنوية ولا المعاني
وبهما يتصف الرب الكريم ... ليس اذن بصفة جل العليم
وينتفي العالم مع تعدد ... لعجز ذاك حينئذ فاستفد
هذا اذا ما اتفقا وعندما ... يختلفان ظاهر فلتعلما
وينتفي العالم اذ ما ينتفي ... علم ارادة حياة فاعرف
وقدرة ونقصه جل لدى ... فقد كلام بصر سمع بدا
لو انتفى جواز فعل الممكن ... لانقلبت حقائق فاستبن
للرسل اوجب صدقا الأمانة ... تبليغا ايضا واحل خيانه
وكذبا كتمانا اما الأول ... فالمعجزات حجة يا رجل
وغيره حجته لمن فطن ... كون القبيح فيهما صار حسن
جاز عليهم ما يجوز للأنام ... من عرض ان لم يخل بالمقام
حجته العيان للذي حضر ... والنقل للآتين فافهم الخبر
والأنبيا افضل من رسل الملك ... ورسلهم من صالحي الأنس سلك

Scanned by CamScanner

النسفى وصالحوهم فضلوا ... على الملائك اذا لم يرسلوا
ويجمع القول الذي سقناه ... قولك لا اله الا الله
معناه الاستغنا والافتقار ... له على عباده اقتدار

* * *

هذا تمام القول فى العقائد ... وهاك فى الفروع ذى الفرائد
شرط الوضوء عشرة واربعة ... لصحة او لوجوب او معه
اولهما الاسلام ثم فقد ما ... يمنع مثل حائل وصول ما
ثم انتفا وجود مانع وان ... أردت علم الثاني منها فاستبن
دخول وقت لصلاة وادكار ... عدم اكراه وسهو واقتدار
الحدث الثابت والشك كذا ... وزد بلوغا ثم ثالثا خذا
بلوغ دعوة وعقل وانقطاع ... دم لحيض او نفاس لا نزاع
وجود كافي الما ، وفقد النوم ... والغسل كالوضوء فى ذا الحكم
والفرض نية ووجه ويد ... راس ورجل ثم دلك يقصد
والفور أيضا ثم هاك سننه ... يدا ، فما ، أنفا ، وراسا ، اذنه
ترتيب فرض ثم فرض الغسل ... تعميمك الجسد فافهم أصلى
دلك ، وتخليل ، وفور ، نيه ... سننه غسل يد ومضمضة
مسح الصماخين مع استنشاق ... فرض تيمم على اتساق
ضربة بدء نية وجه يد ... للكوع فور وصعيد يصعد
سننه تجديد ضرب فاقتد ... رتب ومن كوع لمرفق اليد
شرط الوجوب للصلاة فاعلما ... عدم اكراه بلوغ علما
وشرط صحة ، طهارة الحدث ... مع خبث ، والستر فانهم ما ابث
ترك كثير الفعل ، واستقبال ... كذاك الاسلام به الكمال
وللوجوب فاعلمن والصحه ... دخول وقت ، وبلوغ دعوه
قطع دم الحيض مع النفاس ... عقل وغير نائم وناس
ووجود ماء ، وصعيد فاستفد ... بيانها ثم على ذا فاعتمد
وفرضها النية ، والاحرام ... فاتحة ، ولهما القيام

Scanned by CamScanner

ونيـة الصـلاة ، ثم الاقتـدا خفض ورفـع وركـوع قصـدا
كـذا السجـود ، وقيـام للركوع ثم السـلام ، وجلوس للـوقـوع
ثم جلوس الشخص بين السجدات ثم اعتـداله بكـل الواجبـات
سننها جهر باحرام ، سـلام تشهد ، وسـورة مـع القيـام
سر وجهـر ، والجلوس الأول وما تقـدم السـلام يا فـل
وكل تسميـع وتـكبير ورد علـى الامـام ، ثم انصـات ورد
وستـرة وزائـد اطمئنـان لتـركك السنـة سجـدتان
قبـل السـلام ولزيد بعـده ومعهمـا قبـل فحقـق قصده
وتجب الزكـاة ان دين فقـد وتـم ملـك ثم حـول وعـدد
ثـم الصيـام واجـب بنيـه وعـلم شهـر نلتـم الأمنيـه
وتـرك شهـوة الطعـام والجمـاع مـع المقدمات فتـرك النزاع
وواجب الحج طـواف والوقوف والسعي والاحرام للرب الـرءوف
وعمـرة كـذا سوى الوقـوف ليس من الفـرض علـى المعـروف
سننه الـركـوع ، والتلبيـة غسـل وانقـاء كـذلك لبسـة
مشى طـواف ثم تقبيـل الحجر وسـوق هـدى والدعـاء المعتبر
ورمـل اسراع سعى وصعـود علـى الصفـا ثمت يدعو ويعود
ثم المبيـت بمنـى مزذلفـه والجمـع فيـه وكـذا بعرفـه
ثم الدعـا بيومهـا والمشعـر ورمي جمـرة حـلاق يـا سرى
وترك طيب ونسـاء ومخيـط والصيـد أيضـا وكذا كل محيط
فهـاك نظمـا موجـزا مهمـا حـوى المراد عمـلا وعلمـا
ثم الصـلاة والسلام التـالي عـلى النبي وصحبـه والآل

انتهت الأرجوزة البارعة ، الواردة موارد الابداع ومشارعه ، وكفى بنظامها الغريب ، دليلا على أن لصاحبها فى الأدب والعلم اليد الطولى والباع الرحيب ، وبعده بخط الشيخ أبقاه الله الحمد لله قد أتمها كاتبها بحضرة كاتبه محمد بن محمد بن عبد المومن وفقه الله بسنه فى ضحى

Scanned by CamScanner

يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة عام أربعة وتسعين وألف . انتهى .

اجازة الشيخ على الشرملسي لابن عبد المؤمن

ونص اجازة شيخه المولى الشيخ على الشرملسي المشار اليها فى هذه الأجازة حسبما كتبت ذلك من خط شيخنا العلم ، الذي أربى على كل من كتب فى هذا العصر بقلم ، العلامة الحافظ الدراكة أبي عبد الله سيدي محمد بن المولى أبي العباس سيدي أحمد عرف بالكماد القسنطيني حفظه الله من غمرات الزمان ، وأدام النفع به لكل قاص ودان :

« حمدا لمن أطلع فى سماء الفضائل شموسا وأقمارا ، ورفع لمن شاء من عباده عن وجوه عرائس المعاني أستارا وصلاة وسلاما على سيدنا محمد الذي أبدى وأبدع أسرارا وبلغ بحكمته أوطارا ، وعلى آله وأصحابه الذين كساهم الله بالمعارف وقارا ، وبعد فان العلم أشرف شيء يتحلى به الانسان ، وأعظم وصف يتكمل به الأعيان ، وقد ورد فى فضل العلم ما هو مقرر مشهور ، ومعروف بين أهله ومأثور ، فمن ذلك قول الله فى محكم الآيات : يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين وأتوا العلم درجات (27) ، وقوله فى كتابه المكنون : قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون (28) ، وقول النبي عليه السلام : ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع ، ثم ان العلوم وان تفاوتت أقدارها ، وعظمت لدي النفوس أخطارها ، فعلم الحديث من بينها هو الحقيق بأن يشمر له ساق الجد والعناية ، لأنه يحتاج الى اتقان الرواية قبل الدراية ، وقد بذل السلف الصالح فى ذلك هممهم

27 – سورة المجادلة ، آية 12 .

28 – سورة الزمن . آية 9 .

Scanned by CamScanner

العلية ، وأفكارهم الالمعية ، حتى تميزت الأحاديث الصحيحة من الضعيفة ، وبلغوا بذلك المراتب الرفيعة الشريفة ، ثم تقاصرت الهمم ، فلم يبق الا ما اختص الله به هذه الأمة من بين سائر الأمم ، من بقاء الاسناد ، حفظا للشريعة الغراء الى يوم التناد ، والاسناد أصل عظيم ، وخطر جسيم ، وقد قال فيه بعض العلماء : انه كالسيف للمقاتل ، وقال بعضهم أيضا مسيرا اليه : انه كالسلم يصعد عليه ، وشيوخ الافادة اباؤه فى الدين ، ووصلة بينه وبين رب العالمين ، وفى أول صحيح الامام مسلم عن عبد الله بن المبارك : الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء . وقال امامنا الشافعي : الذي يطلب الحديث بلا سبب كحاطب ليل يحمل الحطب وفيه أفعى ، وهو لا يدري ، وقال الامام الطوسي : قرب الأسانيد قرب الى الله تعالى ، هذا وان ممن ضرب فى العلم بنصيب وافر ، وحصل منه على القدر المفيد الظاهر ، الشيخ الفاضل الرحلة العلامة الفهامة الكامل طراز العصابة الهاشمية ، فرع الشجرة الزكية ، صاحب النفس القدسية ، السيد محمد ابن السيد محمد بن السيد عبد المومن الجزائري وفقه الله وأصلحه ، وأحسن سعيه وأنجحه ، فقد حضر الي ، وقرأ علي ، ما تيسرت قراءته من صحيح الامام البخاري قراءة أجاد فيها واستجاد ، وأفاد واستفاد ، ثم التمس مني أن أجيزه برواية ما رواه عني ، وبما قرأه وسمعه مني ، فاستخرت الذي ما خاب من استخاره ، وأجزته برواية ذلك وبرواية جميع ما تحل لي روايته من صحيح الامام البخارى ، ومن صحيح الامام مسلم ، ومن الشفا للقاضي عياض ، ومن الجامع الصغير للجلال السيوطي ومن غيرها من الكتب الحديثية ، كالمواهب اللدنية (29) ، ومن التفاسير والعلوم العقلية والاعتقادية ، بشرطه المقيد عند أهل الحديث والأثر نفعه الله بالعلم والعمل والتقوى ، فانه بخيري الدارين العروة الوثقى والسبب

---

29 — المواهب اللدنية بالمنح المحمدية » — فى السيرة النبوية — للشيخ الامام شهاب الدين ابي العباس احمد .. القسطلاني المصري المتوفي سنة 923 هـ .

Scanned by CamScanner

الأقوى ، ثم اني أعرف أنني أخذت العلوم الشرعية العلمية والعملية ، وآلتها العقلية والنقلية ، أخذ دراية ، وبحث وتحقيق واتقان رواية ، مع جد وتثبت واحكام واتقان ، حسب الطاقة والامكان ، عن أئمة اعلام ، وجهابذة كرام ، يضوع نشرهم ، ويطول ذكرهم ، وأسانيدهم فى غاية الظهور والاشتهار ، كالشمس رابعة النهار ، أذكر ما تيسر ويقرب تناوله دوما للاختصار ، اقتباسا من أنوارهم ، واقتفاء لآثارهم ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، فأقول وبالله التوفيق ، والهداية الى سواء الطريق .

أما صحيح الامام البخاري فاني أرويه سماعا للكثير منه واجازة لسائره عن جمع كثير ، من أجلهم العلم الفرد الشهير ، شيخ المحدثين فى زمانه ، فريد عصره وأوانه ، الشيخ ابراهيم اللقاني ، وشيخ الاقراء طيب النشر حرز الأماني ، الشيخ عبد الرحمن اليماني ، بروايتهما معا عن أبي النجاة سالم السنهوري بقراءته لجميعه على العلامة الفقيه رحلة المحدثين ، محمد نجم الدين الغيطي ، بروايته له عن شيخ الاسلام زكرياء الأنصاري بسنده المعروف ، وأرويه أيضا عاليا كذلك عن شيخ الفقهاء والمحدثين الشهاب أحمد بن خليل السبكي ، عن النجم الغيطي ، عن شيخ الاسلام زكرياء الأنصاري عن الحافظ ابن حجر ، عن الحافظ الكبير أبي الفضل عبد الرحيم العراقي ، عن الجمال عبد الرحيم عرف بابن شاهر الجيش ، عن أبي العباس أحمد بن علي الدمشقي ، عن أبي القاسم هبة الله بن على البوصيري ، عن أبي عبد الله محمد بن بركات ، ويقال ابن هلال السعدي النحوي اللغوي ، عن أم الكرام كريمة بنت أحمد المروزية ، عن أبي الهيثم الكشميهني ، عن أبي عبد الله محمد بن يوسف الفربري عن مؤلفه الامام الحجة محمد بن اسماعيل البخاري .

وأما صحيح الامام مسلم ، فانني أرويه كذلك عاليا عن جماعة من أجلهم العلامة المتفنن ، السند المعمر ، شيخ المالكية ، أبو الحسن على

Scanned by CamScanner

الأجهوري ، عن العلامة بدر الدين القرافي ، عن الجلال السيوطي ، عن شيخ الاسلام علم الدين صالح بن شيخ الاسلام السراج البلقيني ، عن أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي ، عن أبي الحسن علي بن الحسين المعيري ، عن الحافظ أبي الفضل السلامي، عن الحافظ أبي القاسم بن مندة، عن الحافظ أبي بكر الجوزقي ، عن أبي الحسن مكي النيسابوري ، عن مؤلفه الامام الحجة مسلم بن الحجاج رحمه الله . قال الجلال السيوطي : قال الحافظ بن حجر : هذا السند فى غاية العلو ، وهو جميعه بالاجازات .

وأما روايتي للشفا للقاضي عياض ، فانني أرويه سماعا للكثير منه واجازة لسائره عن شيخنا شيخ الاسلام ، خاتمة الأئمة الاعلام ، الشيخ ابراهيم اللقاني ، عن أبي النجاة الشيخ سالم السنهوري ، بسنده المعروف الى مؤلفه .

واما روايتي « للجامع الصغير » (90) للسيوطي ، فانني أرويه عن جماعة ، منهم شيخنا الهامة الشيخ على الجلبي عن شيخ الشافعية على الاطلاق ، ولي الله بالاتفاق ، الشيخ نور الدين علي الزيادي ، والبرهان العلقمي ، أما الزيادي فعن الشيخ السند الشريف يوسف الأرميوني ، عن مؤلفه ، وأما العلقمي فعن أخيه شمس العلماء الاعلام ، محمد مؤلف الحاشية ، عن مؤلفه ، وبحق رواية شيخنا الأجهوري أجازة عن النور على القرافي ، عن مؤلفه الجلال السيوطي ، اجازة .

وأما روايتي لبقية مروياتي من الكتب الحديثية ، فانني أرويها بالطرق المتقدمة فى سند البخاري ، ونعيدها ايضا الى شيخ الاسلام زكرياء ، ثم منه الى مصنفي تلك الكتب .

---

30 ـ « الجامع الصغير من حديث البشير النذير » لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة 911 هـ .

Scanned by CamScanner

وأما روايتي لبقية مروياتي من التفاسير والعلوم العقلية والاعتقادية ، فانني أرويها عن أئمة أجلاء ، محققين مدققين ، منهم بعض من تقدم ذكره ، ومنهم شيخ الاسلام ، علامة الأنام ، الشيخ محي الدين ، عن جده جمال الدين يوسف ، عن والده شيخ الاسلام ، عن أئمة أجلاء محققين ، ومنهم الشيخ فخر الدين الشنواني ، ومنهم الشيخ علم الدين سليمان البابلي ، ومنهم الشيخ سالم الشبشيري ، ومنهم خاتمة المحققين الشيخ أحمد الغنيمي ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن الخياري نزيل المدينة المنورة ، ومنهم غير هؤلاء أيضا ممن يتصل بسند شيخ الاسلام زكرياء الأنصاري رحمه الله ، وبالشيخ نجم الدين الغيطي ، وبالشيخ جلال الدين السيوطي ، ثم منهم الى مؤلفي تلك الكتب وسندهم بذلك معروف مشهور ، ضاعف الله لنا ولهم الأجور بمنه وكرمه أمين .

وأجزته أيضا أن يفيد ذلك لمن شاء متى شاء فى أي وقت شاء اجازة عامة بشرطه المعتبر نفعه الله تعالى به ، هذا والمرجو من فضل الله وكرمه أن يجعلنا من المخلصين ، وأن يحشرنا فى زمرتهم أجمعين ، مع الذين أنعم الله عليهم من الصديقين ، والحمد لله رب العالمين ، قاله الفقير على الشرملسي الشافعي خادم السنة المطهرة بالجامع الأزهر ، سنة ثلاث وثمانين وألف ، من هجرة من له العز والشرف ، وكتبه عنه باذنه الفقير أحمد السنهوري الشافعي وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . انتهت الاجازة المباركة ، وبانتهائها تنتهي ترجمة مولانا الشريف ، المحقق الظريف ، شيخنا أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد المؤمن أبقاه الله فى حلل السيادة رافلا ، وجمعني به عاجلا ، انه على ذلك قدير ، وباجابة من يدعوه جدير . اللهم يا من نضر مراءه ، وألبسه من نور جده صلى الله عليه وسلم وسناه ، متعني بصحبته ، ولا تحرمني من شعاع غرته ، بجاه جده المختار ، سيدنا ومولانا محمد سيد الأبرار ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ما طلعت أقمار وهمعت أمطار .

Scanned by CamScanner

سعيد قدورة

ومنهم الامام العلامة المفتي أبو عبد الله سيدي محمد ابن الامام الاكبر ذي الفضائل المشهورة ، أبي عثمان سيدي سعيد بن ابراهيم عرف بقدوره (31) ، أتم الله نوره ، شيخ الفقه والحديث ، ووارث الشرف القديم والحديث ، تفرع من شجره علم ، وتدرع برود وقار وحلم ، فمحله من الجزائر ، محل السواد من الناظر ، انتهت اليه خطابتها وفتياها ، وحصلت فى يديه آخرتها ودنياها . فاليه يهرع عند اشتباه النوازل ، ويفزع عند اشتداد الزلازل ، وعليه يعتمد فى رواية الآثار ، وتصحيح أسانيد الأخبار ، الى فصاحة ولسن ، جرى بهما فى ميدان الابداع طلق الرسن ، وحلاوة وطلاوة ، ألان بهما قلب كل ذي قساوة ، وعبارة ، عليها رونق ونضارة ، ولسان خلوب ، يقرد عصابات القلوب ، هذا مع أنه لم يرتضع أخلاف الأدب ، ولم يصطبح بسلافه المزرى بالضرب ، أما لو التبس بمور ، ذلك المور ، واقتبس من نور ، ذلك الغور ، فلا يمتري فى أنه يطاول أهل المشرق والمغرب ، ويصير نظيره كعنقاء مغرب ، وامامة والده أبي عثمان ، هي التي أرقته على غيره من الأعيان ، وأولته المراتب الخطيرة ، والفضائل الشهيرة .

سعى معشر كي يلحقوه فبرزت به غرر مشهورة وعلائم

---

31 ـ قدورة : أسرة جزائرية أنجبت عددا من العلماء والأدباء الاجلاء اشتهروا بالافتاء والتدريس ومنهم :

1 ـ الشيخ سعيد قدورة بن الحاج ابراهيم المتوفي سنة 1030 هـ .

2 ـ وولده أبو عثمان سعيد قدورة ـ تفقه بالجزائر ثم رحل الى تلمسان ودرس على أبي عثمان سعيد المقرى ثم عاد الى الجزائر وأقرا وعلم بالجامع الأعظم الى أن توفي بها سنة 1066 هـ = 1656 م .

3 ـ أبو عبد الله محمد بن سعيد قدورة ـ ولد سنة 1043 هـ/=1625 م ـ ولي الافتاء بالجامع الأعظم سنة 1104 هـ = 1693 م . وهو الذي تتلمذه ابن زاكور .

راجع اخبارهم فى تعريف الخلف برجال السلف ، وفى

GONZALEZ (J). — Essai chronologique sur les musulmans célèbres de la ville d'Alger. Alger 1887.

Scanned by CamScanner

سمعت من املائه فى مجلسه الخطير ، جملة وافية من « الجامع الصغير » ، وابوابا من « صحيح البخاري » ، يحمد مواردها المدلج والساري ، سماع دراية ، وتحقيق رواية ، فرأيت من ظرفه ولطفه ما سحر وبهر ، وتنزهت من فهمه وحفظه فى جنه ونهر ، ولما أزف رحيلي، طلبت منه أن يجيزني بما ينقع غليلي ، فأبعد أن يكون من أهل هذا الطريق ، واعتذر بعذر ذهب من اللطافة فى كل طريق ، فلم أزل ألح عليه فى الطلب ، ويمد الي من الموعد بسبب ، حتى كنت من الظعن على قرب ، فكتبت اليه .

ابن زاكور يستجيز الشيخ سعيد قدورة

قد آن ان ينجز الوعد الذي وعدا	من لا نرى حازما قد حازه احدا
ومن حوى العلم والمجد الصراح معا	ومن روى عن أبيه البر والرشدا
سمى خير الورى مفتي الجزائر من	من بحره اغترفت أحبارها مددا
مولاي اسرفت فى أنظار منتظر	اجازة وهي أسنى ما به اعتضدا
لا تمطلنه ففي مطل الغنى أتت	آثار صدق بأن الظلم فيه بدا
وانت اعلم أهل العصر قاطبه	بها ومن لم يقل هذا فقد جحدا
اجز وانجز فلا عريت من شرف	أجازة لم تغادر لكم سندا
اذا ظفرت بها انشدت من طرب	بشرى فقد انجز الاقبال ماوعدا
يا أيها البحر الا ان لجته	ترمي الفوائد والأحكام لا الزبدا
أبقاك ربي ذا حال يغص بها	من راح يضمر بغضا لكم وغدا
ولا يزال سلام كالعبير شذا	يأتيك ما هاج طيرا شجوه فشدا

نص الاجازة الثالثة

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، قد أجبت الفقيه النبيل الأصيل ، المقتني ذخائر نفيس العلوم ونفيس ذخائر الفهوم بالغدو والأصيل ، المحصل لخصال الكمالات كل

Scanned by CamScanner

التحصيل ، حائز قصبات السبق فى ميادين البلاغة على الاجمال والتفصيل ، العلامة النحرير السيد عبد الله محمد بن قاسم بن محمد ابن عبد الواحد الفاسي المعروف بابن زاكور ، كان الله لنا وله دنيا وأخرى ، وأجزته اجازة مطلقة تامة عامة على شروطها المتعارفة عند العلماء القائلين بها فى جميع مقروءاتي معقولا ومنقولا توحيدا ونحوا فليحدث بذلك ان احب عن أشياخي وأشياخهم الى المؤلفين نفعني الله وأياه بهم أمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله أجمعين ، وكتب العبد الفقير الى الله شاكره دائما على ما أسداه وأولاه : محمد بن سعيد بن ابراهيم بن حمودة الجزائري ، وفقه الله لما يحبه ويرضاه أوائل رجب سنة أربع وتسعين بعد الألف . انتهت .

قال كاتبه ، سالمته أفاعي الزمان وعقاربه :

هذا آخر من أجازني بمدية الجزائر ، من ولاة الأحكام ورقاة المنابر .

اخبار أبي عبد الله بن خليفة

ومن لقيته بها ووجهت خطابي اليه ، الا أنه اخترمته المنية اثر سقوطي عليه ، وقبل أن يجيزني فيما لديه ، الشيخ المسن البركة ، الحائز قصب السبق فى فنون مشتركة ، شيخ المشايخ ، الذي له فى تحقيق العلوم قدم راسخ ، أبو عبد الله ابن خليفة لا زال رضوان الله حليفه ، هو وان شرست أخلاقه ، ولم يحل مذاقه ، وضاقت أكنافه ، ولم ترد بحار الكمال أوصافه ، فاضل علامة ، رحالة مجذامة ، صحب فى تحصيل العلم الصالح والطالح ، وركب فى تطلبه العذب والمالح ، وما برح يكابد لأجله حرة تحتها قرة ، ويسيغ من أشربة الاغتراب المزة والمرة ، حتى ظفر بما يذكر به ما اختلفت الدرة والجرة ، فتوشح ببيضه الرقاق ، أثناء مصاحبته الرفاق ، وخبز من دقيق الجردق

Scanned by CamScanner

والرقاق ، أيام جولانه فى الآفاق ، دخل مصر وهو غلان ، لسلسبيل البيان ، فكرع فى غديره ، حتى تضلع من نميره ، وأحرم بمطافه ، حتى تروى من نطافه ، فآب الى الجزائر بعد أن ألحم من أسراره وأشحم ، واقتبس من أنواره ما ينجلى به الليل الأسحم ، وجيده بعقوده محلى ، وقد فاز من قداحه بالرقيب والمعلى ، فتصيع بين جداولها بحرا وطلع فى سماء معارفها بين دراريها بدرا ، وتصدى للتدريس والتصنيف ، وتردى بحلتى التقديس والتشريف ، وتميز بين أولئك الأعيان ، بحمل راية البراعة والتبيان ، وصال على الجميع ، بألوية محسنات البديع ، ومع هذا فنسبته من شيخنا أبي حفص أبقاه الله وان كان أكبر منه سنا نسبة الحفر من البحر ، والطل من الوبل .

قال كاتبه حسنت سيره ومذاهبه :

اجتمعت به مرارا ، والتقطت من فوائده دررا كبارا ، وأعلمني بشرحه على « السلم المرونق » (39) ، وندبني الى كتبه وشوق ، وأخبرني رضي الله عنه لما رآه من نشيتي وحرصى ، أنه لقى بمصر الشيخ المحقق العلامة يس الحمصى ، وأخذ عنه أخذ ذوى العرفان ، فن المعاني والبديع والبيان ، وقرأ عليه مختصر سعد الدين على التخليص ، قراءة تحقيق وتدقيق وبحث وتمحيص ، ففاز من ذلك بأوفر نصيب ، وحصل منه على روض خصيب ، ولما شنف سمعي بما شنف ، اشرأب عزمي الى قراءة ذلك الكتاب عليه وتشوف ، وسلوت بذلك عن مغازلة كل مهفهف أهيف ، فخاطبته راغبا فى ذلك بما نصه :

---

32 ـ « السلم المرونق » فى المنطق لعبد الرحمن بن محمد الصغير الأخضري .

ومطلع الأرجوزة :

الحمدُ لله الذي قد اخرجا نتائج الفكر لأرباب الحجا

Scanned by CamScanner

رسالة ابن زاكور لابن خليفة

ما للبيان خليفه	الا الرضى ابن خليفه
بين لنا مقتضاه	يا ربه وحليفه
بقيت فذا مفيدا	غر المعاني الشريفه
يا بحر علم طمى فى	برود حلم كثيفه

وذيلتها بما نصه : سيدي أبقاكم الله سالمين ، ولعرى المعاني الرقيقة فاصمين ، يرغب كاتبه أفقر العبيد ، الى ذي العرش المجيد ، من هو فى قبائح أوزاره مأسور ، محمد بن قاسم بن محمد الفاسي عرف بابن زاكور ، أن تتحفوه بقربكم فى بعض الأوقات بمجمع ، يكون فيه بمرأى منكم ومسمع ، يقرأ عليكم فيه مختصر سعد الدين التفتزاني ، على تلخيص مفتاح البيان والبديع والمعاني ، وغرضه الأخذ عنكم ، والتماس البركة منكم ، فأنتم بدور كمال هذه الآفاق ، أمنها الله من الأفول والمحاق ، والله سبحانه يحسن المقاصد والنيات ، ويسهل النتائج على من شرع فى المقدمات ، بجاه نبيه الكريم ورسوله الرؤوف بالمؤمنين الرحيم ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أهل الدين القويم ، ورضي الله تعالى عمن نهج صراطهم المستقيم ، الى يوم لا يغنى فيه حميم عن حميم ، ولا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ، ولا زال سلامنا العاطر ، المفاوح لشذا الروض الماطر ، تترى عليكم نفحاته ، ورحمة الله وبركاته ، انتهى . فوعدني رضي الله عنه بالاسعاد فى رغبتي ، والاسعاف فى طلبتي ، حين يختم تفسير القرآن المجيد ، وكان من ذلك الغرض غير بعيد .

وفاة ابن خليفة

فلما أورده أمله منهله ، حضره أجله وما أمهله ، فاقتطفته المنية أثر بلوغ تلك الأمنية ، وتاقت نفسه الى التنعم فى رياض الجنة باجتناء

Scanned by CamScanner

وقطف ، يوم الأربعاء فى عقب ربيع الثاني من شهور أربعة وتسعين وألف ، فاغبرت لفقده تلك البلاد ، ورميت على أثر ثكلة بداهية نئاد ، وزحف اليها الهول بالضح والريح ، وغادر أهلها بين قتيل وجريح ، ما كان الا ريثما أنزلوه عن تلك الذرى ، وأودعوه بطن الثرى ، حتى

هجوم النصارى على الجزائر

التخ أمرها ، وغص بسفائن النصارى بحرها (33) فزلزلوا قصورهم النواضر ، بصواعق أمثال القناطر ، ورجموا مصانعهم العادية ، بشهب هنداوانية عادية ، وما أدراك ماهية ، نار حامية ، لها صعقة الرعد القاصف ، وسرعة الرعد الخاطف ، وهجوم السيل ، وشمول ظلام الليل ، الى نار ترمى بشرر كالقصر ، ورائحة تصرع من على مسافة القصر ، اللهم قنا شرها وجنبنا يا مولانا مكرها ، اللهم ارفع عن تلك المنازل ، هذه الزلازل ، وغلبهم على ذلك العدو النازل ، اللهم اكشف عن بدور تلك القصور ، سحائب الغرور ، وحل بينهم وبين مواقع الفتن بسور ، يغص به كل كفور ، فبيدك مقاليد الأمور ، وعندك بحار الخيرات التي لا تغور ، وكفى بما ذكرناه دليلا على ديانته ، وفضله وولايته .

---

33 — شاهد ابن زاكور غارة فرنسا على الجزائر بقيادة دوكيسن (Duquesne) سنة 1683 . ونلاحظ أن هذه الهجومات الفرنسية كانت فى عهد الملك لويس الرابع عشر (Louis XIV) الذي صرح أكثر من مرة انه يدمر مدينة الجزائر .

ويعلل الاستاذ كابوري (Capot-Rey) موقف فرنسا آنذاك فيقول :

« La France jalouse de l'honneur de son Roi... Servir le roi dans le négoce semblait mesquin, roturier ; la guerre étant infiniment plus glorieuse. Heureux qui pourra venger une insulte et donner aux armes de France un lustre nouveau... Depuis 1666 et 1672 Algériens et Tunisiens étaient en paix avec la France et désiraient y rester. La France au contraire inclinait à la guerre. D'ailleurs Louis XIV n'avait-il pas annoncé sa volonté de détruire Alger ? En 1683 la guerre contre les Barbaresques servit de prétexte pour se dérober aux appels du pape... ».

(La politique française et le Maghreb méditerranéen 1643-1685.

راجع كذلك :

La Roncière (*Ch. de*) ; Le bombardement d'Alger en 1683 - BSGA 1916.

Scanned by CamScanner

ثكل ابن خليفة

وحدثني فى حياته بعض الاخوان ، الملازمين له فى غالب الأزمان . أنه فجع بموت ولده ، وخيف من ذلك تصديع كبده ، فلم يجزع لماته . ولم يضجر لفواته ، واستعان على رزيته بالصبر ، ابتغاء الثواب وحصول الأجر ، ما كان الا قدر ما أدرجه فى كفنه ، وأضجعه فى مدفنه حتى أقبل الى حلقته ، وما حبسه عنها أوار حرقته ، فقيل له فى ذلك ، تعجبا من فرط صبره على ذلك الهالك ، فقال رضي الله عنه : لا أصطلي نار حرقتين ، ولا أجمع بين مصيبتين ، فجعل من أرزائه ، ترك أقرائه ، وسوى ثكل ابنه ، بعدم الافادة فى ذلك اليوم بعينه :

اذا كنت اعلم علما يقينا ... بأن جميع حياتي كساعه
فلم لا اكون ضنينا بها ... وأجعلها فى صلاح وطاعة

وصدق رضي الله عنه فذلك هو الثكل الأكبر ، الصدع الذي لا يجبر ، فما أخلفه بالبكاء عليه والعويل ، وأن يقال عند حصول موانعه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فعليه يحسن التفجع ، ويطلب التوجع ، لا على حظ من الدنيا مبخوس ، مجبول على كد القلوب وتعب النفوس .

اللهم لا تجعلنا من المفتونين بطاووس خيالها ، ولا تغرقنا يا مولانا فى قاموس أهوالها ، اللهم اجعل لنا من ليل همها الذي سجا ، فرجا ومخرجا ، اللهم انا نعوذ بك من اجتناب كل فضيلة ، وارتكاب كل رذيلة ، وأن نكون يا مولانا ممن يقال فيه : أحشفا وسوء كيلة ، ان مات فبه لا بظبى ، وان عاش فحلف هوان وخزى ، اللهم انه ليس لي على الدهر حق يلطه ، الا عقل حمل العزم بطيبة وربطه ، والقاء وقر الشوق عن مطاه وحطه ، اللهم أنعم علي باقتضاء ديني ، وأقر بذلك عيني ، وحل بين مطل الأيام وبيني ، قبل أن يفاجئني حين حين ، بجاه

Scanned by CamScanner

من اصطفيته على العالمين ، وأرسلته الى الخلائق أجمعين ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ، فان ذلك عليك يسير ، وفضلك يا مولانا بالاجابة جدير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

❋ ❋ ❋

وليكن هذا المولى خاتمة من أردنا ذكره من أعلام هذه البلاد ، من حاضر وباد ، وانما لم أحفل بسواهم ، ممن تبوأ ذراهم ، اكتفاء بالبحار ، عن الجداول والأنهار ، واستغناء بشموس النهار ، عن الدرارى والأقمار ، وحرصا على اتيان بيوت المعارف من أبوابها ، وتلقى درر المحاسن عن أربابها ، واستمساك طريق الأخذ والرواية بأوثق عراها وأمتن أسبابها ، اذ كل من سواهم ممن لم أزره ، ولم أقل نه ما اسمك لم أذكره ، أو لم يطل مقامي لديه ، ولا عرجت فى طلب الاجازة عليه ، فمنهم مقرع ، وبمطارف محاسنهم مدرع ، على أن بعض من ذكرته أصل البعض فى بعض الفنون ، وبحر جوهره الأسنى فيها ولؤلؤه المكنون ، لكن تفرعه عن غيره ، وتضلعي من بحره ، وصفاء دره ، هو الذي أوجب اذاعة ذكره ، واشاعة شكره ، لا زالت أنوار معارفهم تغص بها البدور ، وأخبار محاسنهم تنجد وتغور ، ولا برحت حلاهم تطاول الفوائد ، فى أطواق الخرائد .

مغـــادرة الجزائر

ثم امتطيت للنوى ، عن ذلك المأوى ، ثبج ذلك البحر البعيد المهوى ، وحصل من الوجد عند فراق تلك الجزيرة ، ما لم يحصل لمغيث اذ فارقته بريرة (34) .

وقـد اغـدت بنا فى اليـم جاريـة   سوداء لا تستطيع الجري فى يبس

34 – تأثر ابن زاكور الى حد بعيد بأمهات الكتب الأندلسية مثل الامالي والاحاطة والذخيرة والعقد الفريد وقلائد العقيان .

Scanned by CamScanner

الترجمانة الكبرى

الرحلة إلى المشرق

العودة منه

Scanned by CamScanner

[library stamp]

I

الزياني ينزل بوهـــران

« .. فقطعت جبل بني يزناتن لناحية البحر وقصدت مدينة وهران(1) التي بها الباي محمد بن عثمان (2) . ولما اجتمعت به أظهر التأســف

---

1 ـ **وهران** : أبرمت الجزائر (فى عهد محمد بن عثمان) وأسبانيا (أيام كارلوس الثالث) معاهدة سلم وذلك سنة 1786 .

غير أن الداي الذي صالح العدو برا وبحرا وكل أمر وهران لمحمد بن عثمان باي الغرب المقيم بمعسكر ، وكان مصمما على طرد النصارى من وهران ، فبادرهـم بالحرب النفسية ثم قرر اقامة الرباط للتضييق على المحتل واختطاف من برز منهم وأسقط المطالب المخزنية على من ارتحل اليها من الرعية .

وكان الزلزال المهول فى 7 صفر 1205/8ـ9 أكتوبر 1790 فسقطت الديار بالمرة ، ثم خرج الباى من معسكر ونزل قرب أسوار وهران ووضع المدافع على القمم مثل (المائدة) وقسم الجيش الى ثلاث لكل موقعه ومهمته .

وبدأت المفاوضات بين الأسبان والجزائر فى أواخر 1790 واقترح النصارى أن يتخلوا عن المدينة شرط أن يبقوا بالمرسى الكبير فامتنع الباي . ثم كانت بين الطرفين هدنة (مارس ـ أفريل 1791) ثم استؤنف القتال واشتد ورمى المسلمون العدو من الجبل وقصفوا مواقعه فضاقت أرجاء البلاد بالنصارى ، وأثناء الحرب توفي بالجزائر الداي محمد (12 جوليت 1791) وخلفه حسن خزناجي ، فحصل اتفاق بين الجانبين ينص على انسحاب العدو من وهران والمرسى الكبير ويتركهـا على حالتها فى 1732 ، وشرع الأسبان فى هدم ما بنوا مثل برج الفرنسيين وبعد ذلك ارتحل الجنود والمدنيون الى قرطاجنة وبقي بوهران حوالي ثمانين أسرة دخل معظم أفرادها فى خدمة الباي .

وفى فيفري 1792 انتقل محمد باي من معسكر الى وهران ، وهكذا « رجع الينا ما يسلي عن أرض الأندلس » (بوراس الناصري) .

2 ـ **محمد الكبير** : هو محمد بن عثمان بن ابراهيم الكردي (الملقب بمحمد الكبير بعد فتح وهران) . بدأ قائدا على فليتة ثم خليفة للباي ثم ارتقى باي بمعسكر وذلك سنة 1780 . ثم قام يحارب الأسبان المحتلين لوهران الى أن أخرجهم منها وجعل منها مقره فى 1792 وبقي على رأس بايلك الغرب الى 1799 .

ـ لفتت شخصيته وأعماله اهتمام الكثير من الأدباء والمؤرخين المسلمين والأفرنج الذين سجلوا أخباره وخلدوا ذكره . يقول ابن سحنون : « وناهيك أن صلاته وصلت مكة والمدينة ومصر لأكابر علمائها كالشيخ المرتضى .. وفقراء الحرمين وأهل السقـاية بمكة وخدمة الروضة الشريفة » الثغر الجماني ص 144 .

ـ وشاع كرمه وذاع صيته فى المغرب الأقصى ، يقول ابن سحنون : « وقصدته أبناء الملوك والأعوان ، فكان ملك المغرب الأعظم وطوده الأفخم الخليفة الجليل سيدي محمد

Scanned by CamScanner

وهران في القرن الثامن عشر

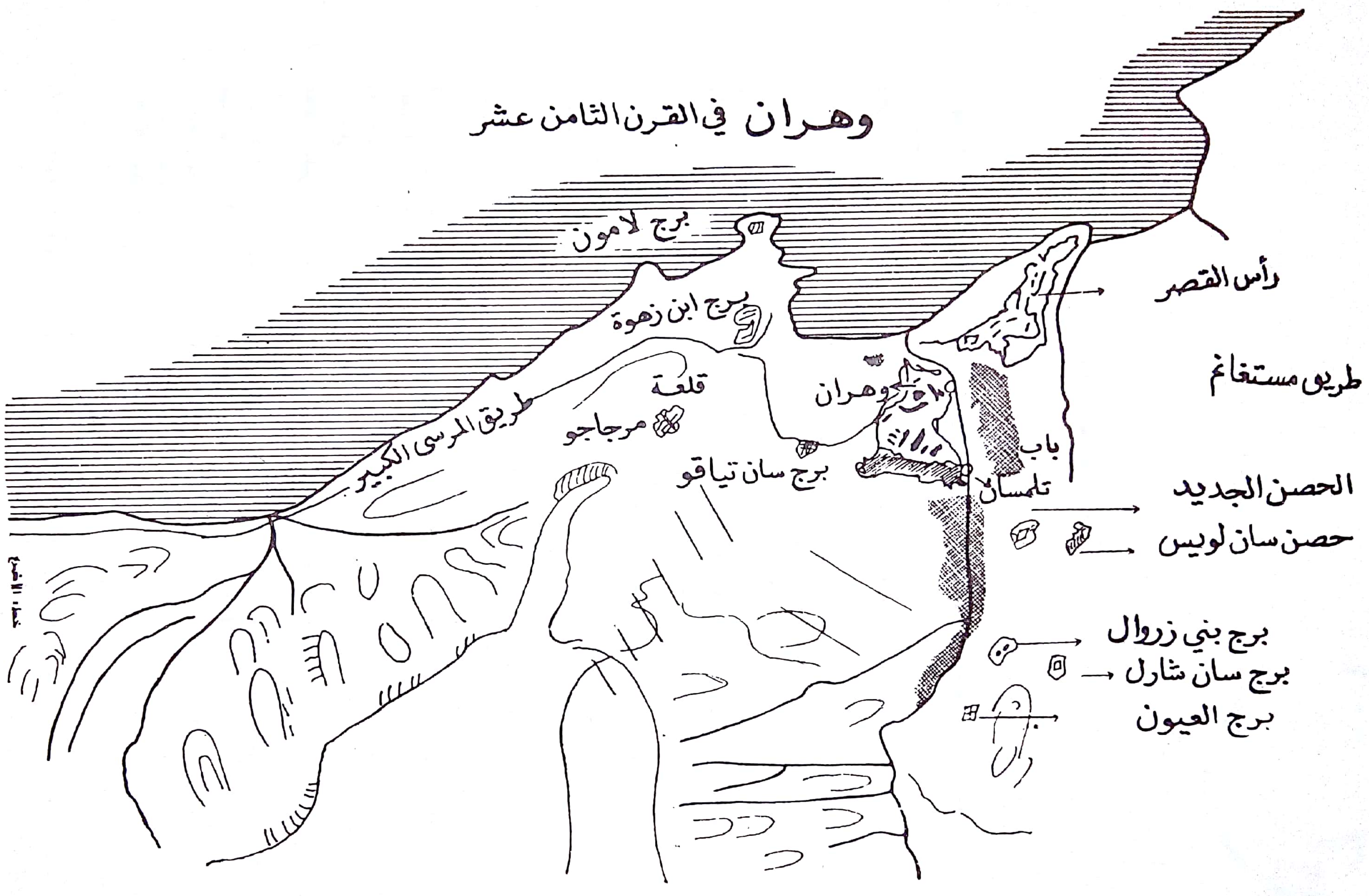

Scanned by CamScanner

والتوجع على ما أصابنا وأقسم أنه لا يترك الأخذ بثأرنا من عرب أنقاد (3) ، وقال الحمد لله حيث سلمت وبلغتنا فطب نفسا وقر عينا فانا نخلف لك جميع ما ضاع .

وشرع فى السؤال عن ملك الغرب وكيف حال أولاد السلطان سيدي محمد ، ومن هو القائم بأمرهم ، فقلت ان السلطان مولاى سليمان (4)

يتبع الهامش الثاني

بن عبد الله بن اسماعيل لا تنقطع عنه هداياه ولا تنزر منه هو على رسله عطاياه وكذلك ولده اليوم بعده وكذا جميع الأمراء المعتمد بهم كأمير قسنطينة وتيطري وسلطان توسي .. وخليفة المغرب اليوم مولاى يزيد مر بنا ذاهبا للحج فتلقاه بأعظم مما تلقى به أخاه وأنزله ببستانه الفياح وأحسن اليه ، ولما مات مولاي محمد وجفى ولده كبار قواده وقتل من شاذ منهم هرب الى أميرنا المنصور أقربهم اليه ابن خاله المشهور بابن خدة ففاض عليه احسانه وبره ..» «ص 145»

– وقدوم الزياني الى وهران لا يختلف عن قدوم غيره من حيث الدافع ولا يختلف راى الغربيين فى محمد الكبير عن رأي المسلمين .

يقول العالم النباتي Desfontaines الذي قضى أياما بمعسكر سنة 1784 :

« Le Bey de Mascara aime les Chrétiens et les traite avec bonté et douceur ; ses esclaves, au nombre de 50, tous fugitifs d'Oran et parmi lesquelles il y a beaucoup ed Français, mènent une vie fort douce. Il leur distribue des vivres et de l'argent pour satisfaire leurs besoins... ». Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger - Paris 1838, 2 vol.

ويقول أسيره ووزيره تيدنا (Thédénat) فى مذكراته :

« Il était rempli d'humanité et d'un très bon caractère. Il joignait à cela des connaissances qui ne sont guère susceptibles aux gens de sa nation... » R.A. 1948.

راجع :

– أحمد بن محمد .. بن سحنون صاحب : « الثغر الجماني فى ابتسام الثغر الوهراني » .

– أبو راس الناصري صاحب : « عجائب الأسفار ولطائف الأخبار » .

– محمد بن زرفة صاحب : « الرحلة القمرية فى السيرة المحمدية » .

– أحمد بن هطال : « رحلة محمد الكبير – باي الغرب – الى الجنوب الصحراوي » .

Gorgos : *Notice sur le Bey d'Oran Mohamed El Kebir* R.A. TI (1856) pp. 403 à 416. II (1857) pp. 23 sq., 223 sq., III (1858) p. 51, 185, 286.

Guin : *Note sur le Bey Mohamed El Kebir* R.A. t. VII, p. 293.

3 – **عرب انقاد :** أهم قبيلة كانت ولا تزال تقطن بسهل وجدة ، وهم عرب رحال نزلوا بالمكان فى القرن الرابع عشر بأمر من ملوك تلمسان ، وفى الصراع القائم بين ملوك فاس وملوك تلمسان كان انقاد تارة بجانب هؤلاء وتارة بجانب اولئك .

4 – **سلاطين المغرب** فى هذه الفترة هم :

1 – محمد بن عبد الله وحكمه : 1757 – 1790 .

2 – يزيد 1790 – 1792 .

Scanned by CamScanner

صاحب عقل وعلم ودين وكل الناس راغبون فيه ومحبون له . فقال : وهل عنده مال فقلت : نعم عنده ما يقوم به الآن من المال ومن الرعايا لا ينقطع . فنظر الى كاتبه الكبير نظر المنكر ثم قال : ذهب ملك المغرب مع مولاى محمد . فقلت له : والله أن هذا السلطان مثله وأكثر فى العدل والرفق والسياسة ، وهو الذي يبني مجد والده ويزيد عليه فنظر الى كاتبه نظر المنكر ثم قال : ذهب ملك المغرب مع مولاى محمد . فقلت له: والله أن هذا السلطان مثله وأكثر فى العدل والرفق والسياسة ، وهو الذي يبني مجد والده ويزيد عليه فنظر الى كاتبه نظر المنكر كأنه يزيف قولي . ثم حضر سفرة غذائية ، فنزل عن سريره وجلس اليها وقربني وأمر كتابه بالأكل معنا .

ولما فرغنا أمر كاتبه الكبير أن ينزلني عنده بداره ، ومن الغد وجه لي وحدثني بحديثه الأول فعدت لجوابي . فقال : أقول لك الحق أن ملك المغرب تشتت وأولاد مولاى محمد لا تقوم لهم قائمة ولا يزالون فى الحروب بينهم الى أن يأتيهم من يخرجهم عن المغرب البتة . فاحمد الله الذي نجاك وسلم ذلك وبلغك الى ها هنا فسترى وتسمع .

وأمر كاتبه الكبير أن يتوجه معي حتى يريني قصبة وهران وأبراجها (5)

---

3 ـ مولاي سليمان 1792 ـ 1822 .
وتميز حكم مولاي سليمان بربط علاقات يسلاها التفهم وحسن الجوار مع الجزائر وبناء على هذه السياسة سلمه باي وهران سنة 1797 مدينة وجدة التي كانت فى يد الجزائريين .

5 ـ **انظر الخريطة فى الكتاب :**
كانت وهران محاطة بالأبراج المحصنة ذات القوة الدفاعية وهي صعبة المرام لكل منها خندق يدور به . قال ابن سحنون :

كأنما أبراجها هضاب — من فوقها أسد الشر غضاب
كأنما خندقها نطاق — ودونه السور فلا يطاق
كأنما أسوارها سوار — كم رد عنها من فتي أسوار
كأنما قلعتها المنيفة — سحابة من فوقها كثيفة

(الثغر الجماني ص 184 ـ 185)

Scanned by CamScanner

ومدافعها ومخازنها لأنها فتحت على يده تلك السنة (6) فمضى بي وأوقفني على ذلك كله ورجعنا لمنزله .

ولما جلسنا تكلم معي الكاتب فى شأن المقام عندهم . فقلت : لا يمكنني هذا فاني أريد أن أتوجه لتلمسان لعل أن يأتي خبر من عند السلطان أو يكون رد لما ذهب لنا ، وأكون قريبا لخبر ما يأتي من المغرب ، فأريد منك أن تكلم الباي فى توجيهنا لتلمسان والمقام بها الى أن يأتينا الفرج بما يبرره القدر .

ولما توجه له أخبره الخبر ، وجه لي ، ولما قدمت عليه قال اني أشفقت من حالك وأردت تستريح عندنا . وأما الرد الذي ذكرت فلا يكون الا منا وعلى يدنا . وأما انتظارك ما يأتي من المغرب فضرب فى حديد بارد . وان لم ترد المقام عندنا وأردت التوجه لتلمسان نوجهك لها .

أكتب له كتابا للقائد مصطفى وقل له يستوصي به خيرا وينزله بداره ويكرمه ويؤنس وحشته ولا ينقطع عنه حتى يأتيه الخبر من سلطان ووجه معه فارسين يبلغان معه الى تلمسان ، فكتب الكتاب ودفعه لي وأدعته وانصرفت .

تاريخ وهـــران

وهذه وهران من بناء الروم قبل الاسلام (7) ، ثم فتحت فى الاسلام

---

6 ـ كتب الباي محمد الكبير رسالة الى الملوك يقول : « حل بها الاسلام أول الربيع وهو الرابع من رجب سنة ست ومائتين وألف وأصبح بها قريرا بعد أن تغرب عنها ستين سنة (1732 ـ 1792) لا يحملها الا مجتازا أو أسيرا .. »
(الثغر الجماني 463)

7 ـ **تاسس المدينة** : اختلف المؤرخون والجغرافيون فى تحديد هذا التأسيس ، وفى أول من اختطها .
ففريق ـ ومنهم الغربيون ـ يذهب الى أن وهران قديمة بنيت فى مكان بين أرزو والمرسى الكبير يعرف بكويزا (Quiza)
وفريق يحدد تأسيسها فى سنة 290 هـ / = 903 ، وحكمها منذ ذلك الوقت دول عديدة اما بصفة مباشرة واما بواسطة العمال والخلفاء ، وهذه الدول هي : بنو امية (قرطبة) ـ الفاطميون ـ المرابطون ـ الموحدون ـ الزيانيون ـ المرينيون ـ الزيانيون (ثانية) ـ الأسبان ـ الأتراك .
راجع :

Basset (R.) : *Fastes chronologiques de la ville d'Oran pendant la période arabe*. Paris-Oran, 1882.

Scanned by CamScanner

واستولى عليها بنو يفرن ثم الأدارسة بعدهم ثم الشيعة ثم زناتة ثم زناتة ثم صنهاجة ثم لمتونة ثم الموحدون ثم بنو عبد الواد ثم الاصبنيول ثم فتحها الترك أيام سليمان العثماني (8) ولا زالت بأيديهم .

سفر الوزير الى تلمسان واقامته بهـا

ولما أصبح جاءني الفارسان وسرت معهما ودفعت لهما الكتاب الذي كتب لي . وقلت آتركاه عندكما الى أن تدفعاه للقائد ، ولما ظهرت لنا تلمسان تقدمت عندهم وتركتهم مع أصحابي وأسرعت ، ولما بلغت باب تلمسان وجلست فى ظل المسجد الأدريسي القديم الى أن وصلاني فقالا لي ، اعزل لنا كتابك من كتاب الباي وأعطانيهما ففتحت الأول فوجدته كتب للقائد كتابا بخلاف ما كتب لي ، وأنه لا يصرف علي درهما واحدا ولا يخلص كراء الدار ولا ينفعني بشيء قل أو جل ، فلما رأيت ذلك استرحت وقبضت الكتاب الذي أعطيتهما ودفعت لهما كتابهما وعصمني الله من تلك الفضيحة حيث لم يدفع الكتاب الذي كتب لي ، ولما بلغا بالكتاب الى القائد مصطفى وجه لي خدامه فوجدوني أنتظر أصحابي بباب المسجد ، ولما قدموا توجهوا معي الى داره فأنزلني فى غرفة عنده ، وأضافني ثلاثة أيام ، واكترى لي دارا وقال لي ادفع لصاحبها كراءها حسبما كتب له صاحبه جزاه الله خيرا .

ولما دخلت مدينة تلمسان ، التي لا يعرفني بها انسان ، خالي الكيس من النقير والقطمير ، ولا معين ولا أنيس ولا مشير ، فكنت أقصد المسجد الجامع لعلي أجتمع برئيس ، أو أظفر بخل أتخذه لـوحشتي أنيسا ، وأبحث عن الأعيان والأعلام ، وأهل المحابر والأقلام ، وكان يمر بي رجل بهي المنظر ، نظيف الثياب صقيـل المغفر ، يلطخني شزرا ويميل عني كبرا ، يطرق النادي ، ولا يسلم ، ويبخل بالجـواب عـن المتكلم ، يرى أنه من الطبقة العليا ، وفوق المريخ والثريا ، أحسبـه

8 ـ هذا خطأ ، والصحيح أن السلطان هو سليم الثالث (1789 ـ 1807) .

Scanned by CamScanner

من جهابذة الاعلام ، وممن له الصدارة بين شيوخ الاسلام ، فقصد الكرسي يميس ويتبختر ، وصعد على أدراجه يتنثر ، فدنوت منه شغفا بعادتي ، وجرني لقربه نبلي وبراعتي لأغترف من بحره ، وأنال لطيفة من وفره ، فلم أجد فى سفرته ثمرا منه ألتقط ، ولا فى روضته زهرا بقطافه أغتبط ، وكنت أعتقد أن حركاتي لا تبطي ، وفراستي لا تخطىء ، فرجعت على نفسي باللوم ، وجفاني فى تلك الليلة النوم ، حيث انخدعت بحسن الثياب وتيه الغلمان ، وتذكرت قصيدة السلطان أبي سعيد عثمان (9) التي منها :

فما ينفع الفتيان حسن وجوههم اذا كانت الأفعال غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يمان

وقلت : بماذا يفتخر هذا ويتكبر ، ويجر ذيوله علينا ويتجبر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعنيهما أدخلته النار ، وقال عليه السلام : لا ينظر الله يوم القيامة اليه ، وقال المتنبي :

وما الحسن فى وجه الفتي شرفا له اذا لم يكن فى فعله والخلائق

وقال الشريف الرضي :

لا تجعلن دليل المرء صورته كم مخبر سمج فى منظر حسن

وقال منصور المصري فى الكبر والتيه :

تتيه وجسمك من نطفة وأنت به عالم تعلم

---

9 - ابو سعيد عثمان : هل هو ابو سعيد عثمان الاول بن يغمراسن (1282 - 1303 ؛ ام ابو سعيد الثاني بن عبد الرحمان (1348 - 1352) ، ام ابو سعيد عثمان المريني (1310 - 1331) ؟

Scanned by CamScanner

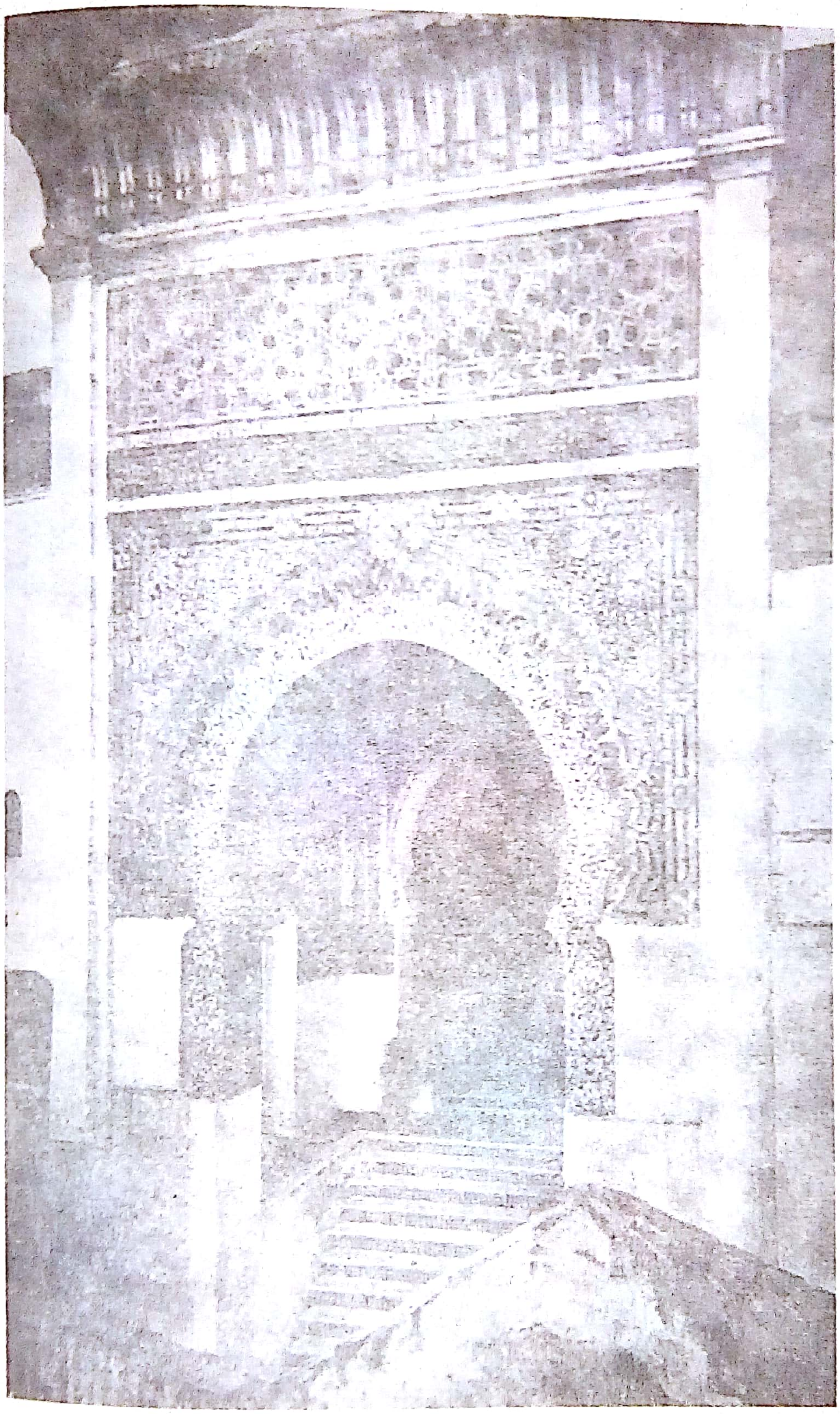

مسجد سيدي أبي مدين بتلمسان

Scanned by CamScanner

هجـــاء قاضي المواريث

ولما سألت عن حاله ومنصبه المغتر بجماله ، قيل لي انه قاضي المواريث ، من محلى الخبائث ، فحينئذ قطعت نظري عن الأنيس ، ونزهت نفسي عن تكبر كل خسيس ، وقصدت قرية أبي مدين بالعباد ، واعتزلت بها عن العباد ، وقلت مخاطبا لهذا المتكبر الذي هم بقسم الترائك يفتخر بهذه الأبيات :

يا من تكبر فوق ما يناسبه	وظن ان خدمته الشمس والقمر
وتاه عجبا وضن ببشاشته	وأزور من قسوة تخاله الحجر (10)
ان غرك المنصب المخصب روضته	وبحسن بهجته علينا تفتخر
هون عليك فما يغشاك طارقنا	وما اليك فى قسمة وطر
ما أنت بالحكم الترضي حكومته	ولا بمفت جليل يرشد البشر
ولست أشهب فى نشر العلوم ولا	لديك نحو الخليل يجتني الثمر
ولا احطت بمعقول العلوم ولا	علم الكلام شربت ماءه النمر
ولا سموت الى علم البديع ولا	بسطت من هيئة مشكلها الوعر
ولا ركنت الى علم البيان ولا	تفسيرك البحر منه تخرج الدرر
ولا اليك انتهى القريض ولا	علم العروض ولا هندست مستتر
ولا جمعت جذورا فى الحساب ولا	رصدت سير النجوم فى الدجا سحر
ولا رتعت مروج الأدباء ولا	عرفت فى الدهر من مضى له خبر
ولا ولعت بلحن المنشدين ولا	تحسن فى الموسيقى طبع ولا وتر
ولا شرحت سماع الندماء ولا	مغني يطرب الأسماع والفكر
ولا ظفرت بعلم الكيمياء ولا	سر الحروف لكي تستجلب البشر
ولا طبيب يرجى للعلاج ولا	ذو حكمة يقلب الاشياء والبصر
ولا جواد شجاع فى الحروب ولا	لص اصاب الورى من ناره شرر
ولا غنى اخا كسب وبذل قرى	يخرج وقت الزكا الاغنام والبقر

10 — فى البيت الثاني اقواء وهو من عيوب القافية (قافية مرفوعة وأخرى منصوبة) .

Scanned by CamScanner

ولا ولي شهير ناسك عابد … يلقن الذكر والأوارد معتبر
ولا أمير سخي او بغي يرى … ذا سطوة بيديه النفع والضرر
ولا مهاة فلا خود منعمة … ولا غلام شهي زانه الحور
ولا سلكت طريق الزاهدين ولا … ابقيت ذكرا بأي العذر تعتذر
ان تهت بالقسم متروك : ان لنا … حظا من العلم يقتني ويدخر
او ساعدتك الليالي فاغتررت بها … فعند صفو الليالي يحدث الكدر
لو كنت تدري وما يدريك اذ خبثت … منك الطباع بأي شيء تفتخر
مضى لعمرى ذوو الأحلام والشرف … وما بقي لهم عين ولا اثر
كانت تلمسان بالاعلام صائلة … وبالجياد ولم تربط بها الحمر
اصابها المسخ اذ عادت تباع بها … مناصب العلم للأجلاف والخور
وكيف لا وجنود الترك حولكم … تسوقكم بعصى الخسف ولا تذر
لكن الى الله أشكو دفع غصتكم … فهو المؤمل والمرجو ينتصر
ثم الصلاة على المختار من سجدت … لعزه الشامخات الشم والشجر

الحياة الثقافية بتلمسان

ولما انتقلت من تلمسان ونزلت بجوار أبي مدين بالعباد ، واخترت العزلة عن العباد ، انهال علي طلبة البلاد من ذلك المصر ، وفقهاء ذلك العصر ، بسبب هذه الأبيات لما شاعت بين الناس ، وكانت لهم جبة لباس ، وقصدونا للأنس والمذاكرة ، والمسامرة والمحاضرة ، وأتحفونا بما عندهم من كتب الأخبار ، وتواريخ من كان ببلدهم من الأحبار ، فأتحفني الفقيه الأديب السميذع الأريب ، خطيب مسجد أبي مدين بالعباد بتاريخ الامام المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري (11) فى ستة أسفار أتى بها من مصر لما كان مجاورا فى مدة أعوام ، وطالعت بها

11 ـ البلاذري (أحمد بن يحي) توفي سنة 279 / 892 . له : « فتوح البلدان » ـ طبعة De Goge 1866 . و « أنساب الأشراف » ـ طبعت منه فصول عديدة على يد المستشرقين .

Scanned by CamScanner

تاريخ سليمان بن اسحاق المطماطي وتاريخ هاني بن يصدور القوصي ، وتاريخ كهلان بن أبي اؤي الأوربي (12) فى أنساب البربر وأيامهم فى الجاهلية والاسلام لأنهم كانوا نسابة البربر ، وتاريخ العقباني (13) فى دولة بني زيان وتاريخ ابن مرزوق (14) الذي سماه « نفي الوسن فى محاسن أبي الحسن » وغيرها من كتب التاريخ من جملتها « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » الذي ألفه السلطان أبو حمو موسى الزياني (15) ملك تلمسان ووجهه هدية لسلطان الأندلس ، ومدحه فقهاء الأندلس وعجبوا من سياسته وأدبه وحسن ضيعه ، ذكره أبو عبد الله بن الخطيب فى الاحاطة فى ترجمة الأمير أبي حمو موسى

---

12 ـ كان هؤلاء من نسابة البربر وتصانيفهم من مصادر تاريخ ابن خلدون .
راجع :
Basset (R.) : Les généalogistes berbères, in Archives berbères, Vol. I, fasc. 2, pp. 1-11.

13 ـ العقباني (سعيد بن محمد) والعقباني نسبة الى عقبان وهي قرية بالأندلس ، ولد بتلمسان سنة 720 هـ / 1320 م وتوفي بها سنة 811 هـ / 1409 م. هو فقيه مالكي درس على الأخوين ابني الامام كما درس فى المشرق على السيوطي وعين قاضيا ببجاية وبتلمسان . وله مؤلفات عديدة فى الفقه ذكر بعضها ابن مريم (فى البستان) وابن فرحون (فى الديباج) .

14 ـ خصص الاستاذ محمد الحاج صادق مقالة وافية للمرازقة ـ وخاصة لشمس الدين محمد ، وذلك فى دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية ، الطبعة الثانية ـ وفى التعرض لتآليف ابن مرزوق لم يذكر هذا الكتاب بل ذكر « المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبي الحسن » .

15 ـ أبو حمو موسى ابن أبي يعقوب ، العبد الوادي (1359 ـ 1389) . ولد بغرناطة بالأندلس سنة 724 هـ / 1324 م . عاد به أبوه الى تلمسان ونشأ فى بلاطها ، وعندما استولى بنو مرين على تلمسان سنة 734 / 1334 اغترب أبو حمو وحل بفاس حيث قضى سنوات الى أن رجع الى عاصمة أجداده سنة 750 هـ / 1350 وعرف منذ ذلك الحين مرارة القلاقل وسم الفتن والمؤامرات فى الداخل والخارج الى أن قتله اتباع ابنه أبي تشفين سنة 791 / 1389 .
خلف أبو حمو ـ مجدد الدولة الزيانية ـ آثارا أدبية مرموقة من شعر ونثر أهمها : « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » وهو كتاب أودع فيه صاحبه آراءه السياسية وتناول فيه دراسة القواعد التي ينبغي على الملوك مراعاتها فى سياستهم والخلال التي يحسن لهم التحلي بها اذا ارادوا أن يحققوا ما تصبو اليه نفوسهم من نشر السلام والرخاء فى بلادهم والفوز فى الدنيا والآخرة .
وطبع الكتاب فى تونس سنة 1862 ، ونقله الى الاسبانية الأستاذ ماريانو قاسبار (Mariano Gaspar) تحت عنوان El Collar de Perlas وذلك سنة 1899 .
وقد اعتنى بجمع اخبار أبي حمو ودراسة انتاجه ، الأستاذ حاجيات فى كتابه : أبو حمو الزياني حياته وآثاره . الجزائر 1394 ـ 1974 .

Scanned by CamScanner

سلطان تلمسان وذكر من غرر قصائده قصيدة أجاب بها أحد رؤساء ايالته خرج عليه وشق عصاه ، ثم طلب منه الرجوع الى الطاعة والانخراط فى سلك الجماعة فأجابه بها وهي من المفردات التي يعجز عنها غيره (16) تأتي بعد هذا مع نظائرها فقيدت منها كل غريب زيادة على ما فى الجريب .

وهؤلاء الطلبة الذين بتلمسان ليس فيهم من يحسن منطقا ولا لغة ولا عربية لاصلاح اللسان ولا يتعاطون الفروع الفقهية والأحاديث النبوية ، وأقمت بها سنة ونصفها ، شربت زلالها واستنشقت عرفها .

لمحة عن تاريخ المدينة

هذه تلمسان (17) قاعدة من قواعد المغرب الأوسط ، قديمة أزلية البناء ، أسست قبل الاسلام ، بكثير من الأعوام ، أسسها بنو يفرن ـ احدى قبائل زناته ـ اذ كانت فى مواطنهم ومجلات قفرهم ويسمونها بلغتهم « أجدير » ، وما يزعم ساكنوها من قولهم انها مدينة الجدار المذكور فى القرآن فى قصة موسى والخضر عليهما السلام (18) فأمر بعيد عن التحصيل باطل لأن موسى عليه السلام لم يفارق المشرق الى

---

16 ـ هي قصيدة طويلة (60 بيتا) مطلعها :

تذكرت اطلال الربوع الطواسم
وما قد مضى من عهدها المتقادم

نظمها ابو حمو فى أول ذي الحجة سنة 760 هـ . والشخص المشار اليه هو السبع ابن موسى بن ابراهيم .

17 ـ يقول يحيى بن خلدون صاحب « بغية الرواد » ان « تلمسين » مركبة من « تلم » و « سين » ومعناها فى لغة القوم الجمع بين الشيئين ، وهما التل والصحراء ، وكانت تسمى فى عهد الرومان بوماريا (Pomaria)

18 ـ سورة الكهف : آية 77 .
راجع :

Basset (R.) : Nedroma et les Traras X-XI.

Scanned by CamScanner

المغرب وبنو اسرائيل لم يتسع ملكهم الى أفريقية ، فضلا عما وراءها ، ولم تقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرفيق (19) .

قال : لما توغل أبو المهاجر الأنصاري فى أرض المغرب بلغ الى تلمسان (20) ونزل بساحتها على عيون سميت به فيقال لها عيون أبي المهاجر .

وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرة اليفرني (21) وأجلابه مع أبي حاتم والخوارج على عمر بن حفص بطبنة (22) ثم قال فأفرجوا عنها وانصرف أبو قرة لمواطنه بنواحي تلمسان ، وذكرها ابن الرفيق أيضا فى أخبار ابراهيم الأغلب قبل استبداده بأفريقية وانه توغل فى غزوة المغرب ونزلها (23) .

ولما خلص ادريس بن عبد الله من واقعة أبي جعفر المنصور وبلغ الى المغرب عام سبعين ومائة (24) فى خلافة موسى الهادي (25)واستولى عليه وقام بدعوته برابرة «أوربة» و «مقيلة» ومكناسة ، نهض الى المغرب الأوسط عام أربع وسبعين ومائة فتلقاه محمد بن خزر بن صولات ، أمير زناتة وتلمسان فدخل فى طاعته وحمل عليه قومه مغراوة وبنو يفرن بعد أن غلب عليها أمراؤها من بني يفرن ، ومكنه

---

19 ـ **ابن الرفيق** : (ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم) من مؤرخي القرن الرابع هـ = العاشر ميلادي .

20 ـ **ابو المهاجر** : احد قواد عقبة بن نافع .

21 ـ زعيم قبيلة افرن ، قرب تلمسان وامام الصفرية الذين حكموا تلمسان الى ان استولى عليها ادريس الاول سنة 174 هـ =/790 .

22 ـ سنة 771 م .

23 ـ بنو الاغلب : هم ولاة افريقية من قبل بني العباس وقاعدتهم القيروان خلف ابراهيم اخاه وحكم من 184 الى 197 / 800 ـ 812 .

24 ـ الموافق لسنة 786 ـ 787 .

25 ـ **الهادي بن المهدي** : رابع خلفاء بني العباس 169–170/785–786 .

Scanned by CamScanner

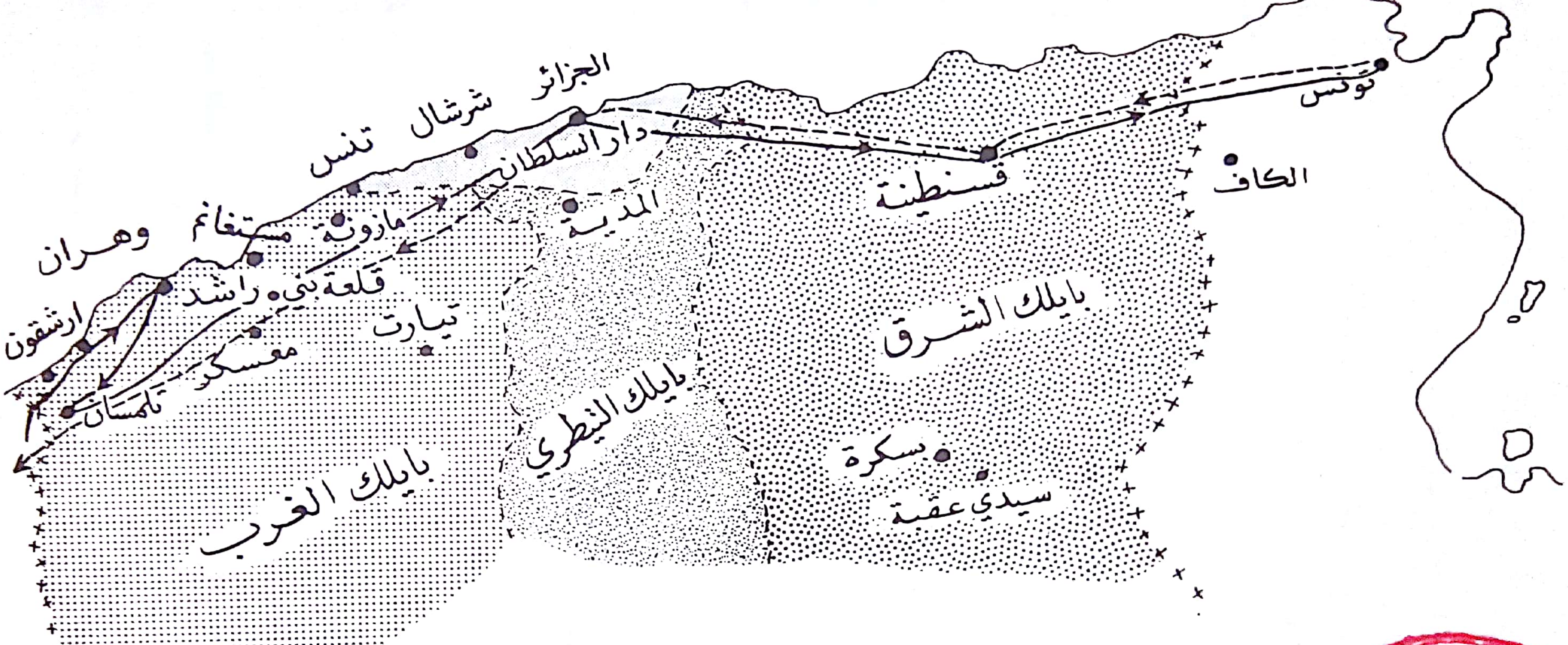

رحلة الزياني

وزارة الثقافة

Scanned by CamScanner

منها فدخلها وهو الذي اختط مسجدها بأجدير وصنع منبره وأقام بها أشهرا ورجع الى المغرب .

ولما هلك أدريس (26) وبويع ولده أدريس الأصغر بعد مدة وقدم اليها عام تسع وسبعين ومائة ، جدد مسجدها وأصلح منبره وأقام بها ثلاث سنين دوخ فيها أقطار المغرب الأوسط ، وقبائل زناتة وعقد عليها لبني عمه محمد بن سليمان ورجع الى المغرب ، فلما انقرضت دولة الأدارسة (27) وقام موسى بن أبي العافية المكناسي بدعوة الشيعة ، نهض اليها عام تسعة عشر وثلاثمائة وغلب عليها أميرها لذلك العهد الحسن بن أبي العيش وفر الى مليلة فحاصره موسى مدة وسالمه الى أن غلب الشيعة على المغرب الأوسط فأخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من تلك النواحي كلها وانحازوا الى الريف وتمسكوا بدعوة الأموية من وراء البحر ملوك الأندلس وأجازوا اليهم وفى أعوام أربعين وثلاثمائة غلب يعلى بن محمد اليفرني على المغرب الأوسط وتمسك بدعوة الأموية فعقد له الناصر الأموي (28) على تلمسان والمغرب الأوسط .

ولما هلك يعلى وقام بالمغرب الأوسط محمد بن الخير بن محمد خزر المغراوي داعية الحكم المستنصر ملك تلمسان أعوام ستين وثلاثمائة ، وفى أعوام تسعين وثلاثمائة غلب صنهاجة على المغرب الأوسط وملكوا تلمسان ووهران وأرشكون وتاهرت وما بين ذلك كله .

---

26 – سنة 791 – أو 792 .

27 – على يد الفاطميين من جهة وأمويي الأندلس من جهة أخرى ، فاخضع موسى بن أبي العافية قسما من المغرب (نواحي فاس ونواحي سجلماسة) للفاطميين . واستخدم صاحب قرطبة مغراوة لايقاف زحف مكناسة .

28 – هو عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله . 300 – 350 هـ/912 – 961 .

Scanned by CamScanner

ثم بعد ذلك عقد عبد الملك المظفر بن أبي عامر للمعز بن زيري على المغرب كله فأنزل ولده يعلى بن المعز بتلمسان فتوارثها بنوه من بعده الى أن غلب يوسف بن تاشفين على ملك المغرب ونزل تلمسان وملكها وملك وهران وارشكون وتاهرت وتنس والجزائر (29) وبنى تلمسان الجديدة فى موضع محلته وسماها «تاجرارات» بلغة البربر يعني « المحلة » وبنى مسجدها (30) وأنزل بها محمد بن تينغير المسوفي والقديمة التي بها مسجد ادريس هي أجدير الخربة اليوم وذلك عام ثلاث وأربعين وأربعمائة .

ولما مات محمد بن تينغير بها ، تولاها اخوة تاشفين بن تينعمر واستمرت فى ملك لمتونة الى أن غلبهم على الملك عبد المؤمن بن علي القومي وحاصر بها تاشفين بن علي بن يوسف اللمتوني الى أن فر عنها الى وهران فتبعه عبد المؤمن وحاصره بوهران فخرج منها ليلا فتردى به فرسه من شاهق فمات ، ودخل عبد المؤمن وهران (31) وأمر بقتل حاميتها وهدمها وفعل بتلمسان كذلك ثم بدا له رأي فى عمارتها واصلاح ما تهدم من أسوارها وذلك عام أربعين وخمسمائة .

وكان بنو عبد المومن يعتنون بأمر تلمسان ولا ينزل بها الا السادات منهم ، كان بها السيد أبو عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف العميري وليها عام ستة وخمسين وخمسمائة وهو الذي بنى المشور العظيم واتخذ به القصور والصروح وغرس البساتين وأمر الناس باختطاط الدور الرفيعة والتوسع فى الرفاهية وأدار عليها الأسوار العظيمة والخنادق العميقة التي بها الآن ، ثم وليها بعده السيد أبوالحسن ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن وتقبل فيها مذهبه .

---

29 – ما بين 1070 و 1080 م .

30 – علي بن يوسف بن تشفين هو الذي بنى مسجد تلمسان .

31 – رمضان 539=/1145 .

Scanned by CamScanner

ولما خرج عليها بنو غانية المسوفين من ميورقة عام أحد وثمانين وخمسمائة (32) وملكوا بجاية وقسنطينة والجزائر وعاثوا في المغرب الأوسط ورجوا تجديد ملك لمتونة ، اشتغل أبو الحسن بتجديد أسوار تلمسان وحفر الخنادق وجعلها خلف الأسوار سياجا واحدا الى أن تركها أحصن معاقل الدنيا لم يكن في وقتها أمنع منها .

وفي هذه السنة أقطع ملوك الموحدين لبني عبو الواد (33) نواحي تلمسان واختصوهم بالولاء دون سائر زناتة وأنزلوهم بها لما قدر لهم من الملك بتلمسان والمغرب الأوسط .

وبسبب هذا الولاء نافسهم بنو مرين ودخلوا للمغرب وعاثوا فيه نكاية للموحدين وبني عبد الواد واستمروا على ذلك الى أن ولي السعيد أبو عزة زاكدار بن زيان على تلمسان فملك بعده وضرب بنو مرين على قبائل المغرب المغرم وحاربوا عساكر الموحدين وتوالت عليهم الهزائم الى أن ملكوا كرسي الخلافة بمراكش عام ثمانية وستين وستمائة .

وكان السعيد من ملوك الموحدين على تلمسان وأعمالها لأبي عزة زكدار وولاه أمر المغرب الأوسط عام أربعين وستمائة .

ولما مات أبو عزة ولي أمر تلمسان أخوه يغمراسن بن زيان فلما مات السعيدُ استقل يغمراسن بملك تلمسان عام ستة وأربعين وستمائة

---

32 – خربوا المغرب الأوسط والأدنى من 580 – 600 هـ/=1185 – 1203 م .
Bel (A.) : Les Banou Ghania derniers représentants de l'Empire Almoravide... Paris 1903,

33 – بنو عبد الوادي – مثل بني مرين من زناتة . وهم رحل قدموا من شرق البلاد واتجهوا نحو الغرب أيام الزحف الهلالي ، وعندما ظهر أمر الموحدين (منتصف القرن 6 هـ /=12 م) أصبحوا من أتباع الدولة الجديدة وأعوانها ودافعوا عن تلمسان عندما خرب بنو غانية المغرب الأدنى والأوسط . وقويت شوكتهم أيام يغمراسن بن زيان حتى سقطت الدولة الموحدية سنة 1248/646 فاستقبلوا بملكهم بتلمسان .

Scanned by CamScanner

واستقل أبو زكريا يحيى بن أبي حفص بملك أفريقية وتوزعت دولة الموحدين .

واستمرت الحرب بين بني مرين وبني عبد الواد على تلمسان الى أن ملكها أبو الحسن المريني أعواما ثم ردها لهم أبو عنان ، ثم غلبهم عليها أبو عنان ثم ردوها ثم غلبهم عليها عبد العزيز المريني ثم رجعوا لها ثم غلبهم عليها ابراهيم المريني ، واستمر الحال على ذلك الى أن انقرض ملك بني مرين وبني عبد الواد وملكها الترك من يد عبد الله الزياني آخرهم عام اثنتين وخمسين وتسعمائة (34) دخلها حسن بن خير الدين باشا قدم لها من الجزائر ، ولا زالت فى ملك الترك الى وقتنا هذا ، وهو عام سبعة وعشرين ومائتين وألف (1813) .

هذا خبر تلمسان مختصرا ومن تداولها من دول الاسلام .

مغـــادرة الزياني لتلمســـان

ثم بعد اقامتنا بها سنة ونصفها ، خرجنا منها الى مدينة الجزائر فرارا من الوباء الذي حل بها ، وكان عاما فى العمائر التي بينها وبين الجزائر ، فما نزلنا منزلا الا وجدنا أهله يدفنون موتاهم .

---

34 – تذكر بعض المصادر ان أبا عبد الله الزياني حكم سنة 947 / = 1540 . وجاء بعده ابو زيان الثالث احمد بن عبد الله 947 – 950 / = 1540 – 1543 واخيرا الحسن بن عبد الله 957 / 1550 (دائرة المعارف ج 1 ص 96) كما تذكر أن الذي استولى على تلمسان هو صالح رايس سنة 1555 بناء على كون حسن باشا بن خير الدين حكم (1) من 1547 – 1551 (2) 1557 – 1561 (3) 1562 – 1567 .
راجع :

(Türk Ansiklopedisi T. 10 p. 324

Scanned by CamScanner

وأما ما بقي من هذه الواسطة بين تلمسان والجزائر ، بعد خرابها (35) فأول مدنها «القلعة» (36) أسسها أمير صنهاجة سنـة اثنتـين وثلاثين وثلاثمائة . ثم مدينة «أرشكول» (37) سيف البحر أسست قبل الاسلام على عهد تلمسان وتداولها ملوك تلمسان . وأما مدينة «مستغانم» (38) فأسست قبل الاسلام للروم ولما فتحت ملكها أمراء تلمسان ومن بعدهم

---

35 — حاول رين (Rinn) تفسير هذا الوضع بقوله :
« Dans la partie occidentale... les populations sont plus rudes que dans l'Est... De là, pour le beylik de l'ouest, la nécessité absolue d'être toujours sur le pied de guerre... Il y avait peu de culture, peu d'installations stables hors des villes et des montagnes ; le parcours, l'élevage et l'habitation sous la tente étaient la règle générale... » (Le royaume d'Alger sous le dernier Dey. RA 1897.

36 — القلعة : قلعة بني راشد وتسمى أيضا قلعة هوارة . على نحو 19 كم جنوب يلـل وقرب جبل بربر .

وبنو راشد مثل بني بدين من زناتة . كانوا يسكنون جبل عمور ثم جاءوا لهذه النواحي وعاشوا — ايام دولة بني زيان — تحت حكم تلمسان . واشتهرت القلعة فى القرن السادس عشر اذ كانت مسرحا لمعركة بين الاتراك من جهة والاسبان وأبي حمو صاحب تلمسان من جهة أخرى . وبها قتل اسحاق أخو عروج سنة 1517 .

قال صاحب الغزوات : « كانت قلعة بني راشد من أغنى بلاد الله زرعا وضرعا تعطي الميرة الى كل ناحية .. »

وقال صاحب كتاب الاستبصار قبله : « قلعة منيعة فى جبل حصين فيه بساتين وثمار واشجار ومزارع وأعناب وتحتها فحص طوله نحو اربعين ميلا يشق فيه نهر سيرات .. » (ص 65) .

راجع أخبار القلعة فى : — ابن خلدون كتاب العبر .

Léon l'Africain : *description de l'Afrique.* T. II.

Troussel (M.) : *Kalaa des Beni Rached* B.S.G.O. 1927.

De Graule : *notice historique de la qal'a des Beni Rached* revue du monde musulman 1913.

37 — **ارشقون** : (Postus Sigensis) قال البكري : « .. وأرشقول ساحـل تلمسان وبين مدينة أرشقول وتلمسان فحص زيدور حوله خمسة وعشرون ميلا ، ومدينة ارشقول على نهر تافني ، وهي مسورة ، وبمدينة أرشقول جامع حسن فيه سبعة بلاطات وفى صحنه جب كبير وصومعة متقنة البناء وفيها حمامان أحدهما قـديم ولها من الأبواب باب الفتوح ، وباب الأمير ، وباب مرنيسة ، وبها آبار عذبة لا تغور تقوم بأهلها وبمواشيهم ..» كتاب المغرب . ط . دي سلان 1965 ص 77 — 78 .

وقال الادريسي : « جزيرة أرشقول ويروي ارجكون وكانت فيما سلف حصنـا عامرا له مرسى وبادية وسعة فى الماسية والأموال السائمة ومرساها فى جزيرة فيها مياه ومواجل كثيرة للمراكب وهي جزيرة مسكونة .. » نزهة المشتاق : ص 112 ط بيريز . الجزائر 1957 .

38 — عن مستغانم : راجع كتابي :
Belhamissi Moulay ; *Histoire de Mostaganem des origines à l'occupation française.* Alger, 1976.

Scanned by CamScanner

من دول الاسلام ، وأما المعسكر (39) فأسسها أمير توجين من زناتة عام اثنين وستين وأربعمائة .

وأما مدينة تاهرت (40) فأسسها أمير مغراوة عام عشرين ومائة . ثم مدينة تنس (41) أسسها مأير يفرن سنة ثلاثين ومائة . وأما شرشال فأسست على عهد الروم قبل الاسلام وملكها زناتة ومن بعدهم من الدول ، وأما مدينة مازونة (42) فأسسها أمير بني راشد عام ستين

---

39 – يقول الشريف الأدريسي « والمعسكر قرية عظيمة لها أنهار وثمار ومنها الى جبل فرحان مارا مع أسفله الى قرية عين الصفاصف وبها فواكه كثيرة وزروع ونعم .. » (نزهة المشتاق) جعل منها مصطفى بوشلاغم – سنة 1701 – مقر بايلك الغرب ، وقد كان بمازونة منذ منتصف القرن السادس عشر وبقيت معسكر عاصمة الغرب الجزائري الى ان تحررت وهران من الاحتلال الاسباني سنة 1791 .
ثم اتخذها الأمير عبد القادر قاعدة له عندما بويع سنة 1832 وأحرقها المارشال كلوزيل سنة 1835 بعدما نهبها غير أن الأمير عاد اليها سنة 1837 وبقيت فى يده الى 1841 .

40 – **تاهرت** : ،اعصمة بني رستم وقد سماها المشارقة «عراق المغرب» . لقد أسسها ابن رستم فى سفح جبل قزول ما بين 144 و 148هـ/=765–768 م .
والاسم يطلق على مدينتين : تاهرت القديمة أو العليا وكانت موجودة حين الفتح الاسلامي ، وتاهرت الجديدة أو السفلى وبينهما نحو 10 كلم .
وقد أبدع القدماء فى وصفها وذكر خيراتها ويقول ابن حوقل « تاهرت الطيبة النزيهة » ويقول المقدسي : « تاهرت .. هي بلخ المغرب (مدينة بفارس يقال لها أيضا أم البلاد) قد أحدق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت فى البساتين ونبعت حولها الأعين وجل بها الأقليم وانتعش بها الغريب واستطابها اللبيب .. » كتاب أحسن التقاسيم ..
حكمها الرستميون 130 سنة ثم استولى عليها الفاطميون ما بين 1837 و 1841 .
ومن شعراءها الفحول بكر بن حماد (المتوفي 296 هـ = 908 م) .

41 – **تنس** : سبق الحديث عن هذه المدينة . وترجح بعض المصادر أن تأسيس تنس كان فى القرن 3 هـ/9م . على يد جماعة من البحرية الأندلسيين (262/=875 – 876) منهم الكركاني وأبو عائشة ، وهكذا تكون تنس أقدم من وهران بربع قرن .

42 – **مازونة** : عاصمة الظهره ، مدينة قديمة سبقت الاحتلال الروماني غير أن البكري لم يذكرها فى كتابه فذهب البعض الى أن المدينة حديثة التأسيس .
راجع أخبارها فى :
الأدريسي : نزهة المشتاق ..
العبدري : الرحلة المغربية .
Richard (Cap,-ne) ; Etude sur l'insurection du Dahra 1945-1846. Revue de l'Orient 1846.

Scanned by CamScanner

ومائة . وأما المدية (43) فأسسها لمدية فرقة من صنهاجة عام واحد وستين وثلاثمائة . وأما مدينة البليدة (44) فأسسها أمير صنهاجة عام خمسة وأربعين وثلاثمائة وأما مدينة الجزائر (45) فكانت قرى لبني مزغنة من صنهاجة ، والذي أسس المدينة بلكين بن زيري الصنهاجي عام احدى وستين وثلاثمائة . والذي بنى مسجدها الأعظم يوسف بن تاشفين اللمتوني لما ملكها أعوام الستين وأربعمائة وعلى سمت الجزائر بأرض الصحراء مدينة ورغلة مدينة أزلية لها سبعة أبواب ، ولها سور حصين ومحيط به خندق ممتلىء بالماء خلف سورها وبها طائفة من الرافضة الأباضية مع أهل السنة ، ولهم مسجد مخصوص بهم لصلاتهم ، ولهم عصبية على أهل السنة ، لا يقدرون على زجرهم ، ويقع بينهم الحرب ومشيختهم لبني مزاب من طوائف زنانة البربر ، وهم الذين أسسوها فى صدر الاسلام أيام فتح أفريقية .

---

43 ـ **المدية** : قيل هي (Lambdia) القرية الرومانية التي سبقت فى عين المكان المدينة الاسلامية وقيل كلمة معناها العلو والارتفاع ، وقال ابن خلدون : « نهض عثمان بن يغمراسن الى المدية وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها ، فيها قبائل تعرف بالمدية واليهم تنسب » .

ووقال فى مكان آخر : « .. المدية هو اسم بطن من بطون صنهاجة » . راجع مقالتي فى كتاب تاريخ المدن الثلاث بعنوان مدينة المدية عبر العصور .

44 ـ **البليدة** : مدينة حديثة العهد : لم يشر اليها البكري ولا الأدريسي ولا ابن خلدون . وقد أخطأ الرحالة الانكليزي (Shaw) عندما قال هي « بيداكولنيا » Bida Colonia) وتحدث القدماء عن خزونة ومتيجة التي خر لها بنو غانية 623 هـ وقيل ان مؤسسها هو خير الدين باشا وقيل بل هو سيدي أحمد الكبير سنة 942هـ/1535 م ، وكانت أيام الأتراك تابعة لدار السلطان .

45 ـ الجزائر : عدد الكتاب الدين وصفوا العاصمة فى ذلك العهد مرتفع ، وأكثرهم حديثا ودقة هو Venture de Paradis أصله من مرسيليا تعلم العربية وكان ترجمان نابوليون بمصر وأقام بالجزائر من 1788 الى 1790 ، وجمع فانيون Fagnan. تقاييد هذا الفرنسي ونشرها بالمجلة الافريقية (R.A.) من سنة 1895 الى 1897 ، وفى كتاب مستقل سنة 1898 .

ونص فانتور ونص الزياني حول الجزائر متكاملان .

ملاحظة : اعتمد الزياني فى هذا العرض السريع لمدن المغرب الاوسط على ابن خلدون وحده ، ونلاحظ أيضا سكوته عن مدن مشهورة فى التاريخ مثل مليانة ، وندرومة ، وسطيف .

Scanned by CamScanner

وبالقرب منها فى غربيها مدينة «بسكرة» من حساب عالة الجزائر ، وهي من أحسن المدن لكثرة مرافقها وخصبها وتوسطها بين التل والصحراء ، وبها مساجد معتبرة البناء وأحملها تحت قهر الأتراكي ومذلة العرب .

وفى شرقيها بمرحلة زاوية على مسجد الرجل الصالح التابعي ، عقبة ابن عامر (!) الذي أسس مدينة القيروان فى خلافة عثمان رضي الله عنهما .

عقبة بن نافع

وهو الذي فتح المغرب الأقصى وبلغ السوس والفائجة ورجع بالغنائم على طريق الصحراء ، لما بلغ الزاب اعترضته طوائف البربر أي الكاهنة « دهيا » بنت ثابت القراوية ، صاحبة جبل أوراس ، وذلك حين كتب لهم كسبيلة الأوربي الذي كان فى ثقافهم وأخبرهم أن جند العرب فى غاية الضعف والفشل من تعب الطريق وثقل الغنائم ، والخف والحافر ، وقتلوا أميرهم عقبة ، هذا وأبا المهاجر الأنصاري وكثيرا من أشراف العرب وأعيانهم ، وتفرق جلهم فى القفر ، وقام بأمر البربر كسيلة الأوربي ، وطرد باقي العرب من أفريقية ، وهناك دفن الأمير عقبة رضي الله عنه .

الاخضري

وعلى مرحلة منه زاوية ضريح العلامة فى زاوته المشهورة به ، وهو سيدي عبد الرحمن الأنصاري صاحب المنظومة فى المنطق المسماة بالسلم المرونق ، وله منظومة فى السلوك تشابه المباحث الأصلية ، وله مقدمة فى الفقه يتعاطاها أهل تلك البلاد .

Scanned by CamScanner

قبر النبي خالد (46)

وهو الذي أظهر قبر نبي الله خالد بن سنان العبسي المشهور بتلك البلاد ، وهو من المزارات العظام يقصده أهل الواسطة والزاب وأفريقية من الحاضر والبادي ، وعليه مسجد عظيم ومدرسة ، ويشاهدون له كرامات ، ولم أقف له على خبره فى كتب التاريخ ولا فى تقييد لا حد الا ما رأيته فى رحلة الشيخ العلامة أبي سالم العياشي ، فانه قال لما وقف على قبره وزاره وسمع ما يذكره به الناس من كراماته ، وأنه بذلك المحل مدفون ، ولقد أشكل علي أمره ، الا أن الذي شهر قبره من جهة الكشف ، قال أنه رأى نورا صاعدا من تلك البقعة الى السماء ثلاث ليال ، وذكر أنه قبر خالد بن سنان فيسلم له ، لأنه أهل لذلك ، ولأن بالمشرق أرض الشام .

مشاهد للأنبياء عليهم السلام ، كلها مظنونة وشهرها أهل الكشف كقبر كليم الله موسى عليه السلام ، فانما شهره بعض أهل الكشف بعد سنمائة سنة أو قريب منها ، وهو الآن من المزارات العظام ، وقد ذكر بعض أهل العلم أن قبر خالد بن سنان هذا مذكورا فى بعض التفاسير المنقولة عن الامام ابن عرفة ، وأنه فى هذا المكان ، قال العياشي ويبعد عندي كل البعد أن يكون خالد بن سنان العبسي مدفونا فى هذا المحل .

وقد ورد فى بعض الأحاديث أن نبيا من العرب بعث بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وأنه بأرض الحجاز ، وأنه مات بها وأنه أوصى بنيه أن ينبشوه بعد حول ، فيخبرهم بغير ما أرادوه ، فاذا ثبت ذلك فما الحجاز والزاب ، وقد ورد فى بعض الآثار أنهم لم يدفنوه ، وأنهم حملوه على ناقة فذهبت به ، فان صح ذلك فربما يتوهم أنها أتت به الى هذا المكان ودفن به ، وهو خرق عادة أيضا ، وقد سألت شيخنا

---

46 – سبق الحديث عن الأخضري والنبي خالد فى رحلة العياشي .

Scanned by CamScanner

أبا بكر السكتاني فقال : لم أر خبره مقصوصا ، وأقرب ما يحمل عليه أن يكون أحد رسل عيسى عليه السلام المذكورين في قوله تعالى «واضرب لهم مثلا أصحاب الرقية اذ جاءها المرسلون » فقد ذكر بعض المفسرين أن أحدهم اسمه خالد وأنه نبي أصحاب الرس .

وقد ذكر بعضهم أن بلاد الزاب هي بلاد أصحاب الرس فان صح أن هذا قبر نبي اسمه خالد فهو هذا والله أعلم – انتهى كلام العياشي

قـــدوم الزياني للجـــزائر العاصمة

ولما بلغنا لمدينة الجزائر وجدنا الوباء بها خفيفا (47) فنزلت خارجها وبنيت مضاربي ووجهت من حاشيتي من يأتيني باللوازم من لحم وحطب وعلف دواب ، فما رجع الا وأنا مصاب بالحمى فأيقظني للعشاء ، فلم أقدر ، ولما أصبح رأيت المحل الذي أصبت فيه متورما فعالجته بمـا عرفت فأقام ثلاثة أيام وانفجر ، وصرت أعالجه بالمراهم الى أن حصلت الراحة .

ولما كان يوم الجمعة لم أجد بدا من الدخول الى صلاتها ، فركبت الى المسجد فصليتها وانحدرت الى المرسى لرؤية المراكب وآلتها وتحقيق خبرها بالمشاهدة ، فجاءني بعض الأحبة مـن أهل فاس وألـزموني بالنزول عندهم ، فامتنعت وخرجوا معي الى الخباء وأنسـوني ساعـة ودخلوا ، ومن الغد جاءوني وفي جملتهم قاضي البلد الفقيه السيد محمد

---

47 – تحدث بعض المؤرخين عن الوباء الذي اجتاح البلاد سنتي 1787 و 1788 نقط . قال الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته : « وفي سنة 1201 جاء الوباء للجزائر حتى وصل عدد الأموات أحيانا خمسمائة جنازة كل يوم وسمي بالوباء الكبير ، قيل انه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية ، وطال الوباء بالجزائر الى سنة 1211 » مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار تحقيق توفيق المدني ، الجزائر 1974 . ص 51 .

راجع : Venture de Paradis : *Alger au XVIIIe s.* Alger 1898 pp. 31-52.
Berbrugger (A.) : *Mémoire sur la peste en Algérie depuis* 1552 à 1819. Paris 1847.
Grammont (H. de) : *Histoire d'Alger sous la domination turque* (1515-1830). Paris 1887. XVI - 420 p.

Scanned by CamScanner

ابن مالك (48) ، أصله من المغرب ، فخرجت لملاقاته وجلس معنا وأنس وحشتنا ، وطلب منا النزول عنده فلم يمكنني ذلك وواعدته ليوم معين نزوره فى بيته ، فجاء للوعد وتوجهت معه لداره وبتنا عنده ، وحضر معنا بعض أصدقائه من أهل دولة الباشا كاتبه وحاجبه وصهره ، وتذاكرنا أحوال الدنيا وهمومها ، وما يؤول اليه حالها ، وأقمت بالجزائر أربعة وعشرين يوما ، وأنا فى خبائي وخدامي فى آخر ، الى أن تهيأ لنا السفر ، فجاء الكاتب والحاجب والصهر والقاضي لوداعنا ومعهم صلة من حسن باشا (49) بواسطتهم دون شعوري .

وعلمي ، ومعهم لطف وحلاوات من دورهم للزاد ، وقالوا أن مولانا الباشا يقرأك السلام ويطلب منك الدعاء فى الحرمين الشريفين ، فاستعن على سفرك بهذا النزر القليل الذي هو ستمائة سلطاني وهذين المكتوبين المطبوعين ، أحدهما الباي قسنطينة ، والثاني لوكيله بتونس ، فكان ذلك من فضل الله دون قصد ولا طلب ، فحمدت الله على فضله ورزقه .

الاقامة بقسنطينـــــة

وتوجهنا من الجزائر لقسنطينة وكان فصل الشتاء ، وكنت قدمت وقت اقامتي بالجزائر مكتوبا لصاحب لنا من تلمسان من أصحاب باي قسنطينة يكتري لنا منزلا نستقر به الى أن يخرج فصل الشتاء ، فبلغنا قسنطينة على اثنتى عشر مرحلة ونزلت خارجها فى خبائي ، وخدامي فى آخر ، ووجهت من يأتيني بما لا بد منه من المدينة ، فقضى الغرض

---

48 – هو الحاج محمد بن أحمد بن مالك . تولى الافتاء بالعاصمة من 1210 الى 1214/= 1795–1800 .

راجع : 1 – الحفناوي : تعريف الخلف .. ج 2 ص 474 .

Gonzalez : *essai chronologique*... pp. 63-64.

49 – حسن باشا داي الجزائر (جوليت 1791 – مايو 1798) .

عين بعد وفاة محمد باشا ، وفى عهده نشبت الحرب بين الجزائر والسويد وأمريكا ، وانهز الأسبان بوهران وغادروها وجعلها محمد الكبير قاعدة لبايلك للغرب ، ثم قامت الحرب بين الجزائر والفلامنا ، وبينها وجنوة .

Scanned by CamScanner

واجتمع ببعض معارفنا فأتى معه للسلام والسؤال عن أقاربهم ، فسألتهم عن التلمساني الذي كلفته بكراء المنزل فأخبروني أنه فى بيته ، وأنه سقط عن فرسه يوم خروج الباي للحركة فتكسرت ساقه ورجع، ولا زال ملازما لفراشه فما أمكنني الا أداء الواجب من عيادته والوقوف عليه ، ومن الغد ركبت ودخلت المدينة الى أن اجتمعت معه فى بيته ، فخبرني أن الرسول الذي أتى بالكتاب لم يصله الا بالأمس ، لأنه لما سمع بسفر الباي فى الحركة توجه اليه للمحلة ، وحينئذ رجع لقسنطينة والبيت حاضر ، فوجه معنا من أبلغنا الى المنزل ، وبعث الى خليفة الباى يقول له أن هذا الرجل كثيرا ما كان الباي يذكره وينتظر قدومه ، وبعث له مرارا ليقدم عليه وهو الآن بلغ فقم بأمره الى أن يقدم الباي .

ولما بلغنا للمنزل وجهت من أتى بالبهائم والأثاث وأتى خدام الخليفة بجميع ما يحتاج اليه ورتبه فوق الكفاية .

وهذا الباي حسن باشا (50) لم يتقدم له معه معرفة ولا اجتماع الا أتى لما دخلت تلمسان وتوجهت لصلاة أول جمعة بها واجتمع علينا بعد الصلاة بالمسجد جماعة من الحجاج أهل المغرب كانوا محصورين بها لفساد الطريق ، وكان حسن هذا قبل ولايته منفيا بها عند واليها الباى محمد ابن عثمان حيث شكاه باي قسنطينة لدولاتني الجزائر فوجه من يأتي به فاستجرم بضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر ووقعت فيه الشفاعة من الموت فنفاه لتلمسان .

ولما جاء لصلاة الجمعة ورأى الناس مجتمعين علي المسجد ، سأل عني من أنا فقالوا له انه كاتب مولاي محمد الذي قدم واليا لوجدة ونهبه العرب ، سألت أنا من هو لما مر بنا ، فقيل لي أنه باي حسن المنفي من قسنطينة ، هذه معرفتي له ومعرفته لي ، وبقي بتلمسان الى

---

50 ـ حسن باي (= حسين بعد عودته من المنفى) بن الباي بوحناك ولى على قسنطينة : 1207 ـ 1209 سبتمبر 1792 ـ جانفي 1795 ، هو الذي بنى دار الباي مقر البايات بعده وأتم جسر باب القنطرة ، وقبره بمسجد سيدي الأخضر .

Scanned by CamScanner

أن قتل أهل قسنطينة صالح باي (51) ، فـولاه دولتـي الجزائـر بقسنطينة ، ووجهه لها فتوجه معه جماعة من أصحابه الـذين كانـوا يباشرونه من طلبة تلمسان أحدهم هذا الذي كتبنـا له على البيـت فأحسن لهم ووصلهم ورجعوا لتلمسان فأقاموا مدة ورجعوا له فسألهم عن حالي وما صرت اليه ، فقالوا لا زال بضريح الشيخ أبي مدين بالعباد ، فاستفهمهم هل لي جراية من الباي محمد فقالوا : لا وأنكر ذلك عليه ، وقال لهم ليس هذا من الكرام رجل من أعيان دولـة المغـرب رمت به المقادير الى بلاده ولا يعتبره ، هذا خارج عن قانون الدول ويأباه أهل الفضل ، والله لو قدم لبلادي وأقام بها لأكرمته الى أن يأتيه الفرج ، وأوصاهم ان عادوا الى تلمسان أن يزعجني لبلاده والمقام عنده فى أسنى المراتب . فلما رجعوا من عنده واجتمعت معهم بضريح أبي مدين بالعباد، خبروني بمقالة الرجل وحتموا علي فى السفر صحبتهم ، فأبيت ذلك وقلت لهم من الكفر فروا اني لا غرض لي فى صحبة الملوك ، ولـو أردتها ما أقمت هنا ، وغرضي ان شاء الله فى التوجه للحرمين الشريفين ، وما خرجت من بلدي الا بهذا القصد ، نسأل الله تعالى أن يبلغ مقاصدنا وأن يسر الله فى ذلك يكون مرورنا عليه والاستراحة ببلاده فسلموا منا عليه ونوبوا عنا فى الثناء على مقامه ، وأقمت بعدهم مدة .

---

51 ـ **صالح باي بن مصطفى** : ولد بأزمير سنة 1725 ووصل الى الجزائر وعمره 16 سنة . ثم حل فى خدمة أحمد القلي كقائد ثم كخليفة ، وفى سنة 1185 هـ / 1771 م عين بايا على قسنطينة وشارك فى رد الأسبان عندما أغاروا على الجزائر سنة 1775 (غارة D'Oreilly) اشتهر بتنظيم الادارة وتعيين وكلاء فى موانى القل وعنابة والقالة مما زاد فى الدخل الذي مكنه من بناء المدارس ، ولم تمنعه أعماله الجليلة من المؤامرات التي أدت به الى القتل ، وقبره للان بمدرسة سيدي الكتاني .

Cherbonneau (A.) : *Inscriptions arabes de Constantine* in. Annuaire de la Société archéologique de la Province de Constantine. 1856-1857.

Vaysettes (E.) *Histoire de Constantine sous la domination turque* in A.S.A.P.C. 1868-1869.

ـ الحاج أحمد شريف الزهار : مذكرات .

تحقيق توفيق المدني : الجزائر 1974 ص 64 .

Scanned by CamScanner

بعض علماء قسنطينة اجتمع بهم الزياني

ولما يسر الله أسباب السفر وبلغت قسنطينة وأنزلني خليفته حسبما سبق ، كنت أقصد المسجد العتيق بها فاجتمعت بامامه وخطيبه الوالي الصالح أبي البركات سيدي مبارك بن الفقيه العلامة سيدي عمر الصائغي .

ومما شافهنا به بعد السلام عليه والجلوس معه وسؤاله ان قال لنا ان أردتم ركوب البحر فعندما تضعون أرجلكم فى زورق المركب فاذكروا التعوذ بالله والبسملة والفاتحة ، واذكروا الفاتحة خصوصا سبعا فانها أمان من الغرق والحرق والأسر ، ا هـ من لفظه .

ثم اجتمعت بها مع الفقيه العلامة الصوفي أبي الحسن على بن مسعود الونيسي ، وأنسنا بمذكراته ومحاضرته أبقاه الله ذخرا للاسلام .

وممن اجتمعت به فيها الفقيه القاضي أبو عبد الله سيدي الحفصي العلمي وأضافنا وأكرمنا أكرمه الله .

وممن لقيته بها مفتيها الفقيه العلامة سيدي أبو القاسم المحتالي ، وبالغ فى الاحسان والاكرام وكان يأتيني لبيتي ويؤنسني ويذاكرني بما يسلي مهجتي ويزيل قنطي ووحشتي ، وأنشدني يوما بنفسه هذه الأبيات فى معنى حوادث الدهر :

اصاب صرف الزمان وجهه فبدت ... فى خده نكتة تعلوه سوداء
كأنه لم يكن بالحسن مكتسيا ... ولا نأت منه بالتخريب اسواء
ولا جنى فى ظلال العز طيب منى ... ولا سقته بكاس العز علياء
كذلك الدهر فى تصريفه دول ... رفع وخفض وادناء واقصاء
مهما ارى العز اولى الذل ذا لعب ... وفى التلاعب بالضدين انباء
فالدهر ذو عبر فالحظه ذا بصر ... تحرز فضائل من بالرشد قد باؤوا
نالوا الوداد فحازوا ايما شرف ... عند الحبيب وهم للوصل اكفاء

يا ليت شعري هل الأقدار تلحقني بالسابقين وهل تشتد رغباء
وهل انادم سعد الدين مرتقيا مراقي السعد او هم اجلاء
مولاي فضلك مبذول بلا سبب كن لي فذلك لي عز واغناء
وما ابالي اذا ما كنت يا املي لي النصير ومن فى الكون اعداء

ومن اجتمعت بهم فيها المفتي الثاني العلامة سيدي أحمد بن المبارك العلمي حفظه الله وذاكرناه وأنسنا بمحاضرته وحسن أدبه .

ومن قدم علينا وزارنا لمنزلنا الفقيه الأديب الكاتب سيدي محمد المجاري الخوجة وأكرمنا وأخذ عنا أورادا طلبها منا فأسعفناه بتلقينها نفعه الله بها .

ومن قدم علينا الفقيه الأديب صاحب القصائد العالية ومدحنا بأبيات جعلها مقدمة قبل اللقاء السيد ونيس البوزنياري كلأه الله .

ومن قدم علينا ـ بعد قدوم الباى من حركته الكاتب الأديب الخوجة الكبير كان مع صالح باي قبل هذا ، ولما تولى هذا نكبه وأخذ منه أموالا عريضة لا تعد ولا تحصى وهو السيد محمد بن كشك علي كرغلي (52) واستدعاني لبيته بقصد أن يطلعني على حاله وما آل اليه أمره من سوء الحال ليسليني بذلك ، ولم أشعر الا بعد حصولي فى البيت فما وجدت الا الحصر الى الآن لم يخلف آلته وفرشه ، وقال لي والله ما أتيت بك لبيتي الا لأسليك عما أصابك فى طريقك من ذهاب رزقك ، وأكشف لك عن حالي لتكون لك أسوة بي ، فأخبرني عما ذهب منك فى هذه النكبة .

52 ـ **الونيسي** (أبو الحسن علي بن مسعود الونيسي نسبة الى سيدي ونيسي صاحب المسجد بقرب السفينة) عمر طويلا حتى ناهز التسعين ، فقيه مالكي شارك فى عدة علوم اسلامية .
له : « شرح البخاري » فى 12 جزءا ـ وحاشية على شرح السيد للمواقف العضدية ـ وحاشية على القطب وله ايضا نظم فيمن حضر بدرا من الصحابة وذكر انسابهم ، وله فتاو ..

Scanned by CamScanner

فقلت قد بلغ مقدار جميعه بالمال والبهائم والأثاث عشرين ألفا ، فضحك وقال : والله ما دفعت لهذا الباي الا مائة ألف محبوب ذهبا وستين ألف ريال (دورو) ثم بعد ذلك سجنت ونهبت الدار بما فيها من الأثاث واللباس والفرش وجميع ما في العزبان من خيل وبغال وغنم وبقر وما فى المطمر من زرع وقطانى مما لا أعرف له عددا .

ولما سرحني ألزمني لهذه الخدمة المشؤومة وطلبته فى الاعفاء فأبى وها أنا كما ترى على كبر سني أطلب العتق من الرقية وأقنع بالحرية فما ظفرت بها ، فان أطال الله عمرك وبلغك قصدي ببلوغ حرمه والوقوف على تربة نبيه ورسوله وحبيبه فاياك أن تحدث نفسك بالعودة لهذه الخطة الخسيسة ، والخدمة النحيسة فان الدين النصيحة ، فرحمه الله تعالى وقدس ثراه .

البـاي يستقبـل الزياني

وأقمت بقسنطينة خمسة عشر يوما ، وقدم الباي من حركته فساعة دخوله للبلد قدم على أحد الطلبة المذكورين وخبرني أن الباي بلغه خبر قدومك ، وكتب لخليفته أن يكرمك ويحسن نزلك ، وهو الذي وجهني الآن للسلام عليك فقم للسلام عليه ، فقلت لا يمكن هذا ولا آتيه الا اذا بعث الي . فقال يا سيدي ليس هذا من عمل بلادكم فكل الناس يأتون للسلام على الباي فما عنده حاجب ولا راد ، فقلت لا أتوجه له الا اذا بعث لي فاني فى اكرامه وضيافته وكيف لي بالدخول على رجل لا يعرفنى ولا أعرفه ولا بعث لي وأدخل عليه بغير اذنه ، هذا شيء فيه قلة أدب عندنا ، فلا أقدم ولا أرتكب الا ما أعرفه صوابا وجائزا فى دولتنا .

فلما رجع اليه وسأله عني وأخبره الخبر وما وقع بيني وبينه من الكلام فى شأن الملاقاة فقال له هذا من تمام عقله وأدبه وفى غد ان شاء

Scanned by CamScanner

الله أصحبه معك ، ومن الغد أصبح علي فى غير وقت اللقاء ، وكان رجلا مغفلا ومعه طيش على كبر سنه وقال لي : ان الباي يدعوك للقدوم عليه فقم بنا اليه .

فتوجهت معه الى أن دخلنا الدار وصعدنا فى المدارج الى محل جلوسه فى محكمته ، فوجدنا أعيان رجاله وشواشه ومماليكه قائمين يمينا وشمالا خارج القبة التي هو بها ، وهو فى داخلها مع كتابه وكبار دولته ، والرجل معي الى أن واجهنا باب القبة ووقع نظري على الباي ونظره علي فلم أجد الرجل فلم يسعني الرجوع بعد مقابلته ، ودخلت القبة وسلمت عليه وهو جالس على الأرض وهو يحسب مالا بين يديه ، فرد السلام وقال : هذا فلان فقلت نعم فقال مرحبا بك وأهلا وسهلا ومد يده لمصافحتي بظاهرها لأن باطنها ملطخ بوسخ الفضة التي كان يعدها ، ولحقه من ذلك حياء ، فأمر بالأبريق والطست والصابون ، فغسل يديه وقام من محله فجلس على مرتبته وأجلسني بجنبه وأقبل علي بالسؤال وأمر برفع المال الى أن أكمل غرضه من السؤال ، وقام فقام القوم لقيامه وخرج من المحكمة ودخل مقصورة أخرى ، ووجه لي كاتبه الكبير محمد بن كشك علي ، فأدخلني عليه وأتى بقهوة فشربت ، وسار كاتبه أن ينزلني بداره ، وخرجت معه الى الباب فقال لي : تتوجه عندي للدار . فقلت ان دارك بالقلعة وأنا مجاور للمسجد واجتمع مع الطلبة به ، وبيتك بعيد عنا فلا أنتقل من محلي فأسعفني وتوجه لبيته وتوجهت لمحلي الذي أنا به ، ولما عاد عشية للباي قال له أن فلانا لم يرد النزول عندي وأراد البقاء فى محله فوجه لي الباي .

ولما قدمت عليه سألني عن أحوال الغرب ومملكته وعن السلطان مولاي سليمان وهل هو مثل مولاي يزيد . فوصفته له بالعلم والدين والعدل . ثم قال لم لم ترد النزول عند سيدي محمد بن كشك علي فأجبته بعذري الأول وقلت له : لا تسمح نفسي بالنزول عند غيرك وضيافتي

Scanned by CamScanner

فى غير بيتك ، فضحك وتهلل وجهه ، وقلت من يوم قدمنا ونحن فى كرامتك فلا تتشوف نفسنا لغيرك ، فسره ما سمع ، وأقمت عنده الى أن وضعت سفرة غدائه فأكلنا وافترقنا ، وبعد العشاء وجه لي رسوله فقدمت عليه فوجدته فى مقصورة جديدة هيأها بالفراش والأثاث والأواني الفضية والذهبية وفى كل روشن ساعة تضرب كل ساعة الآلة . وسلاح كثير معلق بجدرانها ، وأصحاب الموسيقى جلوس أمامه ، وجلساؤه يمينا وشمالا عنده ، فقام للسلام على عادتهم فى القيام للداخل ، وقاموا كلهم وأجلسني بجنبه قريبا منه وقال : انما وجهت لك فى هذا الوقت لتتأنس بالسماع وتزيل الوحشة لأن هؤلاء الأساتيذ قدموا علي من الجزائر فأردت أن تشرفنا بحضورك . فأثنيت عليه خيرا ، وأمرهم باستعمال الموسيقى وهو يسألني عن أحوال الغرب ومملكته وعن سيرة مولاي محمد ويثني عليه وقام ودخل من باب المقصورة مع مملوك له .

ولما جلس بعد رجوعه استنشقت منه رائحة الخمر فعاد للحديث معي ساعة ثم قام ودخل من محله الأول والمملوك معه ، ثم عاد وجلس فشاعت رائحة الخمر أكثر مما كانت ، وعلا كلامه فارتفع الشك وزال الوهم ثم قال للمملوك : هات يدك وقبضها وقام ودخل فلبس عليه كركا من السمور وخرج وعاد لموضعه وقال : لم لا تعتنون بهذه الأكراك فانها نافعة فى زمن البرد ، فقلت نحن أهل المغرب بادية لا يعرفون هذا واشباهه ، وبعد أن تأتي هذه الأكراك فى هدايا للملوك من المشرق ومن اصطنبول للسلطان يعطيها لرؤساء البحر وقواد الطبجية . ثم قال للمملوك: هات تلك الزوجة من الكوابيس أشار لها . فناوله اياها فقال : كم تساوي هذه عندكم . فمسكتها ونظرت اليها فقلت كذا ، فوضعها وقال للمملوك هات الأخرى . فناوله اياها وقال لي وهذه فنظرتها وقلت كذا . فوضعها وقال هات ذلك السيف ومده الي وقال وهذا فقلت كذا بحسب ما ظهر لي الى أن فرغ مما كان هناك معلقا . ثم قال لي أما هذه فثمنها

Scanned by CamScanner

ألف ريال ، وهذه ألف وخمسمائة وهذه ألفان ، وهذا السيف كذا وهذا كذا وهذا كذا وتبين لي في وجهه كراهة ما ذكرت له من الثمن ..

احوال البلاد بين الجزائر وقسنطينة

.. وخبر ما مررنا به من الجزائر الى قسنطينة من المدن فكله خراب غير مدينة بجاية . فقد أسست على عهد الروم وكذلك قسنطينة وعنابة .. ولما فتحها المسلمون بقيت بها المدارس ودرست بها العلوم ..

مغـادرة قسنطينة

. . ولما أصبح وحملت على بهائمي أتاني أمين الحمارين وأخبرني أن أصحابي خرجوا . فكلفته أن يأتينا معه بشيء من البصل للطريق وتوجهنا من قسنطينة وعلى عشرة أيام بلغنا تونس (53) .

II

من تونس الى الجزائر . .

« .. واشتغلت بتجهيز ما لا بد منه للسفر في البر ، فسهل الله أمره ، واكتريت البهائم الى قسنطينة بخمسين محبوبا بعت فيها نسخة من صحيح سيدي مسلم في سفر كنت اشتريتها من مصر بمائة ، وما كان معي من كتبي غيرها وأخرى مثلها في سفر من صحيح البخاري .

قسنطينـة

ولما دخلت قسنطينة لم أجد صاحبها حسن باشا المتقدم الذكر ، وما وجدت الا خليفته . فأنزلنا وأكرمنا عنده عشرة أيام حتى تعينت الرفقة . واكترى لنا بهائم واشتريت لنفسي بغلة ركبتها وبعت ساعة ذهب بقسنطينة خلصت بها نصف الكراء والنصف الى الجزائر ، وبعث لنا خليفة الباي زادا وحلوات وانحدرت الى الجزائر .

53 – وصل الزياني الى تونس اول جمادي الاولى 5/1208 ديسنبر 1793 .

الاقامة بالجـــزائر

فلما شرفنا عليها تقدمت لأنظر المنزل بقصد المقام بها الى أن يظهـر لنا ما يؤول اليه أمر المركب الذي أخذه العدو الكافر (54) ـ دمره الله ـ وفيه العسكر الجزائري وبضائع التجار فاجتمعت بأحد التجار وتسالمنا وكلفته أن ينظر لي بيتا فقال ان البيت حاضر فصحبني الى البيت وفتحه ونظرته وكلفته أن يركب بغلتي ويتعرض للبهائم بالباب ويأتي بهم للبيت وانصرفت للمسجد الجامع فتوضأت وتنفلت وجلست لصلاة الظهر مع الجماعة ، فلما فرغنا فاذا بالشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن مالك صاحبنا المتقدم الذي كتبت له أن يتسلم الحوائج من المركب فقمت لملاقاته والسلام عليه وصحبته الى محل جلوسه بالمحكمة الشرعية ، وتفاوضنا فى أخبار المركب فقال سمعنا ذلك والى الآن لم يظهر له خبر لكنه يرجع لا محالة ، ولما توجهت من عنده لأنظر هـل بلغ الأصحاب وجدتهم بالبيت والبغلة بالاصطبل فحمـدت الله عـلى السلامة وقدم علي صاحب القاضي بمؤنة خناشي دقيق وأواني سمنـا ومثلها خليعا وفحما وأنا لا أملك درهما فزال قنطي وتفكيري ، ولما جن الليل شغل بالي بالتفكر فى أمر الكراء الذي علي فاذا أصبح وجاء الحمار يطلبه وكيف المخرج وما أبيع فتعين بيع نسخة البخـاري التـي ليست لي غيرها ففوضت الأمر الى الله .

---

54 ـ تعرض المستشرق ليفي بروفانسال (Lévi-Provençal) لحياة الزياني باسهاب وتتبع بعناية مفرطة نكبات الوزير فى المغرب وخارجه الا أنه لم يذكر حادث المركب الذي استولى عليه القراصنة النصارى واكتفى قائلا :

A Alexandrie, il trouve un bateau en partance pour Alger et s'y embarque. Un vent contraire l'amène d'abord à Rhodes puis à Antioche. L'itinéraire ayant été modifié il va toucher Smyrne avant d'atteindre enfin Tunis où notre voyageur juge qu'il est prudent de débarquer ». (Les historiens des chorfas p. 163).

ونجد فى مذكرات الشريف الزهار بعض التفاصيل حول الحرب بين الجزائر ونابلي فى ذلك الوقت .. « وفى سنة 1209 (1794) أمر الأمير (حسن باشا) بتجهيز سبعة مراكب جهادية .. بأن يسافروا لناحية جنوة وساردينية ويأخذوا مراكب الجنويين والسارد فأخذوا عشرة مراكب سارد وبعضها جنوي .. وبعد قسمة الغنيمة سافرت المراكب الجهادية بقصد جنس النابولتان فغنموا منه ثمانية مراكب ورجعوا للجزائر سالمين .. » مذكرات .. ص 66 .

Scanned by CamScanner

ولما أصبح جاءني رسول القاضي فوجدته بالمحكمة فى بيت جلوسه للراحة فهش وبش وسأل عن الحال الذي يجده الانسان من عناء السفر اذ وقف الحمار صاحب الكراء ، فقال صاحب القاضي ان رجلا يطلبك فقال القاضي من هو ؟ زد به الينا فأتى به فلما عرفته قلت انتظرني الى أن أخرج فتأخر . وسألني القاضي عنه فقلت : رجل جاء معنا فى الرفقة ، قال لعله الحمار الذي حملك فضحكت وقلت هو والله فقال لعله يتبعك فى شيء ، قلت نعم ، فتكلم مع أحد أصحابه سرا وجاءه بكيس فيه أربعون سلطانيا دورو (55) فامتنعت من قبضها فأقسم لتقبضنها فاني أعرف أمور السفر خصوصا وأنت فارغ اليد من أجل مالك فى المركب الذي فيه رزقك فخلصت الحمار منها وما بقي كنت أنفقه فيما لا بد منه .

جامـــع كتشـــاوى

وفى يوم الجمعة توجهت مع أصحاب لي حملوني على الصـلاة فى المسجد الجديد (56) الذي أسسه حسن باشا بعد سفرنا للحجاز وأقام

---

55 ـ اكنت العملة تضرب فى الجزائر من معادن الذهب والفضة والنحاس ، واشهر قطعها : السلطاني ونصف السلطاني وربع السلطاني (من الذهب) ، والبوجو ونصف بوجو وربع بوجو (من الفضة) والخروبة (من النحاس) .
وكانت بالجزائر أيضا عملة أجنبية مصرية وتونسية ومغربية وأكثرها رواجا العملة الاسبانية مثل الضبلون .
راجع :
Ernest-Picard (P.) : *La monnaie et le crédit en Algérie depuis* 1830. Alger-Paris, 1930.

56 ـ يقصد الزياني بالجامع الجديد ، جامع كتشاوة الذي رممه وزاد فيه حسن باشا سنة 1209/=1794 ولم يبن غيره طيلة وجوده على رأس الجزائر ، وكان على مرقبة منه جامع السيدة الذي بناه محمد باشا .
وأما الجامع المعروف عندنا بالجامع الجديد فقد بنى سنة 1070 / 1660 تحت اشراف جند الأتراك ومن أموال المؤسسة المعروفة بسبل الخيرات وكانت لصالح الجنفية .
راجع : Devoulx (A.) : *Les Edifices religieux de l'ancien Alger.* Alger 1870.
Klein (H.) : *Feuillets d'El Djezaïr.* Alger S.D.
Marçais (G.) : *Manuels d'art musulman.* 2 vol. Paris 1927.
Dokali (R.) : *Les mosquées de la période turque.* Alger 1974.

Scanned by CamScanner

به الجمعة ، فدخلته وشاهدته وصلينا الجمعة ، وأخبروني بما أنفق عليه من الأموال وما جلب له من أصناف الرخام والمرمر ، وما أوقف عليه الرباع والضياع ما لا تسمح نفس أحد بانفاقه الا من وفقه الله .

ومن الغد رجعت اليه منفردا وتأملته موضعا موضعا ، وميزت ما فيه من أنواع الصنع واختلاف الأشكال ومناسبة الموضاعات من كل نوع ، الى أن أحصيت جميع أوضاعه وكأنه نصب عيني فى الغيبة وأنشأت فيه رسالة ولفقت أبياتا على قدر وسعي فى مدحه ومدح بانيه وتجزيته الخير على ما قام به من رسم معالم الدين ، وأتباع سنن المهتدين ، وتطهير تلك البقعة التي كانت قبل ذلك تبرنة يباع بها الخمر ويجتمع بها الأشرار ، وصيرها معبدا للمسلمين جعلها الله فى ميزان حسناته ، وبلغه غاية أمنياته ، لا رب غيره .

وهذه الرسالة :

الحمد لله الذي خلق الانسان ، وعلمه البيان ، وألهم من أحب من الملوك فى الحديث والقديم ، الى سلوك السبيل القويم ، وحبب لهم أفعال الخير ليبلغوا بذلك الى القرار فى جنات النعيم .

وبعد ، فلما أراد الله جلت قدرته ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، رجوعنا من الحرم الشريف ، ودخولنا لثغر الجزائر الشهير عن التعريف ، وأقامتنا به للمانع الذي حصل ، والعذر الذي بسببه بعد عنا ما كان بأيدينا وانفصل ، كنت أجتمع مع أفراد من الأخيار ، وجماعة من العلماء الأبرار ، وأتفاوض معهم فى سيرة سلطانهم الأعظم ، الماجد الأكرم ، حامي بيضة الاسلام ، وناصر سنة سيد الأنام ، الذي قمع أهل الكفر وقادهم بلا رسن ، المنصور المؤيد السلطان حسن .

Scanned by CamScanner

مـدح حسـن باشـا

فذكروا لنا من أوصافه السنية ، وسيرته المرضية السنية ، ما ملأ منا الأسماع ، وقام عندنا مقام الاجماع ، أبقاه الله لحياطة هذه الأمة ، وزاده عزا وحفظه من كل آفة ونقمة .

فأردت أن أثبت ما سمعت من فضائله وان كنت لا أحصيها على التمام ، المشهورة عند الخاص والعام ، وأجعلها فى قرطاس طلبا للأجر والثواب ، واذا أحب الله عبدا ألهمه الى الصواب لترسم فى دفاتره وتوضع من جملة ذخائره ، فانه ـ حفظه الله ـ من أمراء العدل ، ومن أهل المروءة والفضل لما جلس على كرسي « الخلافة » السعيد سوى بين القريب والبعيد، وانتصف للمظلوم من الظالم، وأعز المسكين والشريف والعالم، وقمع أهل الزيغ والفساد وكف عاديتهم فى كل بلاد ، وأجرى أحكامه على القانون الشرعي والمذهب الحنفي الموعي ، وأجرى الصدقات على الفقراء والأيتام والمعونة لأهل الحرمين فى كل عام ، فشمل عدله الرعايا سهلا وجبلا وشاعت مكارمه أفرادا وجملا ، ثم حصن ثغور المسلمين بالصقائل والأبراج وعمرها بالمدافع والمهارز على طبقات تحاكي الأدراج، وملأ خزائن الثغور بالبارود « والكور » « والبحب » والسلاح ، من المكاحل والسيوف والأسنة والرماح، وأكثر من الجواري المنشئات فى البحر كالأعلام (57) رشحنها بكل من عساكر الاسلام للتضييق على أعداء الدين برا وبحرا ، زاده الله عزا ونصرا ، الى أن صير أجناسهم تحت الغلبة والقهر ، ووفدوا على أعتابه صاغرين من كل قطر يطلبون مهادنته على ما يطلب من الأموال ، والكون عند أمره فى الأقوال والأفعال ، فوظف على كل جنس منهم ضريبة يؤدونها فى كل عام كالجزية ، ولا يسرح أسراهم الا بضعاف المسلمين فى الفدية ، وفى كل سنة يأتونه

---

57 ـ سورة الرحمان . آية 24 .

Scanned by CamScanner

بالهدايا والوظائف والتحف الغريبة واللطائف . أبقاه الله محفوظا وبعين عنايته ملحوظا .

تحـــرير وهـــــران

ثم صرف همته لجهاد مدينة وهران ، واخلائها من عبدة الصليب أهل الضلال والخسران ، ووجه لها عساكره رجالا وركبـانا وأمدهـم بالقبائل عجما وعربانا ، ووجه معهم المدافع والمهارز وآلة الحرب ،وبكل ما ينفع للطعن والضرب ، ونزلت عليهم العسكر من كل جانب ، وكلهم للشهادة طالب راغب ، وحاربوهم حرب المهاجرين والأنصار ، ووقـع بالكفرة ما لم يقع بمصر من الأمصار ، الى أن صار البلد عليهم دكا ، وحديث خلاصهم أفكا ، فطلبوا الأمان لأنفسهم على أن يسلموا البلاد ، ولا يحملون الا نساءهم والأولاد ، فأنعم لهم بذلك ووفى ، وقرا عليهم حسبي الله وكفى ، فأما عظم هذا الفتح الذي لم يحصـل لملـك مـن الملوك ، وحصل به السرور للغني والصعلوك ، وشـاع بـلاد الكفـر والاسلام ، وتحدث به أهل اليمن والعراق وخراسان ومصر والشام ، ورفع له المسلمون أيديهم فى المشرق والمغرب يدعون بالعز كل أعجمي ومعرب فالله يطيل سعادته ويديم مجادته .

ثم وجه نظره فى فكاك الأسرى المسلمين من جميع أيالة الـكفار ، والبحث عنهم فى القرى والأمصار ، قاصدا بذلك وجه الله وابتغاء مرضاته عملا بقول نبينا عليه من الله أفضل صلواته : « من فـك أسـيرا مـن أيدي الكفار ، حرم الله جسده من النار » وجاراه الله فى الآخرة بالحور العين ، وأسكنه فى الغرف التي فى أعلى العليين .

وصـــف المســـــجد

ثم ألهمهم الى تطهير بقعة كانت بقرب دار الخلافة مجمعـا للأشرار ويباع بها الخمر للكفار ، فاشتراها وما حواليها بمال معتبر ، وصير

Scanned by CamScanner

عاليها سافلها وما تأنى فى ذلك ولا صبر ، وصيرها مسجدا جامعا للاسلام ومعبدا لأهل الخير والدين والعلماء الأعلام ، وأنفق عليه من الأموال ما لا تسمح نفس بانفاقه وعمره بالحلال الذي هو من خالص أرزاقه ورتب فيه أهل الهندسة و « الفلسفة » من كل صنعه ، واتقنوا بناءه سعة ورفعة ، وجعل أسفل هذا المسجد دكاكين وقهاوي وأوقفها على هذا المسجد المذكور ، الذي أدخره ليوم البعث والنشور وحقق قبله هذا المسجد أهل العلم والفتوى وأوقف على عمارته من لا شك أنه من أهل الخير والتقوى ، وجمع له أنواع المرمر والرخام ، من بلاد الأتراك والأروام ، من كل قائم مبسوط ، ومربع ومخروط ومدرج ومشجر ومنقوش ومسطر ، وخدود وقدود ، وقيام وقعود ، وأعتاب وأبواب وخصص ومحراب وفى وسطه قبة عظيمة مرتفعة فى الفلك ، يفزع من لمعان أنوارها فى البحر السمك ، قائسة على سواري كالصداري مجردات عواري كالجواري ، يحاكين فى بياض اللون ، البرد النازل من الكون ، كأنهن فى القيام ، حور مقصورات فى الخيام ، وجعل لهذه القبة سراجيب بأنواع البلور الذي لم ير فى عصر من العصور ، « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » (58) ودار بهذه القبة قبب على شكل منمق ، كأنهن جدول موفق ، من ثنائي وثلاثي ورباعي وحماسي وسداسي وسباعي ، ومقربص ومشجر وقاطع ومقطوع ومسطر ، وداخل وخارج وبخاريات ، وقصاعي وأنصاف ترنجيات ، وفوق ذلك من الأسباغ كل لون غريب ، بتدبير أهل الحل والعقد والتجريب ، وكتبوا أسماء الله وآياته ، وأنبيائه وخلفائه ، تعظيما بالذهب الأبريز الصيان ، وليس الخبر كالعيان ، وأدار بهذه القبة « شدورانا » من العود مموه بأنواع الأطلية الفائقة بالألوان ، يصلى فيه الأمراء والأجناد وأعيان الديوان ، عليه « أدواع » وأزهار وأغصان وثمار وأطيار ، وأمامه كشك

---

58 – سورة النور ، آية 44 .

منظر داخلي للجامع بعد تحويله الى كنيسة

Scanned by CamScanner

يجلس به المؤذنون ، وأهل الألحان والقراءات ، ومن له وظيف بالمسجد كالموقت والراوي لحديث الانصات ، وجعل لهذا المسجد منبرا من الرخام الشفاف ، مؤلف من سبعة أصناف ، من مرمر وجزع ، وزبرجد وودع ، وفيروزج وفاروز ، كأنه اللواء المشروز أبدع فيه كل خارط صنعة الخرط ، وكل ناقش زاد على الشرط ، وكل مسطر حقق ما سطر ، وكل مشجر أبدع فيما شجر ، فهو كالأمير والتاج على رأسه والكل فى خدمته وأنسه ، وكسا جدرانه بالزليج والفرفري والصيني ، وفوقه الجبص الفائق المعدني ، وجعل فى كل جهة رواشن تسطع منها الأنوار مضيئات ، وسلاسل مموهة للقنادل والثريات ، وجعل تحت كل روشن ساعة على كرسي كالعروس ، يطرب لسماعها جوامح النفوس ، فجاز بلطافة شكله ضخامة المساجد والمدارس وجاز برقة صنعته أنوار الزارع والفارس ، فلو رأته السليمانية بالقسنطينية لملبها ، ولو كلمته « آية صوفية » (59) ما أجابها ، ولو قابله الجامع الأزهر ، لتعجب من حسنه ، وانبهر ، ولو ناظرته مساجد الشام وحلب ، لاعترفوا بفضله وأقروا بالغلب ، ولو سمعت بتشييده بيعة الاشبونة لتهدمت ولو شاهدته كنيسة رومة العظمى لأسلمت .

فنزهت طرفي فى رياض أزهاره وأنواره واستعملت فكري فى معارف شموسه وأقماره ، وتحققت بسيادة بانيه وتيقنت أن السعادة والكرامة تحف به وتدانيه ، وداخلني من القشعريرة والخشية ما أنطقني الله بما يتقبله من الأدعية ، وعلمت أن معمره ممن أصلحهم الله وسرهم ، وأن لله رجالا لو أقسموا على الله لأبرهم فأجابني المسجد بلسان الحال وأنشد وقال :

---

59 ـ آية صوفية :

Scanned by CamScanner

طهر ثيابك واحسن الوضوء ولا تنس التحية ان شاهدت أسراري
وامم قبتي واقصد الى قبلتي وسرح الطرف فى رياض وازهاري
واحرم وقف واركمن واسجد لربي الورى وادع لمن صانني وحط اوزاري
وابرزني لوجود العز من عدم فهو روحي ومسمعي وابصاري
صيرني مسجد الله عمرتي بالذكر ذاك الذي عظم مقداري
امهر مولاى اكياسا بلا عدد فى زينتي ليرى حسني وانواري
اقام فى خدمتي حوارا على سرر هن شموسي وان امسى فاقماري
انسني بخوان مطربات فما ينمن من شغفي يرصدن انذاري
طوقني بسياج العز مبتهجا بكل نوع من الأزهار معطاري
توجني التاج والأكليل منتظما من اليواقيت اقراطي وازراري
وكل حليي واكؤس منضدة وكل فرشي وما تحتي واستاري
وزاد فى المهر املاكا معينة لمن يقوم بخدمتي واوطاري
فمن يجود بما سطرت محتسبا الا التقي الزكي الأسد الضاري
حامي لواء الرسول المصطفى حسن فخر الملوك رعاه مولانا الباري

فعوذته بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وحجبته بآياته البينات من أعين الشياطين والكفار المعينات ونسأل مولانا الكريم ، رب العرش العظيم ، يتقبل من بانيه عمله ، ويبلغه فى الدارين رجاءه وأمله ويكافيه بقصر فى جنة المأوى ويوفقه فى السر والنجوى ويصلح به وعلى يده ويعطيه من خير ما لديه ، ويبقيه لنصر هذا الدين المحمدي ويعزه بالعز الدائم السرمدي ، ويسبل الستر الجميل عليه ، وعلى أولاده واخوانه ، وأحبائه وعساكره وأنصاره ، قال رب الأوائل والأواخر « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر .. » (60) . وقال صاحب التشريع والسنة : « من بنى لله مسجدا بني الله له قصرا فى الجنة » فليحمد الله بانيه على هذه النعمة العظمى التي لا يعد لها ملك ولا مال ، ولا يحصل

60 — سورة التوبة ، آية 18 .

Scanned by CamScanner

ثوابها من مواساة أخ ولا عم ولا خال فهنيئا له ولله الحمد ، ودامت كرامته والمجد وختم أفعاله بالشهادة وجعله من الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، وقلت أبياتا فى تاريخ بنائه لهذا المسجد .

اسرع الى سبـل الخيرات تاتيك وابشـر فان الذي عاملت يدنيـك

حسنت بالعـدل ديننا ومتجـرنا فنسأل الله بالفردوس يرضيـك

بنيت للـه هـذا البيـت محتسبـا
فـرب هـذا الذي شيدت ينجيـك

اغنيـت صنـاعه عظمـت حرمته
وضـحت تاريخـه فالله يغنيـك

لا زلـت يا بهجـة الأملاك يا حسنـا
موفقـا وجنـود الله تحميـك

* * *

انتهى . كتبه بلقاسم بن أحمد الزياني سنة عشر ومائتـين وألف 1210 هـ — 1796 م .

مركب المسلمين يتعرض للقرصنة الأوربية :

ثم اني بقيت مقيما بالجزائر سبعة أشهر الى أن فتح الله علينا فى رد بضاعتنا .

وسبب الرد أن الرجل الجزائري الذي كان أتى بالعسكر من أزمير أصله تونسي ، ولما أسرهم الكفار ، جنس النبطلان ودخلوا بهم لبلادهم ادعى الرجل أنه تونسي ، اكترى المركب من أزمير ، ووسق فيه أرزاق التجار من تونس واكترى للعسكر الجزائري وتحاكم معهم بهذه الحجة فغلبهم ، لأن أهل تونس مع هذا الجنس بينهم عقد مهادنة ، فدفعـوا للرجل بضائع للناس واكترى عليها مركبا آخر لتونس فى الظاهر ، وفى الباطن يبلغ البضائع للجزائر ، وخرج قاصدا مرسى تونس الى أن دخلها وأقام بها يومين ورجع الى الجزائر .

Scanned by CamScanner

وأما العسكر الجزائري والمركب فأخذه النبطلان لأنهم محاربون مع الأتراك .

الفـــرج بعـــد الشـــدة

فلما بلغ المركب لمرسى الجزائر قبضت ما كان لنا من الحرير والأثاث والصنادق بالقاهرة حتى المكاتب التي كنت دفعت لرئيس المركب يبلغهم للجزائر دفعهم النصراني للآخر وكلمه أن يقبض خط يده الذي عندنا ، ولما فتحنا صناديقنا وحوائجنا وجدناهم على حالهم لم يفقد منهم قلامة ظفر بعد النهب والانتقال .

فانظر الى هذا الاحتراز وهذا الصدق الذي هو من شأن المسلمين صار للكفار ولو كان هذا الحادث وقع من عساكر المسلمين وتبين فيه التخليط وأمر ولاتهم برده ما بلغ على حاله ، بل لم يرجع نصفه ولا ربعه ، ويأخذ منه الحاكم والرئيس والمباشر لقبضه والمباشر لرده والحامل له والمتكلم فيه ، ولا يحصل صاحبه الا على التافه منه ، ولو كـــان فى وقتنا هذا لا يرجع بالكلية ، وعلى فرض رجوعه يأخذه الذي تسبب فى رده . نسأل الله العصمة والسلامة من ظلمات الجور بمنه وكرمه .

نيـــة الاستقرار بتلمسان

ولما يسر الله أسبابنا وجهت غلاما لي من الجزائر لفاس يأتينا منها بحوار لنا كنا تركناهن بفاس ويلقانا بهن لتلمسان بقصد القرار بها . ووجهت معه مكاتب للأهل والاخوان فيهم مكتوب للفقيه الكاتب السيد المكي المغازي الذي هو سمير وأنيس للسلطان الجليل مولانا سليمان ابن مولانا محمد ، وعرفته ببلوغنا للجزائر وعزمنا على المقام بتلمسان .

فلما وصله الكتاب أخبر مولانا السلطان فأمره أن يكتب لنا أمرا شريفا يحضنا فيه على الرجوع للوطن واجتماع الشمل بالأهل والولد

Scanned by CamScanner

من جملة فصوله : « .. فكيف بك سمحت فى بلدك وأهلك وولدك . واني أعلم انك فررت من الخدمة السلطانية وأعرف ذلك من قديم فاني عاهدت الله ورسوله لا أكلفك بخدمة ولا كتابة ولا أقلدك عملا فانك بمنزلة والدنا وأشفقنا من حالك وفراقك لأهلك وولدك فاقدم لدارك ولا ترى منا الا ما يسرك وقد أسقطت عنك حتى السلام علينا لا نعاتبك بعدمه . ولك أمان الله ورسوله الذي جئت من حرمه والسلام ..

وأمر أخاه مولانا عبد السلام أن يكتب لنا بمثل ذلك ، وبمثله كتب لنا صهرنا القائد عياد ، ومحبنا القائد يسوري ، ووالي فاس ، وغيرهم من الأحبة ، وقدم الغلام بجارية واحدة ولم يوجهوا الجميع حيث علموا ما كتب به السلطان وأخوه ورجال الدولة ، وبلغ الغلام لتلمسان قبلي فمرض بها بدار صاحب لي كنت أوصيته أن ينزل الجواري عنده ، فمات الغلام عنده ، وكان دفع له المكاتب قبل موته فى وعاء .

فلما بلغت تلمسان نزلت بجوار الشيخ أبي مدين وبعثت وصيفا لي يسأل صاحبي عن خبر الجواري ، فلما بلغه بالمكاتب وسلم وأخبرني بموت الغلام وأنه لم يأت الا بجارية فلما قرأت المكاتب وجدت كتاب السلطان وأخيه ورجال الدولة فظهر لي خلاف ما عزمت عليه من سكني تلمسان وقلت هذه بغيتي ولله الحمد على التخلي من هذه الخدمة والأمن مما كنت أخافه وحسنت ظني بالله وبأمير المؤمنين ..

* * *

Scanned by CamScanner

مصـــادر ومراجـــع

1 ـ العـــربيـــة

التـــاريخ :

ـ ابن خلدون عبد الرحمان : كتاب العبر ..

ـ ابن خلدون (يحيى) : بغية الرواد ..

أحمد بن محمد .. بن سحنون : الثغر الجماني ..

احمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ..

أحمد الشريف الزهار : مذكرات (تحقيق توفيق المدني) ..

حمدان خوجة : المرآة .

الجغرافية والرحلات :

البكري : « المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » .

الأدريسي : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

العبدري : الرحلة المغربية .

الورثلاني : نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار .

كتب التراجم :

ابن مريم : البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان .

الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف .. جزءان .

Scanned by CamScanner

الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية .

نويهض (عادل) : معجم أعلام الجزائر .

حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .

2 ـ الغربية

(Bibliographie occidentale)

Bargès J.J. (l'Abbé) : *Histoire des Beni Zeiyan rois de Tlemcen,* Paris 1852.

— *complément à l'histoire des Beni Zeiyan, rois de Tlemcen,* Paris 1887.

Bencheneb (M.) : *Etude sur les personnages mentionnés dans l'Idjaza du Cheikh 'Abol El Qadir El Fasy.* Paris 1907, 394 p.

Berbrugger (A.) : « *Voyage dans le Sud de l'Algérie et des Etats barbaresques de l'Ouest et de l'Est* » *par El Ayachi et Moula Ahmed.* in exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840-1841-1842. T IX, Paris 1846, 397 p.

— Mémoire sur la peste en Algérie depuis 1552 à 1819. Paris 1847.

Bernard (A.) : *Les confins Algéro-marocains.* Paris 1911, 420 p.

Bissuel (H.) : *Le Sahara français.* Alger Jourdan 1891, 215 p.

Boyer (P.) : *La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française.* Paris 1963.

Brihmat (A.) : *Voyage d'Abou Salim Abdallah El Ayachi* ; 1ère partie du Draa à Ouargla. BSGO n° 7, 1880, pp. 330-334.

Canal (J.) : *Géographie générale du Maroc* - Paris 1902.

Carette (E.) : *Recherches sur la géographie et le commerce de l'Algérie méridionale.* Paris 1844.

Castries (Henry de) : *An-Nafhat al Miskiyya fi-s-sifârat at Turkiyya* ; relation d'une ambassade marocaine en Turquie 1589-1591 par Abû-l-Hasan 'Ali b. Muhammad at-Tamagrûtî. Paris 1929.

Colomb (M.L. de) : *Exploration des Ksours et du Sahara.* Alger **1858.**

— *Notices sur les Oasis du Sahara.* Paris 1860 (128 p.)

Despois (J.) et Raynal (R.) : *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest.* Paris 1967.

Scanned by CamScanner

Dupont (O.) et Coppolani (X.) : *Les confréries religieuses musulmanes.* Alger 1897.

Godard (Comt.) : *L'oasis moderne, essai d'urbanisme saharien.* Alger 1954 (225 p.).

Gonzalez (J.). : *Essai chronologique sur les musulmans célèbres de la ville d'Alger*, Alger, 1887.

Hadj Sadok (M'.) : *Le genre « rihla »* in Bulletin des études arabes. Alger, VIII, n° 40, pp. 195-206.

Haëdo (Fray Diego) : Histoire *des* rois d'*Alger.* Trad. de Gramont, Alger, 1880-1881 (222 p.).

— *Topagraphie et histoire générale d'Alger.* Trad. Monnereau et Berbruzger RA. 1870-1871.

Lakdar (A.) : *Les étapes du pélerin de Sidjilmasa à la Mèque et Médine.* 4e Congrés de la Fédération des sociétés savantes de l'Afrique du Nord, Rabat 1938, II, 671-688.
Léon l'Africain : *Description de l'Alfrique.* Edition A. Epaulard, 2 vol., Paris 1956.
Julien (Ch. A.) : *Histoire de l'Afrique du Nord.* Payot, Paris 1956, t. II.

Lapène (E.) : *Tableau historique de la province d'Oran de* 1792 *à* 1831. Metz 1842, 1 vol., 52 p.

Lévi Provençal (E.) : *Les historiens des Chorfa.* Paris 1922, 470 p.

Mercier (E.) : *Histoire de l'Afrique septentrionale.* Paris 1888, 3 vol.

Piesse (L.) : *Itinéraire de l'Algérie.* Paris 1874.

Shaw (Th.) : *Travels and observations relating to several parts of Barabry and the Levant.* Oxford 1738, (Traduit en français sou sle titre : voyages de monsieur Shaw dans la Régence d'Alger. La Haye 1743, 2 vol).

* * *

— Encyclopédie de l'Islam (E.I.).

— Revue africaine (R.A.).

— Bulletin de la Société de géographie d'Oran (B.S.G.O.).

— Annuaire de la Société archéologique de la province de Constantine.

— Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb.

— Annales de l'Institut d'Etudes Orientales (A.I.E.O.).

Scanned by CamScanner

فهـــرس الـكتـــاب

1 ـ القســـم الاول

الصفحة

ـ المقـــــــدمة 7

ـ الرحـــلات والعرب 9

. الرحلة فى طلب العلم 10

. الرحلة الاستطلاعية 11

. الرحلة للسفارة 11

. الرحلة الى الحجاز 12

ـ الجزائر فى العهد التركي ومشكل المصادر 13

ـ تراجم أصحاب الرحلات 16

ـ التمقـــــروتي 16

ـ العيـــــــاشي 17

ـ ابن زاكـــــور 19

ـ الـــزيـــاني 20

ـ الفوائد الاخبارية لهذه الرحـــلات 23

. النفحة المسكية 23

. ماء الموائد 24

. الطريق من المغرب الى تونس 25

. الركب 25

. الصحـــراء 26

المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية

Scanned by CamScanner

. الحياة السياسية 28
. الحياة الثقافية 30
نشر ازاهير البستان 31
نخبة العلماء فى العاصمة 32
طريقة التدريس 33
الاجازات 34
الترجمانة الكبرى 35
محمد الكبير والمغرب الاقصى 35
الزياني وتلمسان 36
. الجزائر العاصمة 37
قسنطينة 38
حسن باى 38
أحوال البلاد 39

2 – القسم الثاني

نص التمقروتي :

هنين 45
وهران 45
مستغانم 46
تنس 47
شرشال 47
الجزائر 47
دلس 48
بجاية 48
أبو مدين شعيب 48
زوبعة فى البحر 52

Scanned by CamScanner

القـــــــل 53
بـــونـــة 53
بجـــــاية 55
الجـــــزائر 57
هنـــــــين 62

نص العيـــاشي :

الخـــروج من سجلماسة 65
وادي قـــير 66
بني عبـــــاس 67
و حـــات تـــوات 69
فتـــوى حول بيـــع ماء الري 72
والـــــــن 74
وصيـــة محمد بن اسماعيل 75
القليعـــــــة 79
زرارة 80
الجـــديـد 80
وارقـــــلا 83
بعض عوائد أهلها 88
مقوســا 88
تماســن 89
تقـــرت 90
طـــريق العـــودة 96
نفطـــة 96
زريبـــة حامد 97
سيدي عقبة 100
بســكرة 100
الاخضـــري 103

Scanned by CamScanner

قبر النبي خالد 103
اولاد جلال 106
الاغواط 107
نزول مطر وخروج عقارب 108
الفسول 110
بوسمغون 111
وادي الناموس 111
الوصول الى فقيق 112

نص أبن زاكور :

وصف مدينة الجزائر 115
اخبار علمائها 116
الشيخ المانجلاتي 117
مدح الشيخ 118
نص الاجازة 121
محمد بن عبد المومن 124
نص الاجازة الثانية 130
أرجوزة محمد بن عبد المومن 131
اجازة الشيخ علي الشرملسي لابن عبد المؤمن 135
سعيد قدورة 140
ابن زاكور يستجيز الشيخ سعيد قدورة 141
نص الاجازة الثالثة 141
أخبار أبي عبد الله بن خليفة 142
رسالة ابن زاكور لابن خليفة 144
وفاة ابن خليفة 144
هجوم النصارى على الجزائر 145

Scanned by CamScanner

ثكل ابـن خليفـة 146
مغادر ابن زاكور الجزائر 147

نص الزياني :

نزول الزياني بوهران 151
تاريخ وهـــران 155
سفر الوزير الى تلمسان واقامته بها 156
هجاء قاضي المواريث 195
الحياة الثقافية بتلمسان 160
لمحة عن تاريخ المدينة 162
مغادرة الزياني تلمسان 168
مدن المغرب الاوسط 169
عقبة بن نافـع 172
الاخضـــري 172
قبـر النبي خالد 173
قدوم الزياني للجزائر العاصمة 174
الاقامة بقسنطينة 175
بعض علماء قسنطينة 178
الباي يستقبل الزياني 180
احوال البلاد بين الجزائر وقسنطينة 183
مغادرة قسنطينة 183
من تونس الى الجزائر 183
قسنطينة (مرة اخرى) 183
الاقامة بالجزائر 184
جامع كتشاوى 185
مـدح حسن باشا 187

Scanned by CamScanner

تحرير وهران 188
وصف مسجد كتشاوى 188
مركب للمسلمين يتعرض للقرصنة الاوروبية 193
الفرج بعد الشدة 194
نية الاستقرار بتلمسان 194

المصادر والمراجع :

1 ـ العربية 197
2 ـ الغربية 198

الخرائط :

1 ـ رحلة العياشي عبر الصحراء 97
2 ـ وهران فى القرن الثامن عشر 154
3 ـ رحلة الزياني عبر الجزائر 166

المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية

Scanned by CamScanner

طبع بمطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
3 شارع زيروت يوسف ـ الجزائر
مطبعة احمد زبانة

Scanned by CamScanner

السعر في الجزائر : 40 د.ج

Scanned by CamScanner